خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الخامسة

١٤٣٠هـ. ـ ٢٠٠٩م.

المركز الإسلامي للدراسات

خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷

الجزء الثاني

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

أنبياء الله تعالى.. ورسله ٨

بداية:

قد ذكرنا في المقصد السابق ما يتضح به الصورة العامة لدى البعض حول النبوة وحقيقتها وخصوصياتها، وهي تشكل القاعدة الفكرية والمنهج العقيدي لديه بالنسبة للخط العام الذي يحكم مسيرة الأنبياء «عليهم السلام» وحركتهم وأساليبهم في التعاطي مع القضايا ومع الناس، وعلى هذا الأساس سيكون تفسيره لجميع ما نقل من تصرفات الأنبياء «عليهم السلام» ومواقفهم في القضايا المختلفة ما يوحي مسبقاً بالنتيجة التي سيخرج بها عند تعرضه لأمثال هذه الأمور.

ومن هنا، فإن المقصد الثالث معقود لذكر جملة من كلمات البعض التي ذكرها في سياق تفسير الآيات المرتبطة بقصص الأنبياء «عليهم السلام» بغرض اظهار ما فيها من خلل وزلل.

فإلى ما يلي من مطالب وموارد..

الفصل الأول

آدم ونوح ′

١٩٨ ـ معصية آدم كمعصية إبليس.

١٩٩ ـ الفرق بين آدم وإبليس هو في الإصرار والتوبة.

٢٠٠ ـ آدم ينسى ربّه وينسى موقعه منه.

٢٠١ ـ آدم استسلم لأحلامه الخيالية وطموحاته الذاتية.

٢٠٢ ـ آدم طيب وساذج.. لا وعي لديه.

٢٠٣ ـ آدم يعيش الضعف البشري أمام الحرمان.

٢٠٤ ـ آدم يمارس الرغبة المحرمة.

٢٠٥ ـ الدورة التدريبية لآدم «عليه السلام».

إن جميع النقاط السابقة قد سجلها البعض في كلماته المكتوبة، وليست مجرد استنتاجات أو افتراضات.. فتلك هي ملامح صورة آدم النبي المبعوث من قبل الله سبحانه باعتراف وتصريح ذلك البعض نفسه. فلنقرأ معاً كلماته التالية، لنجد كل هذه المعاني تتحدث عنها الكلمات بصراحة ووضوح. إنه يقول:

«..وغفر لهما وتاب عليهما، ولكنه أمره بالخروج من الجنة، كما أمر إبليس بالخروج منها، لأنهما عصياه كما عصاه، وإن كان الفرق بينهما: أنه ظل مصراً على المعصية، ولم يتب، فلم يغفر له الله، بينما

وقف آدم وزوجته في موقف التوبة إلى الله، فغفر لهما»(١).

ويقول:

«فانطلقا إليها بكل شوق ولهفة، وأطبقت عليهما الغفلة عن مواقع أمر الله ونهيه، لأن الإنسان إذا استغرق في مشاعره، وطموحاته الذاتية، واستسلم لأحلامه الخيالية، نسي ربّه، ونسي موقعه منه».

ويقول:

«كيف نسيا تحذير الله لهما؟! كيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرمة»؟!(٢).

ويقول عنه: «كان يعيش الضعف البشري أمام الحرمان»(٣).

٢٠٦ ـ كان عاصياً ولم يكن مكلفاً؟!

ويقول:

«فالله أراد أن يدخل آدم في دورة تدريبية، ولذلك لم يكن أمراً جدياً. ولكنه كان أمراً امتحانياً، اختبارياً تجريبياً. وكان أمراً تدريبياً، تماماً كما يتم تدريب العسكري، ولذلك فالجنة لم تكن موضع تكليف وما يذكر لا يرتبط بالعصمة أبداً.

نعم.. إن الأنبياء من البشر وهم يعيشون نقاط الضعف، ولكن

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٠ ص ٣٤.

(٢) نفس المصدر ص ٣٢.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ ص ١٧١.

نقاط الضعف التي لا تدفعهم إلى معصية الله، أما مسألة الجنة وقصة آدم في الجنة فهذا خارج عن نطاق التكليف. لقد أراد الله أن يدخله في دورة تدريبية حتى يستعد للصراع القادم عندما ينزل هو وإبليس إلى الأرض ليكون بعضهم لبعض عدوا حتى يتحرك في مواجهة العداوة التاريخية» (١).

ويقول:

«الله أراد لآدم أن يمر في دورة تدريبية في مواجهة إبليس، لأن آدم طيب وساذج، ولم يدخل معترك الحياة» (٢).

وقفة قصيرة:

تلك هي الصورة التي قدمها ذلك البعض عن النبي آدم «عليه السلام» في بعض جوانب شخصيته، فهل ذلك كله يليق نسبته إلى نبي من أنبياء الله؟! بل هل يرضى أحد من الناس بأن ينسب إليه بعض من ذلك، كأن يقال عنه: إنه ساذج، أو يمارس الرغبة المحرمة، أو غير ذلك مما تقدم؟!

ونحن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن موارد أخرى نسجل ما يلي:

---

(١) الندوة ج١ ص ٣١٥.

(٢) الموسم عدد ٢١ ـ ٢٢ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ وعن كونها دورة تدريبية وكيف ذلك.. راجع: من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٥ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ والندوة ج١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

إن الموافق لأصول العقيدة أن يقال: إن معصية آدم ليست كمعصية إبليس، وإن تصرف آدم «عليه السلام» لم يكن تمرداً على إرادة الله سبحانه.. وهو المروي عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام».

كما أن الفرق بين آدم «عليه السلام» وإبليس (لعنه الله) ليس هو في التوبة وعدمها، وإنما هو في خصوصيات ذاتية، وملكات وحوافز لا تدع مجالاً لقياس أحدهما بالآخر..

كما أننا لا نوافق على التعبير: بأن آدم «عليه السلام» قد نسي ربه سبحانه وتعالى، ونسي موقعه منه، فلم يكن آدم النبي لينسى ربّه، بل كان دائم الحضور معه، وفي غاية الإنقياد والإستسلام له.. كما هو حال الأنبياء والأولياء «سلام الله عليهم».

تفسير الآيات:

ونرى: أن المناسب لأصول العقيدة، هو تفسير الآيات التي تحكي قصة آدم على النحو التالي:

١ ـ إن آدم «عليه السلام» حين نهاه الله سبحانه عن الأكل من الشجرة، قد عرف من خلال ذلك وجود مضرة من أكلها يصعب عليه تحملها، لكن إبليس قال له: إن هذا الضرر وإن كان صعباً، ولكن لو تحملت ذلك الضرر فثمة نفع عظيم ستحصل عليه وهو الخلود.

وليس من حق آدم أن يكذّب أحداً لم تظهر له دلائل كذبه، فكان من الطبيعي أن يقبل آدم منه ما أخبره به، ورضي أن يتحمل هذه الصعوبة البالغة من أجل ذلك النفع، وكانت له الحرية في أن يقرر

ويختار هذا النفع في مقابل ذلك الضرر، وتلك الصعوبة البالغة، أو لا يختار ذلك.

وهذا كما لو أخبرك طبيب بأن جلوسك في الشمس قد يتسبب لك بآلامٍ حادة في الرأس، ولكنه سيضفي أثراً جمالياً على لون البشرة، أو يشفيك من مرض جلدي معين.

أو كما لو أجريت لك عملية زرع شعر، أو عملية تجميلية، أو أعطاك الطبيب دواء مراً، للتخلص من وجع معين، فلم تطعه، أو ما إلى ذلك.. مما يتوقف على الألم والعناء الشديدين، فإن فعلت هذا الأمر تحصل على ذاك الامتياز، وإن أردت السلامة وعدم التعرض للأوجاع والمتاعب، فلن تحصل على شيء.

٢ ـ إنك حين تفعل ذلك الأمر لا تكون متمرداً على إرادة الذي نهاك عن الفعل ليرشدك إلى مشقته، وليجنبك التعب والشقاء.. ولا تكون بذلك خارجاً عن زي العبودية والانقياد، ولا مخلاً بمولوية سيدك وآمرك.

وهذا كما لو قال السيد لعبده، أو الأب لولده: لا تركض حتى لا تتعب، ثم قال له رفيقه: أركض لتصبح أقوى. فإذا علم بالتعب، وعلم بالقوة، فإن اختياره العمل بقول رفيقه لا يعني التمرد على إرادة أبيه.

٣ ـ في هذه الصورة الأخيرة يصح أن يقال: عصيت أبي، فتعبت وعرقت. ولو أنك لم تقبل بشرب الدواء المر، أو لم تبادر إلى إجراء عملية التجميل، فإنه يصح أن يقال: إنك عصيت أمر الطبيب.

٤ ـ وحين لا يتحقق ذلك الهدف الذي توخى الفاعل الحصول عليه، وهو الحصول على الخلد، أو الحصول على بعض المنافع، فمن الصحيح أن يقال: إنه عصى فغوى. أي لم يحقق مراده ولم يصل إلى هدفه، بل غوى عنه ومال.

٥ ـ أما سذاجة آدم، فلا ندري كيف يكون هذا النبي ساذجاً وبسيطاً، مع أن المفروض بأي مؤمن أن يكون كيّساً فطناً، فهل هي سذاجة من أصل الخلقة؟! أم هي ناشئة عن نقص في إيمان آدم؟!

ولعل هذا البعض قد حسب: أن عدم معرفة آدم «عليه السلام» بأمر خفي، لم يجد السبيل إلى معرفته، نوعٌ من السذاجة والبساطة.. مع أن هناك فرقاً بين السذاجة التي تعني التطلع إلى الأمور بنظرة حائرة بلهاء كما سيأتي في كلام نفس هذا البعض عن إبراهيم (أبي الأنبياء) «عليه السلام»، أو تعني نوعاً من القصور في الوعي والفهم، كما يقول عن آدم «عليه السلام»، وصرح به في خطبة ليلة الجمعة بتاريخ (٢٩ ـ جمادى٢ ـ ١٤١٨هـ) وبين عدم الإطلاع على الواقع لسبب أو لآخر.

وكيف يكون آدم ساذجاً وقد خلقه الله تعالى بيديه وعلمه الأسماء كلها، وباهى به ملائكته، وأثبت لهم أنه أوسع علماً ومعرفة منهم، وأمرهم أن يجعلوه قبلة في سجودهم لله سبحانه، وذلك تكريماً منه تعالى لآدم وتعظيماً له؟! أم يعقل أن الله سبحانه ـ بالرغم من ذلك كله ـ لم يتقن خلق آدم، ولم يتدارك مواقع الخلل فيه، وهو الذي يقول:

(فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)؟! (١).

٦ ـ أما الدورة التدريبية التي تحدث عنها بالنسبة لآدم، ولغيره من الأنبياء، فنحن نخشى أن يكون ثمة رغبة في الحديث عن دورات مماثلة لعيسى، وللإمامين الجواد والهادي والإمام المهدي «عليهم السلام»!! حيث إن تصديهم للمقامات الإلهية لم تسبقه دورة تدريبية فيها أوامر امتحانية وعسكرية.

إلا أن يقال: إن إمامتهم لم تبدأ في ذلك السن، وبقي مقام النبوة والإمامة شاغراً إلى أن انتهت دوراتهم التدريبية. ولعل ما يعزز هذا الاحتمال ما قالوه: من «أن غيبة الإمام المهدي «عليه السلام» إنما هي ليكتسب خبرة قيادية».

فلما أوردنا عليهم الإشكال قالوا: «إن الشهيد الصدر هو الذي قال ذلك..».

فراجعنا كلام الشهيد الصدر، فوجدناه يقول:

«وعلى هذا الأساس نقطع النظر مؤقتاً عن الخصائص التي نؤمن بتوفرها، في هؤلاء الأئمة المعصومين..» (٢).

أي: من أجل تقريب الفكرة لمن لا يعتقد بما نعتقده، كذا وكذا..

وهكذا يتضح: أن آيات القرآن لا تريد أن تنسب لآدم «عليه

(١) الآية ١٤ من سورة المؤمنون.

(٢) راجع كتاب بحث حول المهدي ص٤٢ وما بعدها.

السلام»، ما ينسبه إليه البعض من هنات ونقائص.

٢٠٧ ـ استسلم آدم ولم يشعر أن استسلامه يمثل تمرداً على الله وعصياناً لإرادته.

٢٠٨ ـ آدم يسقط إلى درك الخطيئة.

٢٠٩ ـ آدم أصبح منبوذاً من الله .

٢١٠ ـ أراد الله تدريب آدم في مواجهة حالات السقوط ليتنبه لأمثالها.

٢١١ ـ أراد الله تدريب آدم ليعي كيف تتحرك الخطيئة في نفسه في المستقبل.

٢١٢ ـ آدم لا يحمل أية فكرة فطرية عن التوبة فتلقاها من الله .

٢١٣ ـ الأقرب أن الكلمات التي تلقاها آدم ليست هي أسماء الأئمة.

٢١٤ ـ الله يتحدث عن آدم في كل مورد للإيحاء بالضعف الإنساني.

٢١٥ ـ آدم يسقط أمام تجربة الإغراء فيتعرض للحرمان الأبدي.

٢١٦ ـ آدم وتجربة الإنحراف بتسويل إبليس.

٢١٧ ـ آدم لم يأخذ الموضوع مأخذ الجدية والإهتمام ولم يتعمق في وعيه.

٢١٨ ـ آدم انحرف من موقع الغفلة وأجواء الحلم لا من موقع

الوعي.

٢١٩ ـ آدم لم يفكر جيداً.

٢٢٠ ـ آدم استسلم للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس الذاتية المتحركة مع الأحلام.

٢٢١ ـ آدم ابتعد عن خط الرشد.

٢٢٢ ـ معصية آدم معصية تكليف (لا إرشاد).

٢٢٣ ـ كان أمراً إرشادياً (لا تشريعياً).

٢٢٤ ـ شعور آدم وحواء بالخزي والعار.

٢٢٥ ـ آدم غير متوازن.

٢٢٦ ـ يخصفان من ورق الجنة للتخلص من العار.

٢٢٧ ـ إبليس أسقط آدم لئلا يبقى هو الساقط الوحيد في عملية التمرد على الله.

٢٢٨ ـ جريمة آدم تمثلت له في مستوى الكارثة.

٢٢٩ ـ إبليس نجح في إثارة الضعف في شخصية آدم.

٢٣٠ ـ آدم عاد إلى الله في عملية توبة وتصحيح.

٢٣١ ـ آدم أساء إلى نفسه بانحرافه عن خط المسؤولية في طاعة الله.

٢٣٢ ـ إبليس أوصل آدم وحواء إلى مرحلة السقوط، بسبب الغرور الذي أوقعهما فيه.

٢٣٣ ـ سقط آدم في الامتحان، وأخفق في التجربة.

٢٣٤ ـ إبليس قاد آدم إلى الموقف المهين.

٢٣٥ ـ خطيئة آدم أبعدته عن الله .

٢٣٦ ـ آدم والشجرة المحرمة، والرغبة المحرمة .

٢٣٧ ـ إبليس هبط بقيمة هذا المخلوق الذي كرمه الله .

٢٣٨ ـ إنحراف آدم طارئ بسيط.

٢٣٩ ـ آدم ثاب إلى رشده ودخل عالم الإستقامة من جديد.

يقول البعض:

«..وتبدأ الآيات من جديد في هذه السورة، لتضع الإنسان أمام بداية الخلق، ليعيش التصور الإسلامي عن تكريم الله للإنسان، وعن شخصية إبليس في خصائصه الذاتية، وفي طريقته في التفكير، وفي مخططاته من أجل إغواء الإنسان وإضلاله من خلال عقدة الكبرياء المتأصلة فيه.. ثم في محاولاته الناجحة، في البداية ـ فيما قام به من إثارة نقاط الضعف في شخصية آدم ـ حتى أخرجه وزوجه من الجنة.. ثم.. في عودة آدم إلى الله في عملية إنابة، وتوبة، وانطلاقة تصحيح، وموقف قوة في حركة الصراع مع إبليس، وذلك من أجل أن يعيش الانسان الوعي لدوره المتحرك في آفاق الصراع مع الشيطان في كل مجالات حياته.. فكيف عالجت هذه الآيات القصة..»؟! (١) .

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٠ ص ٢٢ و ٢٣.

ويقول أيضاً:

«وأراد الله أن يوحي إلى آدم بكرامته عليه، فيما يمهد له من سبل رضوانه ونعمه.. فقال له: **(اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)** وخذا حريتكما في التمتع بأثمارها فيما تختاران منها ممّا تستلذانه أو تشتهيانه.. **(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)** لا يمنعكما منه مانع **(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)**(١). فهي محرمة عليكما.. هذه هي إرادة الله التي انطلقت من موقع حكمته في توجيهكما إلى أن تواجها المسؤولية من موقع الالتزام والإرادة، في الامتناع عن بعض ما تشتهيانه من أجل إطاعة الله فيما يأمر به أو ينهى عنه، فلا بد من تجربة أولى لحركة الإنسان في عملية الإرادة.. فلتبدأ تجربتكما الأولى.. في هذه الأجواء الفسيحة التي منحكما الله فيها كل شيء.. مما يجعل من النهي الصادر منه إليكما، تكليفاً ميسراً لا صعوبة فيه ولا حرج.. فبإمكانكما السير في نقطة البداية من أيسر طريق.. فـ **(لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)**(٢). الذين يظلمون أنفسهم، ويسيئون إليها بالانحراف عن خط المسؤولية في طاعة الله.. ولم يكن لديهما أي حافز ذاتي يدفعهما إلى المعصية، لأنهما لا يشعران بالحاجة إلى هذه الشجرة بالذات.. ما دامت الشجرة لا تمثل شيئاً مميزاً في شكلها وثمرها.. فليست هناك أية مشكلة في

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

ذلك» (١).

ويقول أيضاً:

«ولم يكن عندهما أية تجربة سابقة في مخلوق يحلف بالله ويكذب، أو يؤكد النصيحة ويخون، أو يغش.. فصدقاه، وأقبلا على تلك الشجرة المحرمة يذوقان من ثمرتها ما شاءت لهما الرغبة أن يذوقا.. (**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**) (٢). أي أنزلهما عن درجتهما الرفيعة فأوصلهما إلى مرحلة السقوط بسبب الغرور الذي أوقعهما فيه، فيما استعمله من أساليب الخداع (**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**). وشعرا بالعري.. الذي بدأ يبعث في نفسيهما الشعور بالخزي والعار، في إحساس جديد لم يكن لهما به عهد من قبل.. وقيل: إنهما كانا يلبسان لباس أهل الجنة فسقط عنهما بسبب المعصية.. (**وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**). ليستراها في إحساس بالحاجة إلى ذلك، بطريقة غريزية من خلال شعورهما بالدور الخجول للعورة.. أو لأمر آخر يعلمه الله.. وسقطا في الامتحان وأخفقا في التجربة.. وبدأ هناك شعور خفي بالخيبة والمرارة.. فيما بدا لهما أنهما ارتكبا ما لا يجب أن يرتكباه.. وربما تذكرا نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة.. وربما يكونان قد عاشا بعض الحيرة فيما يفعلانه في موقفهما هذا.. فهذا أمر جديد لا يعرفان كيف يتصرفان فيه.. وهنا جاءهما النداء من

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٠ ص ٢٨ و ٢٩.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الله مذكرا ومؤنباً **(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)**. فكيف خالفتما هذا النهي وعصيتماني؟! ما هي حجتكما في ذلك؟! هل هي وسوسة الشيطان؟! وكيف لم تنتبها إلى وسوسته؟! ألم أحذركما منه، **(وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)** (١). يضمر لكما الحقد والعداوة والحسد.. منذ رفض السجود مع الملائكة وخالف أمر الله بذلك.. ووقف وقفة التحدي للإنسان ليغويه ويضره ويقوده إلى عذاب السعير.. وها أنتما تريان كيف قادكما إلى هذا الموقف المهين.. وتمثلت لهما الجريمة في مستوى الكارثة.. كيف نسيا تحذير الله لهما.. كيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرمة وغفلا عن عداوة الشيطان لهما.. وكيف خالفا أمر الله الذي خلقهما وأنعم عليهما.. وبدءا يعيشان الندم كأعمق ما يكون.. في إحساس بالحسرة والمرارة والذعر.. ولكنهما لم يستسلما لهذه المشاعر السلبية طويلاً، ولم يسقطا في وهدة اليأس.. فلهما من الله أكثر من أمل» (٢).

ويقول مشيراً إلى إحساس آدم بالخزي والعار:

«..**(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)**. الذي يستر عورتيهما.. فيما ألقى الله عليهما من ألوان الستر **(لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)**. ليعيشا الإحساس بالخزي والعار» (٣).

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ص٣٢ و ٣٣.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ص٣٩

ويقول أيضاً مشيراً إلى نفس الموضوع:

«..وجاءت هذه الآيات التي تبدأ النداءات بكلمة **(يَا بَنِي آدَمَ)** (١)، للإيحاء إليهم بالتجربة الحيّة التي عاشها آدم مع إبليس.. لئلا يكون التفكير في المسألة في المطلق.. بل يكون من موقع التاريخ الحي.. وقد استوحت الآيات قصة العري الذي شعر به آدم بسبب معصيته، في حالة من الإحساس بالخزي والعار.. لتوجه بنيه إلى النعمة التي أنعم الله بها عليهم، فيما خلق لهم من اللباس الذي يصنعونه من أصواف الأنعام وأوبارها وشعورها» (٢).

ويقول أيضاً:

«..كانت أول تجربة لهما في الوجود.. وانسجما مع التجربة في بساطة وعفوية.. وكان الشيطان لهما بالمرصاد. فقد عرف أن الفكر الذي يملكه الإنسان لا يقوى على مواجهة التحديات إلا من خلال التجارب المريرة التي يتعرف من خلالها أن الحياة لا تتمثل في وجه واحد، فهناك عدة وجوه وألوان.. ولم تكن لهذين المخلوقين الجديدين أية تجربة سابقة مع الغش والكذب والخداع واللف والدوران.. كان الصدق.. وكانت البساطة في مواجهة الأشياء، وكانت العفوية في تقبل الكلمات.. هي الطابع للشخصية البريئة الساذجة التي تتمثل في كيانهما..

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ص٣٧.

وبدأت العملية من موقع حقده وحسده وعداوته.. فمشى إليهما في صورة الملاك الناصح ليقول لهما: إن هذا النهي عن الأكل من الشجرة لا يلزمهما، بل سيحصلان ـ من خلال تجاوزه ـ على لذة الخلود والانطلاق في أجواء الملائكة.. وبدأت الكلمات الجديدة المغلفة بغلاف من البراءة والنصح تأخذ مفعولها في نفسيهما، فهما لم يتصورا أن هناك غشاً في النوايا، وخداعاً في الأساليب.. بل كل ما عندهما الصفاء والنقاء والنظر إلى الحياة من وجه واحد، هو الحقيقة بعينها.. فاستسلما للكلمات من دون أن يشعرا بأن ذلك يمثل تمرداً على الله وعصياناً لإرادته فقد كان لأساليبه فعل الساحر في نفسيهما تماماً كما هي الأحلام عندما تغرق الإنسان في أجواء روحية لذيذة فتبعده عن واقعه وعن حياته.

وسقطا أمام أول تجربة.. ونجح إبليس في التحدي الأول للإنسان، فأهبطه من عليائه وأسقطه من مكانته.. لئلا يبقى الساقط الوحيد في عملية التمرد على الله.. فها هو يشعر بالزهو والرضا، لأنه استطاع أن يهبط بقيمة هذا المخلوق الذي كرمه الله عليه، إلى درك الخطيئة ليصبح منبوذا من الله.. وجاء الأمر من الله إليهم جميعاً.. آدم وحواء وإبليس أن يهبطوا جميعاً.. وان يعيشوا في الأرض إلى المدى الذي يريد لهم أن يعيشوا فيه، ويتمتعوا فيما هيأه الله لهم من صنوف المتع واللذات.. وان يواجهوا الموقف بين الفريقين، فريق الإنسان

الخ..» (١).

ويقول أيضاً في مورد آخر:

«..ويعود القرآن إلى حديث الإنسان الأول آدم في كل مورد للإيحاء بالضعف الإنساني الذي قد يسقط أمام تجربة الإغراء حتى يخيّل إليه أنه يمثل الفرصة السانحة السريعة التي إذا لم يستفد منها وينتهزها فإنه يتعرض للحرمان الأبدي.. ولذلك فإنه يبادر إلى انتهازها مدفوعا بهذا التصور الوهمي.. ثم يكتشف ـ بعد الوقوع في المشكلة ـ بأن المسألة ليست بهذه السرعة، وأن النتائج الإيجابية الموعودة ليست بهذا الحجم، فقد كان بإمكانه أن يصبر ويحصل على نتائج جيّدة أفضل وأكثر دواماً وثباتاً».

إلى أن قال:

«..**(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ)** (٢) وأوصيناه وحذرناه مما قد يواجهه من تجربة الانحراف بتسويل إبليس الذي يحمل له أكثر من عقدة منذ إبعاده عن رحمة الله بابتعاده عن الاستجابة لأمره بالسجود لآدم.. في الوقت الذي لم يحمل له آدم أي شعور مضاد.. ولكن آدم لم يتعمق في وعي الموضوع، ولم يأخذ مأخذ الجدّية والاهتمام، وبقي مستمراً على خط العفوية والبساطة الصافية في مواجهته للأشياء

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١ص١٨١ و ١٨٢

(٢) الآية ١١٥ من سورة طه.

(فَنَسِيَ) ما ذكرناه به، فترك الامتثال للنصيحة الإلهية التي لم تكن أمراً تشريعياً يستتبع عقاباً جزائياً، بل كان أمراً إرشادياً يتحرك من المنطق الطبيعي للأمور فيما ترتبط به النتائج بمقدماتها».

إلى أن قال:

«..**(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ)**، التي إذا أكلت منها أعطتك خلود الحياة التي لا فناء فيها **(وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)** (١)، فيما يشتمل عليه من سلطنة دائمة مطلقة لا تسقط أمام عوامل الاهتزاز والسقوط.

وهكذا حاول الالتفاف على أحلامهما الإنسانية في الخلود والملك الباقي من دون أن يثير فيهما عقدة الخوف من المعصية لله، ولهذا كان أسلوبه هو أسلوب التحذير الذاتي، والغفلة الروحية عن النتائج السلبية التي تنتظرهما، إذا استسلما إليه.

وهذا هو الذي يجب أن ينتبه إليه الإنسان في مواقفه العملية، فيما قد يوسوس إليه الشيطان من التأكيد على حركة الحلم الوردي في مشاعره بطريقة غير واقعية، مستغلاً حالة الاسترخاء الروحي، والغفلة الفكرية التي يخضع لها في وجدانه، مما يجعله مشدوداً إلى الجانب الخيالي من أفكاره من دون مناقشة لها في قليل أو كثير فينحرف من موقع الغفلة لا من موقع الوعي، ومن أجواء الحلم لا من

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة طه.

أجواء الواقع، كما حدث تماماً لآدم وحواء عندما كانا ينعمان بسعادة الجنة ونعيمها في ظلال عفو الله ورحمته ورضوانه، يتبوءان من الجنة حيث يشاءان، فليس لديهما مشكلة هناك.. فلم يكن من إبليس إلا أن وسوس إليهما مستغلاً جانب الغفلة، فعزلهما عن الواقع، ودفعهما إلى التفكير بالخلود والملك الباقي من خلال الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها.. ولو فكرا جيداً لعرفا أن الخلود والملك ليسا من الأشياء التي تحصل بفعل الأكل من شجرة، بل هما نتيجة الإرادة الإلهية التي تملك أمر الموت والحياة، والملك الباقي أو الفاني، ولكنهما استسلما للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس الذاتية المتحركة مع الأحلام.

إن الموقف المتوازن هو الموقف الذي ينطلق من القرار المبني على الدراسة الموضوعية للأشياء، وعلى النظرة الواقعية لموقعها من المستقبل مما يفرض على الإنسان أن يتخفف كثيراً من أحلامه، لمصلحة الكثير من أفكاره ومواقفه الثابتة في الحياة.

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) (١)، فيما يعنيه ذلك من الإحساس بالعري الذي لا يغطيه شيء، فيما يعيشان الشعور معه بالعار والخزي في الوقت الذي كانا يتحركان ببساطة من دون مراعاة لوجود شيء في جسديهما يوحي بالستر، لأن مسألة الخطيئة في

(١) الآية ١٢١ من سورة طه.

أفكارها وأحلامها لم تكن واردة في منطقة الشعور لديهما.. ولهذا كانا لا يشعران بوجود عورة.. لأن ذلك هو وليد الشعور بالمنطقة الخفية من شخصية الإنسان فيما يختزنه في داخله من أفكار وأحاسيس كامنة في الذات. **(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)** في عملية تغطية وإخفاء وتخلص من العار **(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)** (١)، وابتعد عن خط الرشد الذي يقود الإنسان إلى ما فيه صلاحه في حياته المادية والمعنوية ولكن هذا الانحراف الطارئ البسيط لم يكن حالة معقدة في عمق الذات تفرض عليه الاستسلام للخطيئة كعنصر ذاتي لا يملك الإنفكاك منه بل هو حالة إنسانية تستغرق في الغفلة لحظة ثم تثوب إلى رشدها لتدخل في عالم الاستقامة من جديد..

إلى أن قال:

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ)، واصطفاه إليه واختاره لنفسه فلم يتركه ضائعاً حائراً في قبضة فرعون.. **(فَتَابَ عَلَيْهِ)**، ورضي عنه **(وَهَدَى)** (٢). وفتح له أبواب رحمته، ودله على الطريق المستقيم، وأراده أن يواجه الحياة من مواقع قوة الإرادة في ساحة الصراع مع الشيطان، ولعل الله سبحانه أراد أن يجعل له من تجربة العصيان في الجنة، فترة تدريبية يمارس فيها حركة الوعي للجو الشيطاني الذي يتحرك فيه الكذب والغش والدجل والخيانة والرياء.. ليختزن الفكرة قبل أن ينزل إلى

---

(١) الآية ١٢١ من سورة طه.

(٢) الآية ١٢١ من سورة طه.

الأرض التي أعده الله ليكون خليفة له فيها، فيستفيد من تجربة سقوطه وخروجه من الجنة على أساس ذلك، كيف يعمل على أن يتفادى السقوط في الأرض أمام الشيطان الذي غره من موقع العقدة الشيطانية المستعصية، وكيف يجعل من دوره الرسالي، موقع قوة للحياة وللإنسان لا موقع ضعف. وهكذا أراد الله له أن يعيش الشعور برضا الله عنه وهدايته له فيما يريد له أن يتحرك فيه..» (١).

ويقول أيضاً:

«..قد يثور أمامنا سؤال: إننا نعرف في قصة خلق آدم، في حوار الله مع الملائكة، ان الله قد خلقه للأرض ولم يخلقه ابتداء ليعيش في الجنة، فكيف نفسر هذا الأمر الذي يوحي بأن الجنة كانت المكان الطبيعي له لولا العصيان؟!

والجواب عن ذلك: هو أن الأمر الإلهي كان جزءاً من عملية التدريب الإلهي المرتكزة على فكرة الربط بين الجنة والطاعة في وعي الإنسان مع علم الله بأنه لن ينجح في الامتحان، فكان تقديره في خلقه للأرض من اشتراط البقاء في الجنة بشرط غير متحقق، فلا منافاة بين الأمرين.

وقد نستوضح الصورة في إطار الفكرة الأصولية التي يبحثها علماء الأصول في موضوع صيغة الأمر.. وهي أن دوافع الأمر قد

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ ص ١٦٩ ـ ١٧٧

تختلف، فقد يكون الدافع له هو إرادة حصول الفعل من المأمور وقد يكون الدافع هو امتحان إخلاص المأمور وطاعته، أو إظهار قوة إيمانه وإخلاصه، من دون أن يكون هناك أي غرض يتعلق بالفعل، كما نلاحظه في أمر الله لإبراهيم بذبح ولده، لا لأن الله يريد ذلك (ولذلك رفعه قبل حصوله) بل ليظهر عظمة التسليم المطلق لله في سلوك الأب والابن ليكونا مثلاً وقدوة للناس، وقد يكون الداعي أمرا آخر، وهو تدريب الإنسان على مواجهة حالات السقوط بتعريضه لتلك التجربة ليتنبه إلى أمثالها في المستقبل كما في حالة آدم «عليه السلام». ونحن لا نجد أي مانع عقلي في ذلك بل هو واقع كثيراً في أفعال العقلاء وأساليبهم في الأوامر والنواهي..

ولا مجال للاعتراض هنا بأن الله كلف آدم بما يعلم أنه لا يمتثل من خلال الظروف الموضوعية المحيطة به، أولا، لان العلم بعدم الامتثال لا يمنع من التكليف أساسا باعتبار أن العلم معلول للمعلوم وليس الأمر بالعكس.. وثانياً: أن التكليف لم يستهدف حصول الفعل، بل استهدف وعي التجربة المستقبلية من خلال التجربة الحاضرة وعلى ضوء هذا نجد أن الأمر هنا يشبه الأمر في قصة إبراهيم ولكن بطريقة متعاكسة في الموضعين».

التوبة ومدلولها في حياة الإنسان:

«..(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ)[(١)] . إنه هو لعل في هذه الآية بعض الدلالة على أن الموقف كله في قضية آدم كان تدريباً من أجل أن يعي الإنسان في مستقبل حياته كيف تتحرك الخطيئة في نفسه وكيف تدفعه بعيدا عن الله.. فقد عالجت هذه الآية قضية التوبة، ووضعها في نطاق الأشياء المتلقاة من الله مما يوحي بأن آدم لا يحمل أية فكرة فطرية عنها، فكان الإيحاء والإلهام من الله من أجل أن يتعلم كيف يتراجع عن الخطأ، فلا يستمر عليه.. أما طبيعة الكلمات فقد اختلف المفسرون فيها، ولكن الأقرب إلى الذهن هو ما حدثنا عنه القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى: **(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**[(٢)] .

إنه الشعور العميق بطبيعة الخطأ وعلاقته بنفس الخاطئ وحياته وانعكاساته على قضية مصيره فليست القضية متصلة بالله باعتبارها شيئاً يسيء إليه أو يمس سلطانه، ولكنها متصلة بالموقف الإنساني من الله بقدر علاقته بموقفه من مصلحة نفسه، مما يجعل من بقاء الذنب في موقعه خسارة كبيرة للإنسان في الدنيا والآخرة، ويكون طلب المغفرة والرحمة منطلقا من الرفض الكبير للمصير الخاسر. فلا خسارة اعظم من خسارة الإنسان علاقة القرب إلى الله لأنه يخسر

---

(١) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٣ من سورة البقرة.

بذلك امتداده الإنساني في الطريق المستقيم» (١).

وقفة قصيرة:

١ ـ إننا لا نريد أن نعلق على كل ما ورد في الصفحات المتقدمة حول آدم «عليه السلام»، ولا سيما قوله: إن شخصية آدم بريئة وساذجة. وهو الأمر الذي أكده من جديد في محاضرته في قاعة الجنان بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية ١٤١٨ هـ. وطبعت بعنوان: الزهراء المعصومة النموذج للمراة العالمية، ط سنة ١٩٩٧ ص ٥٠. وليعلم القارئ الكريم: أن ما تركناه من أقاويل هذا الرجل المشتملة على أمثال ما ذكر هنا، هو اكثر مما أوردناه في هذا الموضع من الكتاب.

٢ ـ إن هذا البعض قد ذكر في ما نقلناه عنه: أن الله سبحانه أراد أن يضع الإنسان أمام بداية الخلق، ليعيش التصور الإسلامي عن تكريم الله للإنسان.

ولكن ليت شعري أي تكريم هذا الذي يتحدث عنه هذا البعض، وهو نفسه يقدم لنا في كتابه «من وحي القرآن» بل وسائر كتبه ـ التي جدد التزامه بكل ما اورده فيها في محاضرته المشار اليها في قاعة الجنان ـ أوصافاً وأفعالاً ينسبها إلى الأنبياء ما يقزز النفس، ويثير الغثيان، ويبعث على القرف، حتى ليتمنى أي إنسان عادي لو أن الله

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١ص١٨٨ ـ ١٩١.

خلق شيئاً آخر بدلاً عن هذا الإنسان الأضحوكة والمسخرة والساقط والمهان. وإن ما ذكرناه هنا، وفي مواضع أخرى من هذا الكتاب يكفي للدلالة على نوع الأفكار التي يقدمها هذا البعض عن أنبياء الله وأصفيائه، فهي إلى التوراة أقرب منها إلى القرآن.

وليس ثمة مجال للاعتذار عن ذلك، بكونه ظاهر القرآن، لأننا قد شرحنا فيما تقدم من الآيات الكريمة المرتبطة بقضية النبي آدم «عليه السلام» كيفية عدم انطباق ما يقوله هذا البعض على تلك الآيات.

وسيأتي عند الحديث عن الآيات المتعلقة بسائر الأنبياء «عليهم السلام»: ما يقطع العذر عن مثل هذا الوهم.

٣ ـ على أن من الطريف: أن نشير هنا إلى أن الحديث عن شعور آدم وحواء بالخزي والعار، لا موقع له، إذ إنهما كانا وحدهما في الجنة، ولم يكن ثمة ناظر لهما غيرهما، وهما زوجان لا محذور من نظر أحدهما إلى الآخر..

إلا أن يقال: إن الجن والملائكة، وحتى الشيطان كان أيضاً موجوداً، ولا يريدان أن ينظر أحد ـ خصوصاً هذا المخلوق الشرير ـ إليهما، أو يقال: إن إحساسهما بظهور عورتيهما كان هو المرفوض من قبلهما.

وعلى أي حال، فإننا لا نتفاعل!! مع تعبيره عن آدم النبي «عليه

السلام»: أنه شعر «بالخزي والعار» (١)، فإن ذلك غير لائق في حقه «عليه السلام».

كما أن ذلك مجرد دعوى بلا دليل، ولم يكن هذا البعض حاضراً ولا ناظراً، ولا مطلعاً على آثار هذا الخجل الناشئ عن الشعور بالخزي والعار، ولا رأى عليهما آثار الاضطراب ولا شاهد حمرة الخجل في وجهيهما، ولا غير ذلك من علامات.

وبعد، فإن من الواضح: أن آدم «عليه السلام»، قد أكل من الشجرة، فواجه آثاراً سلبية في جسده لم تكن قد مرت به من قبل. وقد كانت هذه الآثار متعددة عبّر عنها القرآن الكريم بكلمة «سوءات» التي هي صيغة جمع، وقد نسب هذا الجمع إلى آدم وحواء كل على حدة.

ومعنى ذلك: أنه قد ظهرت سوآت عديدة لكل واحد منهما، لا سوءة واحدة لينحصر الأمر بموضوع ظهور العورة منهما، إذ لو كان المراد هو خصوص ذلك، لكان الأنسب أن يقول: بدت لهما سوأتاهما. وتبديل المثنى بالجمع إنما يصار إليه في الموارد التي يقطع فيها بإرادة المثنى، بحيث يكون العدول غير موهم.

٤ ـ إن العناوين التي ذكرناها في بداية كلام هذا البعض، والمأخوذة من كلماته وتعابيره، تعطينا فكرة عن طبيعة اللغة واللهجة

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ ص ٣٧ و ٣٨.

التي يتحدث بها عن أنبياء الله سبحانه وتعالى؛ فإنها ليست لغة سليمة ولا مقبولة، مهما حاولنا التبرير والتوجيه، والالتفاف على الكلمات بالتأويل أو بغيره.

فهل يصح أن يقال: إن آدم «عليه السلام» وهو النبي المعصوم قد سقط أمام التجربة، أو أنه أساء إلى نفسه بانحرافه عن خط الرشد والمسؤولية في طاعة الله؟!

أو إن آدم قد تعرض للحرمان الأبدي حين سقط في تجربة الإغراء؟!

أو إن الله حذر هذا النبي من تجربة الانحراف بتسويل إبليس؟!

وهل يصح وصف آدم بالمنحرف؟! وما جرى له بالإنحراف؟!

أم يصح أن يقال عن نبي: إنه لم يفكر جيداً؟!

أو يقال: إنه لم يشعر أن ذلك يمثل تمرداً على الله وعصياناً لإرادته؟!

أو إنه لم يأخذ الموضوع ـ فيما يرتبط بالأمر الإلهي ـ مأخذ الجدية والاهتمام؟!

أو إن جريمة آدم تمثلت له في مستوى الكارثة؟!

وماذا يعني: أن ينسب إلى آدم استسلامه للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس المتحركة مع الأحلام؟!

أو أن يقال: إن الله تعالى أراد تدريبه ليعي كيف تتحرك الخطيئة

في نفسه في المستقبل؟! وكيف تبعده عن الله؟!

وهل يصح أن يقال عن نبي من الأنبياء «عليهم السلام»: إنه سقط إلى درك الخطيئة؟!

أو أن يقال: إن إبليس قاد آدم إلى الموقف المهين؟!

أو إن هذا النبي قد أصبح منبوذاً من الله سبحانه؟!

ألا ترى معي أنها عبارات تستعمل عادة لأقل الناس وأحطهم؟!

٥ ـ وهل يمكن أن يقبل أحد مقولة: أن هذا النبي لا يحمل فكرة فطرية عن التوبة، فاحتاج إلى أن يتلقاها من الله سبحانه وتعالى؟! وأية آية دلّته على هذا النفي؟! فإن تلقي الكلمات من الله، وتعليم الله سبحانه لآدم كلمات (هي أسماء أصحاب الكساء) أو دعاءً مخصوصاً، لا يعني أنه كان لا يدرك حسن التوبة، ومطلوبيتها، فإن وجوب التوبة أمر عقلي، ثابت في الشرع، والعقل يدرك حسنها كما هو معلوم لدى العلماء.

إذن.. فالذي علمه الله إياه من الكلمات ـ كما ورد في روايات أهل البيت «عليهم السلام» ـ هو الدعاء، والإستشفاع بأهل البيت من أجل أن يتوسل بذلك إلى الله في توبته التي يدرك بعقله حسنها ومطلوبيتها لله سبحانه، وليس في الآية أنه تعالى علّمه أن يتوب.

٦ ـ كما أننا نلاحظ: أنه يستقرب أن تكون الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، هي خصوص قوله تعالى **(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**

وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (١) .

فإن هذه الكلمات تفيد: أن آدم «عليه السلام» قد دعا بها ربه، طالباً أن يغفر له ويرحمه حتى لا يكون من الخاسرين. وليس هناك ما يدل على أنها هي الكلمات التي علمها الله لآدم.

٧ ـ إن الأنسب والأوفق بسياق الآيات هو: أن تكون الكلمات التي علمها الله لآدم هي تلك التي وردت في الروايات الكثيرة عن اهل بيت العصمة «عليهم السلام»، وهي أسماء الأئمة والحجج على الخلق «عليهم أفضل السلام»، لأنها هي الكلمات التي تحتاج إلى تعليم في مقام كهذا لكي يستشفع آدم «عليه السلام» بمسمياتها لما لهم «عليهم السلام» من كرامة على الله.

وتكون هذه مناسبة جليلة يتعرف فيها آدم وذريته أكثر فأكثر على مقام هؤلاء الصفوة، ليكون تعلقهم بهم أقوى، ومحبتهم لهم أشد، وتقربهم منهم ومن خطهم ونهجهم أولى وأتم..

ولا ندري لماذا لم يشر هذا البعض إلى هذه الأحاديث الكثيرة جداً التي صرحت: بأن الكلمات التي علمها الله لآدم هي أسماء هؤلاء؟! وكيف ولماذا استقرب أنها ـ أي الكلمات ـ: **(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا..)** (٢) . مع أنه لا إشارة إلى ذلك أصلاً لا في الآية ولا في

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

الرواية. بل إن ما ورد في هذه الآية هو الموقف الطبيعي والعفوي الذي ينتظر صدوره من آدم «عليه السلام» من دون حاجة إلى أي تعليم[١].

٨ ـ على أن لنا أن نتوقف قليلاً عند قصة سجود إبليس لآدم، التي سبقت قضية الأكل من الشجرة، لأنها كانت في بدء خلقة آدم، فهل بقي آدم غافلاً عن حقيقة موقف إبليس منه؟! ألم يطلعه الله سبحانه على سوء سريرة إبليس، وعلى أنه عدو لهما **(وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)**[٢].

أليس في قول الله سبحانه هذا لهما إشارة إلى أن هذا المخلوق ليس مأموناً، وغير مرضي الطريقة، ولا يسير في الصراط المستقيم؟!

وألا يكفي آدم التوجيه الإلهي الصريح والواضح، حتى يحتاج إلى التدريب والتجربة؟! ولماذا اقتصرت تجربة آدم على الكذب والغش، ولم تتعد ذلك إلى سائر أنواع الفواحش؟!

أم أن هذا البعض يلتزم بأن آدم في نطاق دورته التدريبية قد واجه إبليس وعاينه حين ارتكابه لسائر الفواحش وممارسته لها عمليا؟!

---

(١) تفسير البرهان ج١ص ٨١ ـ ٨٩عن مصادر كثيرة.
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

وما هو السر في أن التجربة قد اقتصرت على الكذب والغش ولم تتجاوزه إلى الفتنة والغيبة والنميمة وغير ذلك، بل اكتفى في الباقي بالتوجيه والتعليم؟! ولماذا لم يستغن عن هذه الدورة التدريبية أيضاً بتعليم مناسب بالنسبة إلى الغش والكذب، يتفادى معه حصول ما حصل؟! أم أن الأساليب الإلهية قد استنفدت مع آدم «عليه السلام» ولم يفد معه إلا هذا الأسلوب الصعب والقاسي؟!

ولعل قوله: «الظاهر: أنه استمر في الخط المستقيم» (١) يشير إلى صحة هذا الاحتمال الأخير، لأنه ألمح إلى أنه حتى هذا الأسلوب لم يكن مجدياً إلى درجة يقطع معها باستقامة آدم على الطريق المستقيم.

٢٤٠ ـ الظاهر: أن آدم استمر في الخط المستقيم.

٢٤١ ـ عدم حديث الله عن خطأ آخر لآدم دليل عدم وقوعه من بعد ذلك.

ويقول البعض:

«..وانتهت قصة إبليس مع آدم.. واستطاع آدم بعد نزوله إلى الأرض أن يعي ـ تماماً ـ معنى الدور الشيطاني لإبليس في الإضلال والإغواء، من موقع العقدة المستحكمة في نفسه ضدّه.. وأن يحفظ نفسه منه فلم يحدّثنا الله عن خطأ آخر في مخالفة أوامر الله ونواهيه..

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٠ ص ٣٦.

بل الظاهر: أنه استمر في الخط المستقيم الذي ترتبط فيه كل ممارسات حياته وتطلعاته بالله، بعيداً عن وساوس الشيطان وأضاليله..» (١).

وقفة قصيرة:

١ ـ لا ندري كيف نعتذر عن هذا البعض في نسبة الخطأ في مخالفة أوامر الله ونواهيه إلى النبي آدم «عليه السلام». وقد تحدثنا عن المراد من الآيات فيما تقدم من الفصل، فنذكره..

٢ ـ كما أننا لا ندري كيف لم يجزم بعصمة آدم «عليه السلام» عن الخطأ في مخالفة أمر الله ونهيه، بل احتاط، وحمله على الأحسن!! فاعتبر أن الظاهر من أمر آدم: أنه استمر على الخط، ولم يقطع بذلك وأبقى باب احتمال المعصية، والانحراف عن خط الرشد مفتوحاً، مع أنه يقول: إن العصمة عن الخطأ في الأنبياء تكوينية!! إلا أن يريد: أن ذلك في خصوص العصمة عن الذنوب، أما الخطأ فلا عصمة عنه، وهو الظاهر من كلماته التي نقلناها وننقلها.

٣ ـ والذي لفت نظرنا: أنه اعتبر عدم حديث الله سبحانه عن خطأ آخر لآدم «عليه السلام» دليلاً على عدم وقوع أي خطأ منه.. فهل هذا الدليل يصلح للإعتماد عليه في ذلك يا ترى؟!

٢٤٢ ـ إهبطا أنتما وإبليس لفشلكم في الإستقامة على خط أوامر

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ ص ٣٦.

الله ونواهيه.

٢٤٣ ـ إهبطا أنتما وإبليس لعصيانكم الله.

٢٤٤ ـ أدرك آدم الهول الكبير الذي يواجهه في البعد عن رحمة الله.

٢٤٥ ـ أدرك آدم الهول الكبير في الخروج من مواقع القرب لله.

٢٤٦ ـ التحول الإنساني لآدم في الإعتراف بالذنب.

٢٤٧ ـ التحول الإنساني لآدم في العزم على التصحيح.

٢٤٨ ـ التحول الإنساني لآدم في الرجوع إلى الله بالعودة إلى طاعته.

٢٤٩ ـ الأوامر الإرشادية تتصل بمحبة الله لعبده كي لا يقع في قبضة الفساد.

٢٥٠ ـ الكلمات التي تلقاها آدم هي: **(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا)**(١) . الخ..

٢٥١ ـ الحديث المروي يؤكد تفسيره للكلمات المتلقاة ويستبعد أسماء أهل البيت.

٢٥٢ ـ آدم وحواء سقطا في التجربة الصعبة.

٢٥٣ ـ السقوط في التجربة كان بعد التحذير الإلهي من الشجرة،

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

ومن الشيطان.

ويقول البعض:

«..(وَقُلْنَا اهْبِطُوا)[١]. إلى الأرض أنتما وإبليس لعصيانكم الله، وفشلكم في الإستقامة على خط أوامره ونواهيه، (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ). بفعل الحرب المفتوحة بينكما وذريتكما وبينه، وجنوده، لأنه يستهدف إبعادكم عن رحمة الله، وعن جنته، بينما تعملون على التمرد عليه والخروج من سلطته والسعي إلى دخول الجنة والبعد عن النار. (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ). أي مقام ثابت لأن الله جعلها قراراً، (وَمَتَاعٌ) تستمتعون فيه في حاجاتكم الوجودية العامة والخاصة، (إِلَى حِينٍ)[٢]. إلى الأجل الذي جعله الله لكم في مدة العمر التي حددها لكم في هذه الدنيا.

وهكذا عرف آدم، ومعه زوجته معنى الشيطان في وسوسته، وقسوة التجربة في نتائجها، وأدرك الهول الكبير الذي يواجهه في البعد عن رحمة الله، وفي الخروج من مواقع القرب إليه، ومقامات الروح في رحابه.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٤ من سورة الأعراف.

آدم يتوب إلى الله تعالى:

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ)(١) . ترتفع إلى الله من روح خاشعة خاضعة، وقلب نابض بالحسرة، والندم ولسان ينطق بالتوبة، وكيان يرتجف بالتوسل، وذلك بالإلهام الإلهي من خلال الفطرة التي توحي بالمعرفة في علاقة النتائج بالمقدمات، وفي طريقة تغيير الموقف من دائرة السلب إلى دائرة الإيجاب، ليكون التحول الإنساني في الإعتراف بالذنب والإستسلام للندم، والعزيمة على التصحيح، والرجوع إلى الله بالعودة إلى طاعته في ما يكلفه به من مهمات، وفي ما يرشده إليه من إرشادات، لأن أوامر الله الإرشادية تتصل بمحبته لعبده، لئلا يقع في قبضة الفساد، كما تتصل أوامره المولوية بحرصه عليه في البقاء في خط الإستقامة، وابتعاده عن خط الإنحراف الذي يؤدي إلى الزلل ويقوده إلى الهلاك.

ولكن ما هي هذه الكلمات؟!:

إن الرجوع إلى القصة في سورة الأعراف يوحي بأن آدم الذي انطلق نحو التوبة في عملية تكامل مع حواء، وقف معها ليقولا في توبتهما: **(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**(٢) . ويبدو من خلال هذه الآية: أن التوبة كانت قبل

---

(١) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٣ من سورة البقرة.

الهبوط إلى الأرض، بعد التوبيخ الإلهي، والتذكير لهما: بأن سقوطهما في التجربة الصعبة لم يحصل من حالة غفلة، لا تعرف الطريق إلى الوعي، بل كان حاصلاً بعد التحذير الإلهي من الأكل من الشجرة، ومن الشيطان، باعتباره عدواً لهما، وذلك قوله تعالى:

(فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) (١).

ويؤكد هذا التفسير للكلمات: الحديث المروي في قوله تعالى: **(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ)** (٢). وقال: (لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني وأنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم.).

وهذا ما ينسجم مع الآية في أصل الفكرة، ولكنه يختلف عنها في التفاصيل» (٣).

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ قد تحدثنا فيما مضى من هذا الفصل بما فيه الكفاية عن قصة آدم «عليه السلام»، ولأجل ذلك، فإننا سوف نصرف النظر عن الإعادة، ولعل نفس العناوين التي استخرجناها من طيات كلام هذا البعض توضح لنا مدى جرأته على أنبياء الله وأوليائه.

٢ ـ قد أشرنا حين الحديث عن تفسيره لقوله تعالى: **(عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)**(١). وذلك عند الحديث عن كلام البعض حول نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، إلا أن مخالفة الأولى لا مجال لقبولها في حق الأنبياء، بأي وجه، لأنها تنتهي إلى الطعن بهم، أو الطعن في عظمة الله وجلاله، جل وعز..

٣ ـ إننا لم نستطع أن نفهم السبب في استبعاده أسماء أهل البيت «عليهم السلام»، وحصره الكلمات التي تلقاها آدم من ربه في خصوص هذا الدعاء، فإن التجاء الإنسان إلى الله، والإعتراف أمامه بالقصور، وبالتقصير، وطلب العون والستر والمغفرة، لا يحتاج إلى التلقي من الله سبحانه، وإلى التعليم، إذ إن ذلك هو ما تسوق إليه طبيعة الإنسان الذي يعرف الله، ويقف أمام جلاله، وعظمته، مدركاً عجزه في مقابل قدرته، وضعفه في مقابل قوته، وفقره، وحاجته في

---

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة.

مقابل غناه، فكان من الطبيعي أن يدعو آدم ربه، وقد نقلت الروايات لنا ذلك.

ثم تفضل الله عليه بتعليمه أسماء أهل البيت «عليهم السلام»، ليكونوا شفعاءه ووسيلته. فيكون قد جمع بين الدعاء وبين التوسل.

ولماذا يستبعد الروايات التي تحدثت عن أن الكلمات هي: «محمد، وفاطمة، وعلي، والحسنان»؟! فإن بإمكانه أن يجمع بين الروايات، باعتبار أنه «عليه السلام» قد جمع بين الدعاء وبين التوسل فيكون دعاؤه «عليه السلام» قد اشتمل على الأمرين معاً.

٤ ـ من قال: إن هبوط آدم «عليه السلام» وحواء من الجنة كان قد جاء على سبيل العقوبة لهما.. فلعله قد جاء من خلال الحالة التي استجدت لهما بسبب الأكل من الشجرة، من خلال تبلور الطبيعة البشرية بما لها من عوارض في شخصيتهما، حيث أصبحا يشعران بالحر والبرد، وبالقوة والضعف، وبالصحة والمرض، وبالجوع والشبع، وبالري والعطش.

وأصبح الواحد منهما يعرق، ويبول، ويتغوط، وينام إلى غير ذلك من حالات تعرض للبشر العاديين.

فلم يعد يمكنهما البقاء في الجنة من أجل ذلك، فكان لا بد من التوجيه الإلهي لهما باختيار المكان المناسب، دون أن يكون ذلك إبعاداً لهما عن ساحة الرحمة والقرب، والزلفى.

أما إبليس، فإن خروجه كان عقوبة له.. فإن طبيعة كينونته،

وتكوينه لا تقتضي أن يحصل له ما كان يحصل لآدم من العطش والجوع والحر والبرد والمرض وما إلى ذلك. فإذا طرد من الجنة، فإن طرده يمثل إبعاداً عن ساحة القرب والزلفى والرحمة الإلهية، وحرماناً من مقام الكرامة الربانية.

وسيتضح الفرق بين الموقفين، الذي يبرر اعتبار هذا عقوبة وذاك كرامة.

٥ ـ وقد روي عن (أحدهما) الإمام الصادق أو الإمام الباقر «عليهما السلام» قوله عن آدم «عليه السلام»: «إنه لم ينس وكيف ينسى وهو يذكره، ويقول له إبليس: **(مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)** (١) » (٢) .

وذلك يفيد: أن المراد بالنسيان من قوله تعالى: **(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)** (٣) ـ إن كانت الآية تتحدث عما جرى بين آدم وإبليس ـ هو أنه قد عمل عمل الناسي، بأن ترك الأمر وانصرف عنه، كما يترك الناسي الأمر الذي يطلب منه.

لكن الظاهر من الرواية المتقدمة: هو أن آدم «عليه السلام» لم ينس نهي الله عن الشجرة، كما أنه قد روي عن الإمام الصادق «عليه

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

(٢) البحار ج١١ ص١٨٧ عن العياشي وتفسير البرهان ج٢ ص٦.

(٣) الآية ١١٥ من سورة طه.

السلام» ما يدل على أن نسيان العهد في هذه الآية لا يرتبط بالنهي عن الشجرة، بل هو يرتبط فيما أخذ عليه في الميثاق.. وللبحث في هذه الآية مجال آخر.

٦ ـ قد ذكرنا: أن ما فعله آدم لم يكن تمرداً على إرادة الله ولا كسراً لهيبته، بل ما فعله «عليه السلام» يشبه مخالفة المريض لأمر الطبيب الذي نهاه مثلاً عن المشي لمدة ساعة وأعطاه دواء، فظن المريض المشي دواء له كما أن الدواء يقوم بمهمة المشي ويؤدي وظيفته، لكن المشي ساعة هو الأسرع في تحقيق الغرض من الدواء الذي يحتاج إلى عشرة أيام، فآثر المريض أن يتحمل مشقة المشي ليحقق غرض الطبيب وليفرح بالشفاء العاجل. وإذ بالنتيجة تكون عكسية حيث يظهر للمريض أن المشي ليس هو الدواء بل هو سبب الداء.

فيصح القول: بأنه عصى أمر الطبيب، وإن لم يكن الطبيب سيداً له، ولا نشأ أمره من موقع السيادة، بل من موقع الإرشاد والنصيحة، ولا تستحق مخالفة النصيحة، ولا مخالفة أمر الناصح أية عقوبة.

٧ ـ إن إقدام آدم «عليه السلام» على الأكل من الشجرة، وكل ما جرى له «عليه السلام»، قد جاء ليثبت أهلية آدم «عليه السلام» للنبوة، وامتلاكه للمواصفات التي تحتاجها في أعلى درجاتها، تماماً كما حصل لموسى «عليه السلام» مع الخضر «عليه السلام». إذ إن ما كان يطمح إليه آدم «عليه السلام» ويطمع به لم يكن أمراً دنيوياً،

ولذة عاجلة، كالسلطة، والمال، والجاه، والنساء، والمأكل، والملبس، وما إلى ذلك، بل كان طموحه منسجماً مع شخصيته الإيمانية والنبوية، وهو أن يعيش مع الله سبحانه وتعالى، وأن يكون خالصاً له. وأن يستأصل من داخله حتى ميوله وغرائزه الذاتية التي من شأنها أن تشده إلى أمور أخرى، ليصبح تماماً كما هو الملاك الذي يكون الخير طبيعته وسجيته، ولا يحمل في داخله أي شهوة أو غريزة يمكن أن يكون لها أدنى أثر في صرفه عن وجهته، أو أدنى أثر في وهن عزيمته.

كما أنه حين أراد الحصول على ملك لا يبلى، فإنه لم يرده حباً في الدنيا وإيثاراً لها.. وإنما ليكون قوة له في طاعة الله سبحانه، ووسيلة لإقامة العدل المحبوب لله فيما استخلفه سبحانه وتعالى فيه.

أضف إلى ذلك: أن طموح آدم «عليه السلام» وسعيه هو أن يبقى يعيش مع الله، وأن يكون عمره مديداً ومديداً جداً يصرفه كله في عبادته سبحانه، وفي رضاه، فهو لا يريد الخلود لأجل الدنيا، أو استجابة لشهوة حب البقاء..

نعم.. هذه هي أهداف وطموحات آدم «عليه السلام» النبي العاقل والحكيم، وهذا هو كل همّه، وغاية سعيه، ولو أنه لم يرد ذلك، لكان فيه نقص، ولما استحق مقام النبوة، لأنه بذلك يريد أن يبقى بعيداً عن الله، مستجيباً لغرائزه وشهواته..

وفوق ذلك كله، فإنه إذا كان قادراً على التصرف في الأمور

وكان ملكاً فإنه سيكون قادراً على التقلب في طاعة الله في مختلف الحالات، وينال بذلك أعظم مواقع القرب والزلفى منه تعالى.

ولأجل ذلك نجد أن إبليس اللعين قد ضرب على هذا الوتر الحساس بالذات، حين قال لهما وهما لا يريانه ـ كما روي عن الإمام العسكري «عليه السلام» ـ أو على الأقل لا دليل على رؤيتهم له ولا على معرفتهم به (١).

نعم، لقد ضرب إبليس اللعين على هذا الوتر فقال: **(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)**؟! (٢).

وقال لهما أيضاً: **(مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)** (٣)، فوعدهما بثلاثة أمور هي:

ـ الملك الباقي.

ـ والخلود.

---

(١) وقد يحجب الله سبحانه عن آدم «عليه السلام» معرفته بمن يخاطبه حين يخاطبه من وراء الحجاب، وذلك لكي يظهر آدم «عليه السلام» على حقيقته السامية التي استحق بها مقام النبوة، تماماً كما كان الحال بالنسبة لموسى «عليه السلام» مع الخضر «عليه السلام» حسبما أشرنا إليه، إذ قد كان يمكن أن يعرّف الله نبيه موسى «عليه السلام» بالكنز الذي تحت الجدار، وبالملك الغاصب للسفن، وبحقيقة معاملة ذلك الشاب مع أبويه.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة طه.

(٣) الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

ـ ونيلهما صفة الملائكية.

ولعل هذا الذي ذكرناه هو السر في أن إبليس لم يتحدّث لحواء وآدم «عليه السلام» عن الملذات التي يندفع إليهما الإنسان بدافع غريزي أو شهواني، كالطعام والشراب والنكاح وما إلى ذلك. بل تحدث لهما عن الملك الذي لا يبلى، وعن الحصول على صفة الملائكية وعن الخلود في كنف الله سبحانه وتعالى.

٨ ـ إن من يراجع الآيات يجد: أن الله سبحانه حين نهاهما عن الاقتراب من الشجرة، ولم يقل لهما إني أعذبكما عذاباً أليماً، أو فتكونا من العاصين، ليكون في ذلك إشارة إلى أن في الاقتراب منها هتكاً لحرمة المولى، وجرأة على مقامه وتعدّياً عليه وتمرداً على إرادته، وكسراً للهيبة الإلهية، بل قال لهما: **(فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)**(١). وهو تعبير يمكن فهمه على أن المقصود منه: صورة ما لو كان الظلم للنفس، ولو بأن يحملها فوق ما تطيقه، بحسب العادة، كأن يحملها خمسين كيلو بدلاً من عشرين مثلاً وهذا بطبيعة الحال سيرهقها ويشق عليها، ويتعبها.

ويمكن فهمه أيضاً في صورة الظلم للناس. والمعنى الأول هو الذي أراده الله سبحانه حين خاطب آدم «عليه السلام» بهذه الكلمة.

فلا يلام آدم «عليه السلام» إذن إذا حمله على معنى ظلم النفس،

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

بإرهاقها في أمر تكون نتيجة المعاناة فيه محققة لا محالة لآماله وطموحاته ـ كنبي ـ وهي التخلص من كل الغرائز والدواعي التي قد يجد فيها عائقاً عن الوصول إلى الله، ثم الخلود على صفة الملائكية في طاعته وعبادته سبحانه، لا الخلود من حيث هو شهوة بقاء خصوصاً إذا حصل على القدرات، والملك الذي لا يبلى الذي من شأنه أن يوصله إلى الطاعات بصورة أيسر وأكبر وأكثر.. وإلى الأبد، وليس إلى مدة محدودة.

٩ ـ ثم إن الله سبحانه قد قال لآدم وزوجه: **(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)**(١). و **(أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)**(٢). فكلمة هذه وتلكما.. تشيران إلى أن ثمة عناية إلهية في بيان أن المنهي عنه أمر محدود وخاص وجزئي بعينه، ولم يتعلق النهي بالطبيعة الكلية، ولا كان الحكم الصادر من قبيل الأحكام الشرعية العامة.

ولأجل ذلك ورد في الحديث الشريف عن الرضا «عليه السلام» أنه قال للمأمون: «..**(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)**(٣). وأشار لهما إلى شجرة الحنطة، **(فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)**(٤)، ولم يقل لهما: لا تقربا هذه الشجرة ولا ما كان من جنسها. ولم يقربا تلك الشجرة، وإنما أكلا من

____

(١) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ١٩ من سورة الأعراف.

غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما، وقال: **(مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)**، وإنما نهاكما عن أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها **(إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)** (١)، **(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)** (٢)، ولم يكن آدم وحواء شاهدا من قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً، **(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)** (٣) فأكلا منها ثقة بيمينه بالله» (٤).

والنتيجة هي:

أولاً: إن الشجرة المنهي عنها هي شجرة مخصوصة ومحددة، ولم ينههما عن جنسها، وهما إنما أكلا من غير التي حددت لهما.

ثانياً: وجود القسم ـ كما سنرى.

ثالثاً: وجود التعليل الذي ينسجم مع طموح آدم كنبي، كإنسان كامل.

١٠ ـ لقد كان الله سبحانه قد أعطاهما حياة تناسب الجنة، وتحمل الخصائص التي تحقق السعادة الواقعية **(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ**

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ج٣ ص٤٦ وج١ ص٨٣ والبحار ج١١ ص٦٤ عن عيون أخبار الرضا «عليه السلام» ص١٠٨ و ٩٠١.

..

شِئْتُمَا) [(١)] .

ومن الواضح: أن الإنسان المتوازن والمدرك والعاقل، الذي هو في مستوى نبي، ويليق بأن يكون اباً للبشرية ويكون النموذج للكمال البشري، حين جعله الله في الجنة فإنه أهّله بما يناسب الجنة من حالات وخصائص ومواصفات ولكنه حين أكل هو وزوجه من الشجرة ظهرت صفاتهما البشرية وغيّر من حالهما بصورة أساسية ما فاجأهما، حيث صارا يحسان بالجوع وبالعطش وبالصحة، وبالمرض والخوف والحزن والتعب والحرّ والبرد، واحتاجا إلى النكاح وغير ذلك، مع أن الله سبحانه حين أسكن آدم «عليه السلام» في الجنة قال له: **(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)** [(٢)] ، فهذه الآية الشريفة ـ فيما يظهر ـ لا تريد حصر الوعد الإلهي بهذه الأربعة، بل هي تشمل كل ما هو من هذا السنخ، حتى الصحة والمرض والخوف والحزن و.. و.. الخ.. ولعل هذه الأربعة قد خصصت بالذكر.. لتكون مثالاً، أو لتكون هي الأصول التي ينشأ عنها كل ما يدخل في هذا السياق فإن الله حين يتعهد بأن يمنع عن الإنسان حتى ما يضايقه من حر الشمس، فهل يرضى له بالحزن والخوف والمرض.. وما إلى ذلك؟!

(١) الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة طه.

والحاصل: أنه بعد أن ظهرت عليهما هذه الأعراض لم تعد الجنة هي المكان المناسب لحياتهما. فكان لا بد لهما من الهبوط إلى مكان آخر يناسب الجسد، وحالاته، حيث أضحى بحاجة إلى ما يسد الجوع ويشفي من المرض، ويرفع العطش، ويقي من الحر والبرد، ويؤمن من الخوف، ويدفع أسباب الحزن والتعب، وما إلى ذلك.

ولعل بعض الروايات قد قصدت هذا المعنى حيث أشارت إلى أمر الخلقة وتحولاتها، فقد روي عن الإمام الصادق «عليه السلام» قوله:

«فلما أسكنه الله الجنة، وأتى جهالة إلى الشجرة، أخرجه الله، لأنه خلق خلقة، لا يبقى إلا بالأمر والنهي، والغذاء، واللباس، والإلا.. والنكاح ولا يدرك ما ينفعه مما يضرّه إلا بالتوفيق من الله..» (١).

ثم تذكر الرواية تفاصيل ما جرى له مع إبليس..

وفي نص آخر عن أبي جعفر «عليه السلام»، عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن آدم «عليه السلام» قال مخاطباً ربّه:

«وبدت لنا عوراتنا، واضطرنا ذنبنا إلى حرث الدنيا، ومطعمها، ومشربها» (٢).

---

(١) راجع تفسير القمي ج١ ص٤٣ وتفسير البرهان ج١ ص٨٠ وج٢ ص٨٠ وج٢ ص٦ والبحار ج١١ ص١٦١.

(٢) تفسير البرهان ج١ ص٨٤ والبحار ج١١ ص١٨٣ عن تفسير العياشي.

وعن الإمام الصادق «عليه السلام»: «لما هبط بآدم «عليه السلام» إلى الأرض احتاج إلى الطعام والشراب، فشكا إلى جبرئيل إلخ..» (١).

فتجد أن هذه الروايات تشير إلى أن أكلهما من الشجرة هو الذي اضطرهما إلى الطعام والشراب واللباس.. وأيقظ غرائزهما، فاحتاجا إلى النكاح..

وربما يكون في قوله تعالى: **(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)** (٢). إشارة أخرى إلى ذلك أيضاً.

١١ ـ وأما بالنسبة لمعنى توبتهما التي تحدث عنها الكتاب الكريم، فلعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن المقصود بها هو عودتهما إلى الله سبحانه بعد أن أحسّا أنهما الآن بأمس الحاجة إلى عونه، وإلى تدبيره فالتجأ إلى الله، وعادا إليه يطلبان منه أن يعود عليهما بإحسانه وفضله، وعونه في مواجهة هذه المشكلات الجديدة، ورفع تلك الحاجات، وخشعا إليه وخضعا، وابتهلا، فاستجاب لهما لأنه هو مصدر اللطف والرزق والشفاء وستر جميع النواقص، وسد سائر الثغرات.

ومن مظاهر هذه الاستجابة ما تجلى في قوله تعالى: **(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ**

(١) البحار ج١١ ص٢١٧ عن الكافي.
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

خَيْرٌ)[(١)] .

فهي إذن ليست على حد توبة العصاة والمتمردين، بل هي بمعنى الالتجاء من موقع الإحساس العميق بالحاجة إلى اللطف والعون.

١٢ ـ وبعد أن اتضح لزوم أن يبادر آدم «عليه السلام» إلى الأكل من سنخ الشجرة، وفقاً للمعطيات التي توفرت لديه.. فإنه يبقى سؤال آخر يلح بطلب الإجابة، وهو: أن الله قد حذره من إبليس، ومن أن يخرجه من الجنة. فكيف قبل منه قوله؟!

ونقول في الجواب:

أولاً: إننا نجد في الروايات، ما يدل على أن آدم وحواء «عليهما السلام» لم يعرفا أن مخاطبهما هو إبليس، لأن إبليس كان قد خاطبهما من بين لحيي حيّة وكان آدم «عليه السلام» وحواء يظنان أن الحية هي التي تخاطبهما، وأن إبليس قال لهما: إن الله قد أحل لهما تلك الشجرة بعد تحريمها عليهما، لما عرف سبحانه من حسن طاعتهما، وتوقيرهما إياه. وجعل لهما علامة على صحة قوله: أن الملائكة الموكلين بالشجرة لا يدفعونهما عنها كما يدفعون غيرهم عنها. ولم تدفعهما الملائكة عنها لأنهم كانوا موكلين بدفع من لا يملك اختياراً وعقلاً[(٢)] . فإذا صحت هذه الرواية فلا يبقى إشكال في القضية

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف.

(٢) تفسير الإمام العسكري ص ٢٢٢ و ٢٢٣ وتفسير البرهان ج١ ص٨٠

بمجملها.

ويلاحظ هنا: أنه تعالى قد قال لهما: **(إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ)**(١). فحدّد له العدو، وأراه إياه، وجسّده له. ولم يقل له: إن إبليس عدو له. وحين تخفّى عنه، فإن آدم «عليه السلام» لم يخاطب الذي أخبره الله بعداوته، بل خاطب مخلوقاً آخر هو الحية.

وربما يؤيد ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قال: **(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ..)**، فإن الآية تشير إلى وجود التفاف وتمويه في أسلوب التعاطي، ليصبح التعبير بالوسوسة التي تعني إلقاء الكلام من طرف خفي.. وليس الخفاء إلا في إخفاء إبليس لنفسه عنه بطريقة أو بأخرى.. ليصبح كلامه معه، وكأنه لا يحس بأن أحداً يدفعه إلى الأكل من الشجرة، فإن الحية بحسب الظاهر قد أخبرته بأن في هذه الشجرة ثلاث خصوصيات، ولم تطلب من آدم «عليه السلام» أن يأكل منها بصراحة. وقد جاءت هذه الخصوصيات بحسب نتيجة التحليل الذي انطلق منه آدم «عليه السلام» من موقع إيثاره رضى الله سبحانه، وشوقه إلى مقامات القرب منه ـ حسبما أوضحناه ـ جاءت لتمثل العناصر التي ارتكز إليها قرار آدم «عليه السلام» بالأكل من سنخ الشجرة المنهي عنها.

والبحار ج١١ ص١٩٠ و ١٩١ وراجع: تعليق العلامة المجلسي ص١٩٣ ومستدرك الوسائل ج٢ ص ٢٨٦ ح٦٠٧.

(١) الآية ١١٧ من سورة طه.

وثانياً: إنه إنما أكل من شجرة أخرى تشبه الشجرة التي نهي عنها بالإشارة الحسية إلى الخارجي، فلا يرى أنه قد عصى أمر الله الذي انصب على شجرة محددة بكلمته هذه. ولأجل ذلك جاء تعبير إبليس بكلمة تلكما التي أشارت إلى الشجرة البعيدة عنها والمحددة لها بشخصها، والوصف، والإغراء، إنما وقع بهذه الشبيهة لا بتلك التي نهاه الله عنها مباشرة.

وثالثاً: يقول الله عز وجل عن إبليس: **(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)** (١)، وقد صرحت روايات عديدة عن الأئمة «عليهم السلام»، بأن آدم «عليه السلام» إنما تقبل قول إبليس لأنه أقسم له، قال آدم «عليه السلام»: إن إبليس حلف بالله أنه لي ناصح، «فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً». وهذا المعنى قد ورد في عدة روايات (٢).

ولعل السر في ذلك هو: أن الحلف بالله معناه إيكال الأمر إلى الله، وجعله في عهدته، والقبول بأن يكون سبحانه هو المتولي للتوفيق للصادق، ولإنزال العقوبة بالكاذب والتعويض على من يلحقه الضرر

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

(٢) تفسير البرهان ج١ ص٨١ و ٨٣ وراجع تفسير القمي ج١ ص٤٤ والبحار ج١١ ص١٦١ و ١٦٣ و ١٨٨ و ٢٠٦ و ١٦٤ وعيون أخبار الرضا ص١٠٨ و ١٠٩ وعلل الشرائع ص١٤٨ وعن الكافي (الفروع) ج١ ص٢١٥.

نتيجة ذلك..

وقد جاء التعبير بـ: **(وَقَاسَمَهُمَا)** ربما ليشير بذلك من خلال إيراده بصيغة المفاعلة إلى مشاركة من قبل آدم «عليه السلام» وحواء في الوصول إلى هذا القسم ولو عن طريق اشتراطهما للعمل بالنصيحة أن يقسم لهما على صدقه وصحة ما يقول.. ولعلهما قد أقسما أن لا يعملا بنصيحته إلا إذا أقسم لهما على أن يقول الحق والصدق في محاولة منهما لإلجائه إلى جعل الأمر بين يدي الله سبحانه، والقبول بتحمل كامل المسؤولية أمام العزة الإلهية القادرة على ملاحقة المجرم في صورة ظهور زيف ما جاء به.

فأقسم هو لهما على ذلك أيضاً، فصح التعبير بقاسمهما.

١٣ ـ وعن دخول إبليس إلى الجنة فعلاً، قد يرجح بعض الأعلام، أن لا يكون إبليس ممنوعاً من الاقتراب منها فاقترب منها وبقي في خارجها، وألقى الكلام إلى آدم «عليه السلام» وهو ـ أي آدم ـ في داخلها قرب الباب، فلما كان منه في حق آدم «عليه السلام» ما كان، أهبطه الله عن هذا المقام أيضاً، وحرمه حتى من الإقتراب من الجنة عقوبة له.

كما أنه قد أهبط آدم «عليه السلام» وزوجه منها، لكن لا على سبيل العقوبة لهما، وإنما بسبب عدم ملائمة حالهما لها بعد أن ابتليا بما ابتليا به، من ظهور حالات البشر في طبيعة التكوين، حسبما أوضحناه.

كما أن هناك من يقول: إن آدم «عليه السلام» إنما كان في جنة من جنان الدنيا، ولعلها هي المكان الذي تكون فيه أرواح المؤمنين، ولم يكن دخولها حتى ذلك الوقت ممنوعاً على إبليس، فلما كان منه ما كان في حق آدم «عليه السلام» حرمه الله سبحانه حتى من دخول جنان الدنيا.

١٤ ـ ويتضح من جميع ما ذكرناه هنا وفيما تقدم من هذا الكتاب أن تفسير الآيات التي تحدثت عما جرى لآدم «عليه السلام» لا يفرض نسبة المعصية الحقيقية إليه.. وأن ثمة إشارات في الروايات وفي الآيات نفسها إلى وجوه من التفسير الصحيح، والمنسجم مع قداسة هذا النبي الكريم ومع الضوابط العقلية والإيمانية.. فلماذا الإصرار إذن على نسبة النقائص له صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا وآله؟!

٢٥٤ ـ لا طريق إلا تزويج الإخوة بالأخوات.

٢٥٥ ـ لا مناعة جنسية حتى بين الأم وولدها.

٢٥٦ ـ بامتداد النسل يحصل الجو النظيف جنسيًا.

وفي إجابة له عن كيفية توالد أولاد آدم «عليه السلام» نجده يقول:

«يمكن القول ـ كما نتبنى نحن هذا الرأي وثابت بالأدلة الشرعية ـ: بأن الإخوان تزوجوا الأخوات».

ثم يذكر أن ذلك لم يكن حراماً، فيقول:

«أول الخلق كان هذا الشيء حلال، لماذا؟! لأن هذا هو الذي يفسح المجال لانطلاقة البشرية، ولا يوجد طريق غيره» (١).

ثم يفلسف هذا الموضوع فيقول:

«فنظام العائلة مكون من أب وأم وأخوة وأخوات، وهو إنما يتوازن ويستقيم عندما تكون هناك مناعة عند الأب وعند الأم وعند الأخ وعند الأخت ضد أي إحساس جنسي تجاه الآخر، لأنه لو فرضنا أن الأحاسيس الجنسية كانت موجودة في حياة الأب والأم تجاه أولادهما، أو في حياة الأولاد تجاه بعضهما البعض فلن تستقر حياة عائلية ولن تنسجم في خصوص الجو العائلي المغلق، حيث يفسح المجال لهذه الأمور بشكل فوق العادة. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن صار هناك أبناء عم أو أبناء خال وخالة، أي عندما امتد التناسل وأصبحت هناك علاقات طبيعية، حرم الله ذلك ليستقيم نظام العائلة ولتنمو العائلة في جو طاهر نظيف من الناحية الجنسية، وبعد ذلك تنطلق لينشئ كل واحد منهم عائلة» (٢).

وقفة قصيرة:

١ ـ إن هذا الكلام معناه: أن عائلة آدم «عليه السلام» أو العائلة في عهد آدم لم تكن تعيش في جو طاهر نظيف من الناحية الجنسية..

(١) الموسم العددان ٢١ و ٢٢ ص٣١٩.
(٢) الندوة ج١ ص ٧٣٧.

ولم يكن ثمة مناعة عند الأب والأخ والأخت والأم ضد أي إحساس جنسي تجاه الآخر. فهل يفترض هذا البعض وجود انفلات جنسي إلى هذا الحد فيما بين عائلة آدم، بحيث كان الكل لديه أحاسيس جنسية تجاه بعضهم البعض حتى الأم تجاه ولدها.. ثم لما تكاثرت العائلة وأصبح هناك أبناء عم وأبناء خالة حصلت المناعة؟! وكيف حصلت؟!

٢ ـ إن هذا البعض يقول، إن تزويج الأخ بأخته في أولاد آدم ثابت بالأدلة الشرعية، ويزعم أنه لم يكن ثمة طريقة يمكن بواسطتها حل هذه المشكلة وانطلاقة البشرية من خلالها..

ونقول له:

أليس من الممكن أن يخلق لكل ولد زوجته، كما خلق آدم وحواء من قبل؟!

وقد روى الصدوق «رحمه الله» في العلل عن الصادق «عليه السلام» في حديث له ينكر فيه «عليه السلام» حديث زواج الأخ بأخته:

«..سبحان الله عن ذلك علواً كبيراً، يقول من يقول هذا: إن الله تعالى جعل أصل صفوة خلقه، وأحبائه وأنبيائه، ورسله، وحججه، والمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات من حرام!! ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر

الطاهر الطيب»؟! [1].

وأما خبر «الإحتجاج» و «قرب الإسناد» حول تزويج الإخوة بالأخوات، فيضعفه مطابقته في هذا الأمر لمذهب غير الشيعة [2].

٢٥٧ ـ الله يؤنب ويوبخ نبيه.

٢٥٨ ـ نوح لم يلتفت إلى **(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)** [3].

٢٥٩ ـ كلمة **(مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)** لم تكن واضحة.

وعن عدم التفات نوح «عليه السلام» إلى ما قاله الله تعالى حين أوحى إليه بشأن ولده، نجد البعض يقول في سؤال وجواب:

«كيف يمكن له أن يعيش لحظة الضعف أمام عاطفة البنوة، ليقف بين يدي الله ليطلب منه إنقاذ ولده الكافر، من بين كل الكافرين؟!

وكيف يخاطبه الله بكل هذا الأسلوب الذي يقطر بالتوبيخ والتأنيب؟! ويتراجع نوح، ليستغفر، ويطلب الرحمة لئلا يكون من الخاسرين.

ويمكن لنا أن نجيب عن ذلك: أن المسألة ليست مسألة عاطفة تتمرد، ولكنها عاطفة تتأمل وتتساءل، فربما كان نوح يأمل أن يهدي الله ولده في المستقبل.

---

(١) تنزيه الصفوة ص١٥ و ٧ و ٨ و ٢٣ و ٥ و ١٧ ـ ١٩.

(٢) تنزيه الصفوة ص ٢١ و ٢٢ و ١٠ و ١١.

(٣) الآية ٢٧ من سورة المؤمنون.

وربما كان يجد في وعد الله له بإنقاذ أهله ما يدعم هذا الأمل لأنه من أهله ولم يلتفت إلى كلمة: **(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)**، لأنها لم تكن واضحة» (١).

ويقول في موضع آخر عن نوح الذي كان السؤال يلح على قلبه:

«والحسرة تأكل قلبه على ولده أن الله وعده أن ينقذ أهله»

إلى أن قال:

«ولم ينتبه إلى كلمة: **(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)** (٢). فأقبل إلى ربه بالنداء الخ..» (٣).

وقفة قصيرة:

إننا نسجل هنا ما يلي:

أولاً: إنه ليس ثمة من دليل ملموس يدل على أن نوحا صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بكفر ولده، فلعله كان قد أخفى كفره عن أبيه، فكان من الطبيعي أن يتوقع «عليه السلام» نجاة ذلك الولد الذي كان مؤمنا في ظاهر الأمر، وذلك لأنه مشمول للوعد الإلهي، فكان أن سأل الله سبحانه أن يهديه للحق، ويعرفه واقع الأمور، فأعلمه الله سبحانه بأن ولده لم يكن من أهله المؤمنين، وأنه من مصاديق **(مَنْ**

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٢ ص٧٩ و ٨٠.

(٢) الآية ٢٧ من سورة المؤمنون.

(٣) الحوار في القرآن ص٢٣٠ ط سنة ١٣٩٩هـ ق.

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ). فتقبل نوح ذلك بروح راضية[(١)].

ثانياً: إنه ليس ثمة ما يدل على أن نوحاً «عليه الصلاة والسلام» قد عاش الحسرة على ولده، من حيث إنه ولده.. فإن الأنبياء يعيشون الحسرة على الكافرين لما يفعلونه بأنفسهم، لا لقرابتهم منهم.

والشاهد على ذلك ما حكاه القرآن عن نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله»، حيث خاطبه الله بقوله: **(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)**[(٢)].

ويقول: **(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)**[(٣)].

ويقول: **(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**[(٤)].

غير أننا إن تأكد لدينا أن نوحاً «عليه السلام» كان واقفاً على كفر ولده، فإن من المعقول والمقبول جدا فهم موقف نوح، على أنه «عليه السلام» قد أراد أن يفهم الناس الذين نجوا وهلك أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم وأحباؤهم، أراد أن يفهمهم من خلال الوحي الإلهي: أن لا خصوصية لمن نجا من أهل نوح، كما لا خصوصية لمن هلك منهم

---

(١) راجع تفسير الميزان ج١٠ص٢٣٢.

(٢) الآية ٨ من سورة فاطر.

(٣) الآية ٦ من سورة الكهف.

(٤) الآية ٣ من سورة الشعراء.

ومن غيرهم، إلا ما يدخل في دائرة الإيمان، فلهم النجاة، أو في دائرة الكفر فلهم الهلاك..

وأراد أن يفهمهم أيضاً أن القضية قد نالت فيمن نالت حتى نبي الله نوحا في ولده.. وأن هلاك ذلك الولد لم يكن فيه خلف للوعد الإلهي، لأن المقصود بالأهل الذين صدر الوعد بنجاتهم هم أهله المؤمنون.

ثالثاً: إذا راجعنا الآيات نفسها، فلا نجد فيها أنه «عليه السلام» يطلب من ربه نجاة ولده، بل فيها أنه «عليه السلام» قد اعتبر رحمة الله ومغفرته هي الربح الأكبر، وبها تكون النجاة من الخسران.

ولأجل ذلك نجده «عليه السلام» قد قال: **(إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)** (١). توطئة للرد الإلهي الذي سيحدد خصوصية الأهل الموعود بنجاتهم، وهم المؤمنون، دون الكافرين.. حيث قد سبق القول بإهلاك الكافرين سواء أكانوا من أهل نوح أو من غيرهم.

رابعاً: بالإضافة إلى ما تقدم نقول:

إن نوحاً «عليه السلام» قد طلب من ولده أن يركب معهم، فقال: **(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)** (٢).

---

(١) الآية ٤٥ من سورة هود.

(٢) الآيتان ٤٢ و ٤٣ من سورة هود.

وهذا ـ أعني قوله تعالى: **(وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)** ـ يشير إلى أنه يراه مؤمناً، وأنه هو الذي رفض الركوب معهم، وعرض نفسه للهلاك مع علم نوح بأن التخلف عن ركوب السفينة معناه التعرض للهلاك المحتم، وكان هذا هو خيار ولده نفسه..

ثم أشار «عليه السلام» إلى ما يفيد: أنه لم يكن بصدد طلب نجاة ولده، ولا كان يتهم الله تعالى بخلف وعده، حيث صرح «عليه السلام»: أن وعد الله هو الحق..

وقبل أن يتقدم بأي طلب من الله كان التعليم الإلهي له: أن لا يسأله ما ليس له به علم.

إذن، فهناك شيء لم يكن نوح مطلعاً عليه، حسب دلالة الوحي الإلهي، فجاءت استجابة نوح لتؤكد على أنه «عليه السلام» لم يسأله، ولن يسأله في المستقبل:

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)(١).

ثم جاء قوله «عليه السلام»: **(وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**(٢)، ليؤكد هذه الحقيقة، حيث إنه قد استعمل كلمة (لا) ولم يستعمل كلمة (لم)، ليفيد أنه لا يتحدث عن الماضي، حيث لم يصدر

---

(١) الآيتان ٤٦ و ٤٧ من سورة هود.

(٢) الآية ٤٧ من سورة هود.

منه ما يحتاج إلى ذلك، بل هو يتحدث عن المستقبل.

ويتضمن هذا التعبير إشارة إلى أن طلب الأنبياء للمغفرة، إنما يراد منه طلب دفع المعصية عنهم، لا رفعها، كما هو معلوم عند أهله..

خامساً: إنه ليس ثمة ما يدل على أن نوحاً «عليه السلام»، لم يلتفت إلى كلمة (**إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**)(١). أو أن هذه الكلمة لم تكن واضحة حين الوحي، علما أن ذلك يخالف العصمة في البلاغ وفي التبليغ، وهي أمر عقلي، مسلّم وقطعي، عند جميع المسلمين، وليس في الآيات أيضاً: أن نوحا قد عاش الحسرة على الكافر، حتى لو كان ذلك الكافر هو ولده بالذات.

سادساً: وأخيراً، هناك الكثير من الاحتمالات التي تتحملها الآيات بحيث تكون بعيدة عن وصم الأنبياء «عليهم السلام» بهذه النقائص، ولا تتنافى مع (بلاغة القرآن)، فلماذا اختيار التفاسير التي تظهر أو تنسب نقيصة للنبي أو الولي، دون غيرها من التفاسير التي تنزههم عن مثل هذه النقائص؟!

---

(١) الآية ٢٧ من سورة المؤمنون.

الفصل الثاني

إبراهيم.. ولوط ′

٢٦٠ ـ التأكيد على سذاجة إبراهيم عدة مرات.

٢٦١ ـ خشوع إبراهيم للكوكب، وقناعته بربوبيته.

٢٦٢ ـ إبراهيم «عليه السلام» في وهم كبير.

٢٦٣ ـ إبراهيم يعبد القمر ويتصوف له.

٢٦٤ ـ ضياع إله إبراهيم في الأجواء الأولى للصباح.

٢٦٥ ـ (**لَا أُحِبُّ**).. (**هَذَا أَكْبَرُ**) صرخة طفولية.

يقول عن إبراهيم «عليه السلام»، في ما قصه الله تعالى، من خطابه «عليه السلام» للكوكب ثم للقمر والشمس: إن هناك احتمالين في تفسير الآيات التي تعرضت لذلك:

أحدهما: أن يكون ظاهر الآيات هو حقيقة موقفه، فيكون إبراهيم قد صدق بأن الكوكب والقمر والشمس آلهة..

الثاني: أن يكون إبراهيم «عليه السلام» قد قام بحالة استعراضية أمام قومه ليقنعهم بالحقيقة.

وقد ذكر لكلا الاحتمالين ما يقربه.. ولكنه شرح الآيات شرحاً مسهباً على أساس الاحتمال الأول، ثم بعد أن ذكر ما يؤيد كل واحد من الإحتمالين، وذكر ما يمكن استفادته من الآيات، عاد وختم كلامه

وفق الاحتمال الأول..

ومن الواضح: أننا وإن كنا نستظهر من ذلك ميله إلى ذلك الاحتمال الفاسد، ولم يذكره لمجرد كونه احتمالا، إلا أن مجرد توهم أن يكون نبي الله إبراهيم «عليه السلام» قد عبد غير الله، أو اعتقد بألوهيته وربوبيته، هو توهم واحتمال باطل في حق الأنبياء، ويلزم التصريح بتسخيفه وبطلانه، فضلا عن تأييده بالشواهد، ثم شرح الآيات بما يناسبه، ثم إنهاء الكلام والخروج من الموضوع من خلاله..

ونحن نذكر فيما يلي كلماته كلها.. فنقول:

يقول البعض:

«وتطالعنا ـ في هذا المجال ـ شخصية إبراهيم ـ النبي.. التي يقدمها لنا القرآن في أجواء الصفاء الروحي، والبساطة الإنسانية.. والطبيعة العفوية.. التي تلامس في الإنسان طفولته البريئة فيما تلتقي به من حقيقة الأشياء.. ليفكر من خلال براءة النظرة في عينيه، وسلامة الحس في أذنيه ويديه، فيما يرى أو يسمع أو يلمس، فيما لديه من أدوات الحس الواقعي..

فنحن لا نرى فيه ـ من خلال الصورة القرآنية ـ شخصية الإنسان الذي يتكلف الكلمات التي يقولها للآخرين، ولا نلمح لديه روحية الشخص المشاكس الذي يبحث عن المشاكل في أفعاله وعلاقاته.. بل نشاهد فيه الشخصية البسيطة الواقعية التي ترتبط بالأشياء من جانب

الإحساس، فتسمي الأشياء بأسمائها بعيداً عن تزويق الألفاظ، وزخرفة الأساليب، بقوةٍ وصدقٍ وواقعيةٍ وإيمان.

ففي الصورة الأولى، نلتقي به في موقفه من أبيه الذي يعبد الأصنام التي يعبدها قومه.. فيواجهه بالإنكار القوي الرافض للموقف من الأساس، لرفضه الفكرة التي يرتكز عليها.. فهذه الأصنام، هي أحجار جامدة، كبقية الأحجار الموجودة في العراء.. ولا ميزة لها إلّا أنّ يد الإنسان قد أعطتها بعض ملامح الصورة، فحولتها إلى تماثيل.. فإذا كان الإنسان هو الذي أعطاها تلك الميزة التي تختلف بها عن سائر الأحجار.. فهي صنع يده، فكيف تكون آلهة له.. ومن الذي أودع فيها سر الألوهة؟! وهل الألوهة شيء يصنع ويخلق، أو هي قوة تصنع وتخلق؟!

ثم إن الألوهة تعني القدرة والعلم والحياة والغنى المطلق فيما تعنيه من ملامحها الحقيقية.. فما هي ملامح ذلك كله في هذه التماثيل؟! ولكنها الأوهام التي حولت الأشياء غير المعقولة.. إلى عقائد وتصورات ورموز قداسةٍ في مستوى الآلهة.. فكيف تتخذ هذه الأصنام آلهة؟! وكيف؟!

..إن فكري لا يلمح أيّة إشراقة للحقيقة فيما تسير عليه.. ولو من بعيد بعيد.. بل كل ما هناك الظلام والتيه والضياع.. وهنا يتحول التساؤل.. إلى حكم قاطع في مستوى وعيه للحقيقة المنطلقة من خط الهدى.. التي تحدد ملامح الضلال في خطوط الآخرين..

إني أراك وقومك في ضلال مبين:

إنه الموقف الصلب الذي لا يهادن ولا يجامل.. ولا يغلف الأشياء بغلاف سحري، بل يدفع الموقف إلى الأمام، بكل وضوح وصراحة.. بعيداً عن المجاملة واللياقة التي تفرضها علاقة الابن بأبيه.. لأن قضية العقيدة لا تخضع للجانب العاطفي للعلاقات لأن علاقة الإنسان بالحقيقة التي تربطه بالله أقوى من أية علاقة بأي إنسان كان.

وفي الصورة الثانية نشاهد إبراهيم يتطلع إلى السماء، كما لو كان شاهدها أول مرة، فهو ـ فيما توحيه الآية ـ يواجهها كتجربة جديدة لم يلتق بها من قبل، وذلك فيما تعنيه التجربة من المعاناة في حركة الحس البصري كمادة للتفكير، للانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن المادة إلى المعنى.. فقد كان يشاهدها سابقاً، في رؤية جامدة، لا تعني له شيئاً، إلا بمقدار ما يعنيه انعكاس الصورة في العين، لمجرد تجميع الصور في الوجدان.. فيما يلتقي به الإنسان من مألوفاته العادية في حياته اليومية.. وهكذا نجد أن الرؤية التي يتحدث عنها القرآن في قوله تعالى: **(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**. هي الرؤية الواعية الفاحصة المدققة التي تثير في الداخل المزيد من التأمل والحوار والاستنتاج.. بدليل قوله تعالى: **(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)**(١)، مما يوحي: بأنها الرؤية التي تبعث على القناعة من

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

خلال اليقين.. وبدأ يفكر في استعراض عقلي للعقائد التي يعتقدها قومه في عبادتهم للكواكب والقمر والشمس.. ومحاكاة ذاتية تتحرك من أجل إثارة التساؤل.. وهكذا التقى بالكواكب المتناثرة في السماء، في صورة بديعة في روعة التنسيق والتكوين.. فما أن لمح كوكباً يتلألأ ويشع في قلب هذا الظلام المترامي.. حتى سيطرت عليه أجواء الروعة، واستولى على فكره الخشوع الروحي أمام هذا الشعاع الهادئ في الأفق البعيد.. فخيل إليه أن هذا هو الإله العظيم الذي يتعبد الناس إليه.. لأن الفكرة الساذجة تجعله في الأفق الأعلى البعيد، الذي تتطلع إليه الأبصار برهبة وخشوع ولا تستطيع الخلائق أن تصل إليه أو تدرك كنهه.. **(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي..)** [١] .. في صرخة الإنسان الطيب الساذج الذي خيل إليه أنه اكتشف السر الكبير الذي يبحث عنه كل الناس، كما لو لم يكتشفه أحدغيره.. وكأنه أقبل إليه في خشوع العابد، وفي لهفة المسحور.. وفي اندفاعة الإيمان.. وربما ردد هذه الكلمة **(هَذَا رَبِّي)** في سره كثيراً.. ليوحي لنفسه بالحقيقة التي اكتشفها ليؤكدها في ذاتها.. بعيدا عن كل حالات الشك والريب.. وبدأ الليل يقترب من نهايته.. وبدأت الكواكب تشحب وتفقد لمعانها.. ثم بدأت تبهت.. وتبهت حتى غابت عن العيون.. وحاول أن يلاحقها هنا وهناك.. لقد ضاع الإله في الأجواء الأولى للصباح.. وانكشفت له الحقيقة الصارخة.. فقد كان يعيش في وهم

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

كبير.. فقد أفل الكوكب.. ولكن الإله لا يأفل لأنه القوة التي تمثل الحضور الدائم في الحياة كلها فلا يمكن أن تبتعد عن حركتها المتنوعة لأن ذلك يتنافى مع الرعاية المطلقة للكون ولما فيه من موجودات حية وغير حية..

واهتزت قناعاته من جديد.. وبدأ يسخر بالفكرة والعقيدة في عالمه الشعوري الصافي.. **(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ)**(١).

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا). في صفاء الليل، ووداعة السكون.. وكان الشعاع الفضي الساحر يلقي على الكون دفقا من النور الهادئ الذي يتسلل إلى العيون فيوحي إليها بالخدر اللذيذ ويخترق القلوب فيوحي إليها بالأحلام اللذيذة الساحرة.. ويطل على الطبيعة فيغلفها بغلافه الشفاف الوادع الذي يثير في آفاقها الكثير الكثير من اللذة والأحلام.. وبدأت المقارنة بين ذلك النور الكوكبي الذي يأتي إلينا متعبا واهنا في جهد كبير.. وبين هذا النور القمري الذي يتدفق كشلال في قلب الأفق.. فأين هذا من ذاك؟! فهذا هو السر الإلهي الذي كان يبحث عنه.. **(قَالَ هَذَا رَبِّي)**.

وعاش معه في حالة روحية من التصوف والعبادة لهذا الرب النوراني الذي يتمثل في السماء قطعة فضية من النور الهادئ الساحر.. وفجأة بدأ الشعاع يبهت.. ثم يغيب.. وانطلقت الحيرة في

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

وعيه من جديد.. أين ذهب الإله وأين غاب؟! وهل يمكن للإله أن يغيب ويأفل؟! وضجت علامات الاستفهام في روحه تتساءل من هو الإله؟! وأين هو؟! وعاش في التصور الضبابي المبهم الغارق في الغامض.. يتوسل بالرب الذي لا يعرف كنهه، أن يهديه سواء السبيل لئلا يضل ويضيع.. **(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)** (١). وما زال ينتظر وضوح الحقيقة.. وفجأة أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية الدافئة فأخذت عليه وجدانه.. **(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)**. فأين حجم الشمس.. من حجم القمر والكواكب؟! فلا بد أن تكون هي الإله الذي يبحث عنه، لأنها تتميز عنهما بصفات كثيرة.. وبدأ يتابعها وهي تتوهج وتشتعل.. وتملأ الكون كله دفئاً وحياة وإشراقاً وجمالاً.. فإذا به يهتز ويتحرك في قوة وامتداد وحيوية دافقة.. ولكن.. ماذا؟! وبدأ يفكر.. فها هي تبهت وتبرد وتكاد تتضاءل.. ثم تغيب وتأفل.. وتترك الكون في ظلام دامس.. فكيف يمكن أن تكون إلهاً تعيش الحياة في قدرته وقوته.. ما دامت تغيب مع المجهول تاركة الكون كله في ظلام وفراغ؟!

..وأطلق الصرخة فيمن حوله من هؤلاء الناس الذين يعبدون الكواكب والقمر والشمس.. فيما خيل له، في وقت من الأوقات، أنه الحقيقة المطلقة التي لا يعتريها شك ولا ريب.. **(فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ**

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الأنعام.

إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (١) . من هذه المخلوقات التي انطلقت من العدم، ولا يزال العدم يعشش في كل حركة من حركاتها، أو خطوة من خطواتها.. وتمرد على كل هذه الاتجاهات الإشراكية لأن الله لا يمكن أن يكون هذه الأشياء المحدودة.. بل لا بد أن يكون شيئاً أعظم من ذلك وأكبر.. في القوة والقدرة.. لا في الحجم.. **(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** (٢) .

وهكذا تدفقت إشراقة الإيمان في وعيه وفي قلبه، فأحس بأن الله هو شيء لا كالأشياء لأن الأشياء نتاج قدرته.. وأدرك أن الله لا يحس كما تحس الموجودات الأخرى بالسمع والبصر واللمس، ولكنه يدرك بالعقل وبالقلب وبالشعور.. من خلال كل هذه المخلوقات التي تحيط بالإنسان في الكون الكبير.. من السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن.. فتترك لديه انطباعاً بأن الله هو الذي فطرها وأوجدها.. ومن خلال هذه الإنطلاقة الإيمانية الرائعة التي أحس معها بالراحة والطمأنينة والإنفتاح.. وقف بكل كيانه ـ ليحول كل وجهه ـ والوجه هنا كناية عن الذات بجميع التزاماتها وعلاقاتها وتطلعاتها ـ إلى الله، حنيفاً، مخلصاً مائلاً عن خط الإنحراف.. فهو وحده الذي تتوجه إليه العقول والقلوب والوجوه بالخضوع والطاعة المطلقة.. بإحساس العبودية.. وحركة الإيمان.. الذي يعلن هذا التوحيد بما يشبه الصرخة

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٧٩ من سورة الأنعام.

الهادرة الرافضة لكل الوجودات المحدودة، التي تتأله أو التي يحسبها الناس في عداد الآلهة.. وما أنا من المشركين..

وماذا بعد ذلك؟!:

هل هي الرحلة الأولى في طريق الإيمان، لدى إبراهيم؟! أو هي محاكاة استعراضية للأجواء المحيطة به، فيما يعتقده الناس من ألوهية الكواكب والقمر الشمس.. في محاولة إيحائية لمن حوله بسخافة هذه العقائد وتفاهتها وضعفها أمام المنطق الوجداني الصافي، وذلك من موقع ابتعاده عنها بعد اقترابه منها، مما يعطي لموقفه بعض القوة في الإيحاء، باعتباره الموقف الذي عاش التجربة وعاناها.. ثم تمرد عليها؟!

ربما كان هذا هو الرأي الأقرب الذي يلتقي مع شخصية إبراهيم فيما حدثنا القرآن عن حياته.. فنحن لم نلمح ـ في غير هذه الآية ـ حالة تأثر بالجو المحيط به.. بل ربما نرى الأمر ـ بالعكس من ذلك ـ حالة تمرد على البيئة حتى فيما يتعلق بالجو العائلي المتمثل في أبيه الذي نقل لنا القرآن موقف إبراهيم منه.. وقد نستطيع استيحاء الآية السابقة التي حدثنا القرآن فيها عن كلام إبراهيم لأبيه حول الأصنام التي يعبدها أن هذا الموقف سابق لموقفه من هذه العقائد..

هذا بالإضافة إلى أن الرؤية التي حدثنا الله عنها لملكوت السماوات والأرض.. لا بد أن تكون الرؤية الوجدانية الواعية التي تحاول أن تثير التفكير من خلالها وليست الرؤية البصرية الساذجة،

لأنها تبدأ مع الإنسان منذ اللحظة التي يفتح فيها عينيه على الحياة ليتطلع إلى ما فيه من موجودات يدركها البصر.. وربما كانت كلمة **(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)** (١) . إشارة إلى ذلك، لتلتقي بكلمة: **(رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)** (٢) . مما يوحي بأن إبراهيم كان يعيش حالة الفكر الذي يريد أن ينمي من خلاله معلوماته وأفكاره، بكل الأشياء التي تركز قوتها وفاعليتها وثباتها وحركتها أمام التحديات التي تواجهها.. حتى فيما يشبه الأوهام.. ليواجه الصراع الذي يعيشه بانفتاح وقناعة وقوة لا تعرف الضعف ولا التراجع في كل المجالات..

أما الإحتمال الأول، فقد يقربه: أن تكون الحادثة قد حدثت في بداية طفولته، عندما بدأ يتطلع للأشياء، ويفكر في الإله.. في عملية تأمل وتدبر.. في مستوى ذهنية الطفل..

ولعل هذا هو الذي نستوحيه من الجو النفسي الساذج الذي توحي به الآية.. فهذا هو إبراهيم يواجه الكوكب الذي يبدو عاليا عاليا، بعيدا بعيدا.. ولكنه يشرق في قلب الظلام.. فيشعر بالرهبة والروعة.. فيصرخ ـ في مثل اللهفة ـ **(هَذَا رَبِّي)**.. انطلاقا مما كان يسمعه بأن الإله بعيد بعيد عن الإنسان، فلما أفل.. أحس بالإنقباض وقال: **(لَا**

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

أُحِبُّ الْآفِلِينَ)، فقد نجد في كلمة **(لَا أُحِبُّ)** بعض كلمات الطفولة البريئة، التي تحب أو لا تحب من خلال مشاعرها الساذجة إزاء الأشياء.. وتتكرر التجربة مع القمر.. وتنطلق الصرخة الطفولية من جديد.. تماماً كمثل الهتاف الذي يهتف به الطفل عندما يجد شيئاً قد أضاعه، أو شيئاً قد طلبه.. وتتكرر خيبة الأمل من جديد.

ولكن الوعي يتنامى هنا، فلا نجد ردّ الفعل طفولياً.. بل نلاحظ في ردّة الفعل حالة حيرة وذهول وتوسل إلى هذا الرب الغامض الذي يتمثله في وعيه هاديا لعباده، أن يهديه إلى الحق لئلا يكون من القوم الضالين.. وتشرق الشمس في هذا الدفق اللاّهب من النور الذهبي في إطار هذا الوجه الواسع الذي يتفايض بالشعاع كما يتفايض الينبوع بالماء الصافي الرقراق.. فتكبر الصرخة في طفولية بارزة: **(هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)** وينطلق الحجم ليؤكد الفكرة، فيما لا توحي به إلا أفكار الطفل، أو ما يشبه الطفل، لأن الأشياء الكبيرة توحي للفكر الساذج بالهيبة والعظمة.. بما لا توحي به الأشياء الأقل حجماً.. وتتجدد خيبة الأمل بالأفول.. ولكن تلك الإشراقة الساطعة للشمس استطاعت أن تبعث في قلبه إشراقة الإيمان الرافض لكل هذه الأوهام والظنون.

وفي كلا الاحتمالين.. يمكن للعاملين في حقل التوجيه، إستيحاء الفكرة العملية في أسلوب التربية.. من خلال الأسلوب الإستعراضي، فيما يتمثل فيه من مناجاة ذاتية تجعل الإنسان يواجه الأفكار المطروحة في الساحة، مواجهة المؤمن بها.. ثم يقوم بمناقشتها

بالطريقة التي توحي باكتشاف مواطن الضعف والخلل فيها، بالمستوى الذي يجعلها بعيدة عن الحقيقة، وعن إمكان اعتبارها عقيدة ترتبط بها قضية المصير.. ولا يختص الأمر بالأفكار المتصلة بالعقيدة الإلهية بل يمتد إلى جميع المجالات التي تمثل الخط العملي للحياة.. ويمكن لنا ممارسة هذا الأسلوب في القصة والمسرح والسينما وغيرها من الأساليب التي تخاطب الجمهور لتوجيه قناعاته..

وقد لا نحتاج إلى التأكيد على ضرورة دراسة المستوى العقلي والروحي للناس من أجل تركيز هذا الاتجاه على قاعدة متحركة في الفكرة والأسلوب.. كما يمكن استيحاء القصة في مدلولها الرسالي في عدم خضوع الإنسان للبيئة فيما تحمل من أفكار وعادات ومشاعر، بل يعمل على ممارسة دوره الذاتي المستقل، كإنسان يفكر بحرية.. ويقتنع على أساس الدليل.

وتبقى لنا ـ في هذا المجال ـ هذه البراءة الفكرية من إبراهيم.. حيث نتمثله إنساناً يواجه العقيدة من موقع البساطة الوجدانية، والعفوية الروحية، التي تلتقي بالقضايا من وحي الفطرة لا من وحي التكلف والتعقيد.. ثم هذه اللهفة الحارة المنفتحة على الله ـ سبحانه ـ عند اكتشافه للحقيقة في توحيده في كل شيء، وفي الإقبال عليه بكل وجهه، وبكل فكره، وبكل روحه وانطلاقه العملي في الحياة، لأن توجيه الوجه لله.. لا يعني ـ في مدلوله العميق ـ هذا الموقف الساذج الذي يتطلع فيه الإنسان نحو الأفق الممتد في السماء بنظرة حائرة

بلهاء.. بل يعني انطلاقة حياة الإنسان وكيانه مع الله فيما يحمل من عقيدة، وفيما يرتبط به من فكر، وفيما يتحرك معه من خط، وفيما يستهدفه من أهداف.. وفيما يعيشه من علاقات وأوضاع وتطلعات.. إنه الاندماج في الحقيقة الإلهية، بأن تكون الحياة كلها لله.. وفي خدمة الله..

ولعل قيمة هذه الفكرة: هي أنها لا توحي إلينا بآفاقها وخطواتها العملية، من وحي التجريد لنعيش معها في متاهات النظريات التجريدية.. بل هي حركة الإنسان ـ النبي الذي يعيش حركة الإيمان والفكر في حياته من موقع إنسانيته البسيطة، ليوحي إلينا بأن دور الإنسان الذي يريد أن يحقق إنسانيته، هو أن ينعزل عن كل الحدود المادية الضيقة التي تشده إلى الأرض في استسلام ذليل، ويرتبط بالحقيقة المطلقة التي يحلق من خلالها مع الله» (١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

إن احتمال عبادة إبراهيم «عليه السلام» للكوكب وغيره، مناف للعصمة، ولا يصح إبداؤه في حق المعصومين عموما، ولا يمكن أن يقرّبه شيء، لا في الطفولة ولا فيما بعدها، على ما هي عليه عقيدة علماء المذهب القطعية، المأخوذة عن أهل بيت العصمة «عليهم

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٩ ص١١٢ ـ ١٢٣.

السلام»، ونحن نشير هنا إلى بعض ما يوضح ذلك، وعدم صحة تفسير الآيات بما فسرها به ذلك البعض.

تفسير الآيات:

إننا نستفيد من الآيات الكريمة، ما يدل على عدم صحة ما ذكره هذا البعض، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إننا لا نجد أي دليل على أن هذه القضية قد حصلت لإبراهيم في زمان طفولته، بل في الآيات ما يشير إلى خلاف ذلك، وأن ذلك كان في مقام الاحتجاج على قومه.

٢ ـ إن ما يلفت نظرنا أنه حين طلع الصباح على إبراهيم «عليه السلام»، ورأى أفول الكوكب وانحسار نوره، لم يتوجه إلى الشمس التي ظهرت له، بل انتظر إلى الليل، ليتوجه إلى القمر، ليخاطبه بذلك الخطاب: (**هَذَا رَبِّي**)!! فلما أفل، وطلع الفجر مرة أخرى، وأشرقت الشمس، توجه إليها ليعتقد أنها هي ربه الحقيقي. حسبما شرحه لنا ذلك البعض (!!).

فلماذا تركها في اليوم الأول حين أفول النجم، وانتظر إلى الليل ليعتقد بألوهية القمر دونها؟!. أم أنه قد نام النهار كله من شروق الشمس إلى غروبها، فلم ير الشمس، حتى ولو في ساعة من نهار؟!. أو أنه قد دخل كهفاً مظلماً، ولم يتذكر وجود الشمس، ولا التفت إليه؟!

٣ ـ إن نفس ذلك البعض يقر بأن إبراهيم «عليه السلام» كان يرى الشمس قبل ذلك في سنوات طفولته، وكان يرى القمر والكواكب

أيضاً ـ فلماذا لم يعتقد بربوبيتها منذئذٍ؟!. أو لماذا لم يتساءل عن هذا الأمر؟!. ولماذا لم يدرك أن الشمس أكبر من القمر والكواكب فور رؤيته لها طالما أنه قد رآها؟. أم أنه يريد تأكيد طفولة وبراءة إبراهيم من خلال عبارة (**هَذَا أَكْبَرُ**) أو (**لَا أُحِبُّ**)؟!

٤ ـ لماذا التزم إبراهيم بربوبية هذا الكوكب بعينه، دون سائر الكواكب الطالعة وما أكثرها؟!.

٥ ـ إن ذلك البعض يصرح: بأن الظاهر أن قصة إبراهيم «عليه السلام» مع أبيه آزر، كانت أسبق من هذه القضية، فكيف كان مؤمنا هناك، ويدعوه للإيمان بالله وترك الأصنام؟! وكافرا ومشركا هنا يعبد الكواكب والنجوم تارة ولا يعرف إلهه تارة أخرى؟!، فهل كان يدعوه إلى إله لا يعرفه؟! أم أن إبراهيم «عليه السلام» كفر بعد إيمانه؟!. وهل يصح منه بعد هذا أن يحتمل في حقه «عليه الصلاة والسلام» أن يكون قد عبد الكوكب حقيقة؟!. علما أن عبادة الكواكب خروج عن الفطرة، ومعصية ما بعدها معصية، والأنبياء معصومون عنها قبل البعثة وبعدها.

٦ ـ ثم إن إبراهيم «عليه السلام» استدل على بطلان ألوهية الكوكب بالأفول، لان الله لا يأفل. فالذي يدرك مثل هذا الأمر الدقيق في ما يتعلق بصفات الإله، كيف لا يدرك صفة أوضح منها وهي استحالة الجسمية على الله؟! مع أنه كان يعرف هذا الأفول قبل ذلك لأنه كان قد رأى الكواكب سابقا، وعرف أنها تطلع وتغيب باعتراف

القائل نفسه.

٧ ـ إن إبراهيم «عليه السلام» بعد أن استدل بالأفول على بطلان ألوهية الكوكب، كيف عاد واعتقد بألوهية القمر؟! مع علمه بأنه يأفل ويغيب، ثم كيف عاد ليعتقد بألوهية الشمس مع علمه بأنها تغيب أيضا؟!.

٨ ـ أما التعليل بـ (**هَذَا أَكْبَرُ**)، فلا ينفع مع الاستدلال بـ (**لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ**)، لان الآفل لا يصلح للألوهية سواء كان كبيرا أو صغيرا.

أضف إلى ذلك كله أن القمر قد كان اكبر من الكوكب أيضاً فلماذا لم يلتفت إبراهيم إلى ذلك في حينه؟!

٩ ـ إن ذلك البعض لم يذكر لقارئه ما روي عن الإمام الرضا «عليه السلام»، من أنه قد رفض أن يكون إبراهيم «عليه السلام» قد أشرك بالله، وقرر أن إبراهيم «عليه السلام» إنما قال ذلك على سبيل الإنكار على قومه لتسخيف معتقدهم. والرواية هي التالية:

ابن بابويه قال: حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي رضي الله عنه، قال: حدثنا أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري، عن علي بن محمد بن الجهم، قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا «عليه السلام»، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟!

قال: بلى.

قال: فسأله عن آيات من القرآن في الأنبياء، فكان فيما سأله أن

قال له: فأخبرني عن قول الله عز وجل في إبراهيم: (**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي..**) (١).

فقال الرضا «عليه السلام»: إن إبراهيم وقع إلى ثلاثة أصناف، صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس، وذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه، فلما جن عليه الليل رأى الزهرة قال: هذا ربي على الإنكار والإستخبار، فلما أفل الكوكب قال: (**لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**)، لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم.

(**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي**) على الإنكار والإستخبار، (**فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**) (٢).

فلما أصبح (**رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ**) من الزهرة والقمر على الإنكار والإستخبار، لا على الإقرار والإخبار..

(**فَلَمَّا أَفَلَتْ**) قال للأصناف الثلاثة، من عبدة الزهرة، والقمر، والشمس: (**يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) (٣).

وإنما أراد إبراهيم بما قال: أن يبين لهم بطلان دينهم، ويثبت

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٧٧ من سورة الأنعام.

(٣) الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة الأنعام.

عندهم: أن العبادة لا تحق لما كان بصفة الزهرة والقمر والشمس، وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض. وكان ما احتج به على قومه مما ألهمه الله عز وجل وآتاه، كما قال عز وجل: **(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)** (١)، فقال المأمون: لله درّك يا ابن رسول الله (٢).

١٠ ـ إن قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)** (٣)، قد فرع عليه قوله: **(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي..)** (٤). فهذا التفريع على إراءته ملكوت السماوات والأرض، وعلى كون إبراهيم «عليه السلام» من الموقنين، يشير إلى أنه لم يقل: هذا ربي عن اعتقاد، بل قاله عن إنكار واستهزاء.

١١ ـ هذا غيض من فيض مما ورد في النص المنقول عن «من وحي القرآن»، ونترك الكثير الكثير من المداليل والملاحظات الموجودة لقارئنا الكريم، ليستخلصها بنفسه بعد أن عرف الضابطة في الفرق بين أوصاف الأنبياء وأحوالهم، وأوصاف الأشقياء وخصالهم.

---

(١) الآية ٨٣ من سورة الأنعام.

(٢) تفسير البرهان ج١ ص٥٣١.

(٣) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

٢٦٦ ـ أنا أقول: إن آدم ساذج.

٢٦٧ ـ أنا لا أقول: إن إبراهيم ساذج.

٢٦٨ ـ قلنا: إن آدم لم يكن عنده تجربة.

سئل البعض:

نريد منكم توضيحاً من أجل أن نطمئن، فالعلم حاصل والحمد لله، ولكننا نريد توضيحاً للبعض، والأمور التي نأمل توضيحها، والتي ينسبونها إليكم: أن إبراهيم ساذج؟!

فأجاب:

«أنا أصحح، إنّا نقول: إن آدم ساذج، وليس إبراهيم، ولكن هم يقولون إني قلت: إن إبراهيم كان كافراً في بداية حياته، وأما عن آدم كان ساذجاً، فنحن قلنا: إن آدم لم يكن عنده تجربة بعد، فقد خلقه الله بعلم أولي لكن بدون تجربة ميدانية يختبر فيها قوته، وقدرته وعزيمته الخ..»(١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إن تصحيح هذا البعض غير صحيح، فإنه قد اتهم إبراهيم بالسذاجة أكثر من ثلاث مرات، بل خمس مرات، فراجع كتابه (من وحي القرآن «الطبعة الأولى» ج٩ ـ ص١١٥ و ١٢٠ و ١٢١) فهل

---

(١) الزهراء المعصومة: ص ٤٨.

نسي هذا البعض ما كتبته يداه؟!

٢ ـ إن تأويله لمعنى السذاجة غير مقبول وذلك لما يلي:

أولاً: إنه هو نفسه قد طلب من الناس أن لا يكونوا ساذجين ـ يضحك الناس عليهم ـ وذلك في بعض خطبه التي بثت من إذاعة تابعة له.

كما أنه قد فسر السذاجة التي يقصدها في حديثه عن شيخ الأنبياء إبراهيم «عليه السلام»: بأنها النظرة الحائرة البلهاء (١).

وثانياً: لنفترض جدلاً: أن تفسيره للسذاجة بالنسبة للنبي آدم «عليه السلام» يمكن غض النظر عنه، باعتبار أنه لم يكن لديه اطلاع على مكر إبليس.. فما هو مراده منها حين أطلقها خمس مرات على شيخ الأنبياء إبراهيم «على نبينا وآله، وعليه الصلاة والسلام».

وثالثاً: لو أردنا أن نصف هذا البعض نفسه بالسذاجة، بأي معنى أراد، وبغير ذلك من أوصاف أطلقها على أنبياء الله وعلى الأوصياء، فضلاً عما وصف به مراجع الأمة وأساطين العلم فيها، ثم نثبت ذلك في مؤلفاتنا، لتقرأه الأجيال، وليتدارسوه ويتناقلوه، فهل سيكون راضياً هو ومحبوه ومناصروه؟ أم أنهم سوف يقيمون الدنيا ثم لا يقعدونها؟!!

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج٩ ص ١٢٢ و ١٢٣ وراجع: خلفيات: ج١ ص ٨٠.

ليس من التناقض:

وقد ذكر البعض في الفقرة السابقة والتالية: أننا قلنا عنه: إنه يقول:

٢٦٩ ـ إن إبراهيم كان كافراً في بداية حياته..

فيجيب:

«إنه لم يقل ذلك، بل ذكر احتمالين..» وقال:

٢٧٠ ـ الأقرب: أن فعل إبراهيم كان طريقة ذكية للإقناع.

ونقول:

نعم.. إن هذا البعض يذكر بالنسبة لإبراهيم «عليه السلام» احتمالين اثنين:

«أحدهما: أنه لما رأى الكوكب بازغاً اعتقد أنه ربه على الحقيقة، ثم لما رأى القمر بازغاً غيّر رأيه، واعتقد أنه هو الإله، وعاش معه حالة روحية من التصوف والعبادة لهذا الرب، فلما أفل غيّر رأيه ثالثة، فاعتقد أن الشمس هي ربه، فلما أفلت اتضحت له الحقيقة..

الثاني: أن إبراهيم قد قال ذلك على سبيل المحاكاة الاستعراضية، ليؤكد لقومه فساد آرائهم واعتقاداتهم».

ثم اعتبر: أن الاحتمال الثاني ربما يكون أقرب من الإحتمال الأول (١). وهذا يعنى: أن الاحتمال الأول لا يزال موجوداً وقائماً.

---

(١) راجع من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٩ ص١١٢ ـ ١٢٣.

وذلك يتنافى مع اليقين والقطع، والإعتقاد بالعصمة، وعدم كفر الأنبياء، ولو قبل البعثة..

والغريب: أنه وهو ينكر علينا ما نقلناه عنه قد عاد فقرر نفس ما أخذناه عليه، فقال:

«يأتي الثاني ويقول: إن السيد يقول: إن إبراهيم كان يعبد الكواكب في بداية حياته. أنا أقول في تفسيري «من وحي القرآن» وهو مطبوع من ١٥ سنة، وهو ليس جديداً. أنا أقول: هناك تفسيران:

بعض الناس يفسرون أن إبراهيم «عليه السلام» كان يسمع أناساً يعبدون الكواكب، فتدور الأفكار في رأسه وتحيره، فهو قد أراه الله ملكوت السموات والأرض. رأى كوكباً، قال: هذا ربي، رأى قمراً، قال: هذا ربي، وبعدها انتهى إلى نتيجة تلتقي بالدين الصحيح.

وهنا فكرة ثانية تقول: إن إبراهيم «عليه السلام» حاول أن يواجه قومه بطريقة ذكية، وبأسلوب منفتح. كيف ذلك؟! بأن يصور نفسه وكأنه واحد منهم، أي أنه يعبد الكواكب، ثم يجلس أمامهم وهم قاعدون ويقول: **(هَذَا رَبِّي)**، فيرتاحون لقوله.

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ)، لا يمكن أن يكون الرب كوكباً، فالرب يجب أن يكون موجوداً دائماً، ولما رأى القمر بازغاً.. كذلك، لما رأى الشمس.. كذلك.. فهو حاول أن يرد على أفكارهم كما لو كان ممن يتبنى هذا الفكر ليحصل على فرصة مناقشته دون إثارة حساسياتهم.

أنا ذكرت هذين الإحتمالين في تفسير «من وحي القرآن» قبل خمسة عشر عاماً، وكل منكم يمكن أن يعود إلى هذا التفسير ويراجعه. أنا قلت: الأقرب من هذين الاحتمالين: هو أن هذا أسلوب من أساليب النبي إبراهيم «عليه السلام» من أجل أن يهدم هذه الفكرة بالطريقة الذكية.

حتى أني قلت: يجب أن نستفيد من هذا الأسلوب في مجال الرواية والقصة والمسرح.. إذا أردنا أن نثبت هذا المعنى.

فجاء من يقول: إن السيد يقول: بأن إبراهيم «عليه السلام» كان كافراً، ونحن نعرف أن الأنبياء «عليهم السلام» لا بد من أن يكونوا معصومين. وأنا قلت: إن إبراهيم «عليه السلام»، من الأساس تمرد على بيئته، تمرد على أبيه أو عمه» (١).

وسئل البعض أيضاً في قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** (٢)، فهل كان إبراهيم «عليه السلام» غير مقتنع بظواهر الكون الدالة على وجود خالق منظم؟! أم هي واردة بمثابة الحجة؟!

فأجاب:

«الأقوى: أن إبراهيم كان يستعرض العقائد الباطلة الموجودة في

---

(١) الزهراء المعصومة: ص ٥٠ ـ ٥٢.

(٢) الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

زمانه.. وكان يحاول أن يطرحها كما لو أنها كانت متبناة من قبله حتى يستمع الناس اليه وهو يناجي نفسه الخ..» (١).

وقفة قصيرة:

وإننا ننبه القارئ العزيز إلى أنه إذا كان يقصدنا بقوله: «يقولون: ..»، فإننا نعلن: أننا لم نقل: إنه قال عن إبراهيم: إنه كان كافراً..

بل قلنا: إنه يقول: يحتمل أن يكون إبراهيم قد عبد الكوكب والشمس والقمر.. فراجع عباراتنا حول هذا الموضوع تجد صحة ذلك.

وخلاصة القول: إنه قد أنكر شيئاً لم يتهمه به أحد.

ثم إنه عاد وقرر نفس مقولته التي اعتبرناها خروجاً على الإعتقاد بعصمة الأنبياء عن الكفر والشرك، لما تتضمنه من احتمال ذلك في حق إبراهيم «عليه السلام»، فإن احتمال عبادة الشمس والقمر والكوكب لا ينسجم مع اليقين بالعصمة عن ذلك. وها هو نفسه هنا يعترف بما قلناه، وإن كان يمكن القول بأنه قد عاد وناقض نفسه من جديد في آخر كلامه الذي نقلناه عن: «الزهراء المعصومة»، ويمكن رفع هذا التناقض ببيان: أن كلمة الأقوى لا تزال تستبطن وجود الإحتمال الآخر الذي هو قوي أيضاً، لكن هذا الإحتمال أقوى منه.

٢٧١ ـ النبي يخاف لأنه يعيش الضعف البشري.

---

(١) نشرة فكر وثقافة: عدد ١٦٧ ص٣.

٢٧٢ ـ لا مشكلة في الإستسلام للخوف.

٢٧٣ ـ الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف والقلق لدى إبراهيم.

٢٧٤ ـ الحالة فاجأت إبراهيم بما يشبه الصدمة.

يقول البعض:

«..**(وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)** نظراً للغموض الذي لف الموقف، فهو لا يعرفهم بأشخاصهم، والإمتناع عن الأكل يوحي ـ في عرف الناس آنذاك ـ بالعداوة وبإضمار الشر للمضيف، مما جعله يحس بالخوف والقلق، ولا مانع من حدوث مثل ذلك للأنبياء الذين يعيشون الضعف البشري الذي تخضع له المشاعر الذاتية، ولكن بالمستوى الذي لا يؤدي إلى السقوط في المعصية، ولا يوحي بالانسحاق، ولا يمنع من العصمة.

ولعل سر عظمتهم في تمثلهم خط التوازن بين نقاط الضعف التي تؤكد بشريتهم، ونقاط القوة التي تنطلق من حركة الإيمان والرسالة في روحيتهم، فلا مشكلة في إحساس الإنسان بالخوف، بل في الاستسلام له، وليس الخوف حالة سلبية في ذاته، بل قد يكون حالة إيجابية بما يشكله من حماية للإنسان من الأخطار المهلكة التي تحيط به. ولذا كان إبراهيم خاضعاً لتأثير هذه الحالة الطبيعية من الإحساس بالخوف أمام ظاهرة غامضة فاجأته بما يشبه الصدمة، ولكن الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف، وليثيروا في داخله القلق، **(قالُوا لَا تَخَفْ**

إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) (١)، فلسنا من البشر، ولا نريد بك شراً، بل نحن مرسلون إلى قوم لوط لأداء مهمة إلهية، تستهدف إهلاكهم بالطريقة التي أمرنا الله بها» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ لو قبلنا جدلاً: أن الضعف البشري الذي تخضع له المشاعر الذاتية هو الذي يتسبب بحدوث الخوف لدى الأنبياء.. فإننا نسأل: من أين عرف هذا البعض: أن هذا الخوف لا يصل إلى درجة يؤدي إلى السقوط في المعصية، ولا يوحي بالانسحاق، ولا يمنع من العصمة؟! فهل هذا إلا رجم بالغيب، وحديث في أمور لا سبيل للإطلاع على مقاديرها إلا لعلام الغيوب؟!

ويزيد الأمر إشكالاً: أن هذا البعض نفسه يشترط الدليل المفيد للقطع في كل أمر هو من هذا القبيل، فأين هو هذا الدليل الذي قدمه على أن الخوف يكون بهذا المقدار أو ذاك؟!

٢ ـ من أين عرف هذا البعض: أن منشأ خوف نبي الله إبراهيم «عليه السلام» هو ضعفه البشري. ولماذا لا يقول: إن التكليف الإلهي لإبراهيم «عليه السلام» هو أن يقف موقف الحذر، وأن يحتاط لنفسه

---

(١) الآية ٧٠ من سورة هود.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج١٢ ص٩٧.

كما يحتاط الخائف في المواقع المماثلة.. حتى وإن لم يكن قد اختلج في نفسه أي خاطر؟!

٣ ـ من أين عرف: أنهم قد امتنعوا عن الأكل.. فإن الآية الشريفة تقول: (**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً..**)(١)، فإن ظاهر الآية: أنه رآهم يتظاهرون بأنهم يأكلون، ويمدون أيديهم إلى الطعام بحسب الظاهر. ولكن أيديهم لا تصل إلى ذلك الطعام، فكان أمراً غير طبيعي، وهو يدعو إلى الحذر.. وذلك هو الواجب الشرعي، وهو الحزم في مثل هذه الحالة.

٤ ـ من أين عرف هذا البعض: أن ما جرى قد فاجأ إبراهيم بما يشبه الصدمة. وربما نجد في قوله تعالى: (**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً..**)، والخيفة هي نوع من الخوف.. ـ ربما نجد فيه ـ اشارة إلى أنها خيفة ضعيفة استحقت الإشارة إليها بتنوين التنكير المفيد للضعف والوهن، نظير قوله تعالى عن اليهود: (**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ..**)(٢)، أو أنها كانت خيفة خاصة، وهي ذلك الإدراك لأمر خفي يدعو إلى الحذر الحازم الذي هو واجب شرعاً..

٥ ـ وأما قوله: «ولكن الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف..».

فهو مما لا يمكن الموافقة عليه، لأن ذلك يستبطن إمكانية ابتلاء

---

(١) الآية ٧٠ من سورة هود.

(٢) الآية ٩٦ من سورة البقرة.

أنبياء الله بالعقد النفسية، وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلاً، بالنسبة لأي نبي كان، فكيف بشيخ الأنبياء الذي هو من أولي العزم، وأفضل رسل الله بعد نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله».

٦ ـ ونلفت النظر أخيراً.. إلى أن ثمة عدة آيات تحدثت عن خوف حصل لبعض الأنبياء في بعض المواقع الحساسة، كقول الله سبحانه: **(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)**، وقوله تعالى: **(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)**(١). ونحو ذلك..

فمن الواضح: أن خوفهم «عليهم السلام» ليس خوف الضعفاء والجبناء، وإنما هو خوف المسؤولية، حيث يخاف النبي على الرسالة، وعلى الدين، وعلى مستقبل الدعوة إلى الله سبحانه، فيحزن لذلك، ويتألم، وهو يرى بطش الجبارين وكيد المبطلين، وقد تحدثنا عن ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

٧ ـ وأما بالنسبة لقول هذا البعض: «إن إبراهيم أحس بالخوف أمام ظاهرة فاجأته بما يشبه الصدمة..»، فهو كلام مرفوض، لأن الصدمة تعبير يختزن معنى العجز عن التصرف، والإستئسار للمفاجأة، وفقدان البصيرة تحت وطأة الحدث الصاعق، ولو للحظات، ولا يمكن قبول ذلك بالنسبة للأنبياء الذين يعيشون حالة اليقظة التامة، والتوازن في جميع الأحوال فلا تأسرهم المفاجآت، ولا تذهب

---

(١) الآيتان ٦٧ و ٦٨ من سورة طه.

بأحلامهم (١) مهما عظمت.

٢٧٥ ـ إبراهيم يتحير في أمر نزول العذاب على القوم ولوط فيهم.

٢٧٦ ـ إبراهيم لا يعرف أن الله ينجي أنبياءه من عذاب الإستئصال.

٢٧٧ ـ إبراهيم تصرف انطلاقاً من النظرة السريعة للموقف.

٢٧٨ ـ التسرع سبب الإعلان المفاجئ عن تعذيبهم.

٢٧٩ ـ إبراهيم تسرع في البشارة فاستغرب ذلك واستبعده.

٢٨٠ ـ لا يستحضر في نفسه كل ما يتصل بالاحداث.

٢٨١ ـ قد تكون فكرة هلاك لوط مع قومه واردة عند إبراهيم.

٢٨٢ ـ الرواية تؤيد الرأي المخالف.. الذي ناقشه ولا يأخذ بها.

يقول البعض:

«..(**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا**)، فإذا كانوا ظالمين، فإن لوطاً ليس منهم، فكيف ينزل العذاب عليها وهو فيها، فإن عذاب الله إذا نزل على أهل بلد شمل الجميع، فلا ينجو منه أحد (**قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا**)، فقد عرفنا وجود لوط، وقد خططنا لإخراجه منها مع أهله ـ ما عدا امرأته ـ قبل إنزال العذاب، فإن الله قد أنزل العذاب عليهم لإستحقاقهم ذلك ولتمردهم على لوط واستخفافهم به، ولاستجابة دعائه بالنصرة عليهم،

---

(١) المقصود: عقولهم.

فكيف يناله العذاب و **(لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)** (١) الهالكين الذين يضمهم غبار الموت لأنها كانت مؤيدة لقومها ضد لوط.

هل كان إبراهيم يعلم أن لوطاً يعذب؟!:

وهناك لفتة جيدة، ذكرها صاحب تفسير الميزان في تفسير كلام إبراهيم للملائكة **(إِنَّ فِيهَا لُوطًا)** قال: «إن إبراهيم «عليه السلام»، لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته، ولا أنه يخوفه ويذعره ويفزعه بقهره عليهم، بل كان «عليه السلام» يريد بقوله: «..**(إِنَّ فِيهَا لُوطًا)**: أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فأجيب: بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة: **(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)** (٢) » (١).

---

(١) الآية ٣٢ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٧٤ ـ ٧٦ من سورة هود.

وقد نلاحظ على ذلك: أن الآية لا يظهر فيها ما ذكره، ولهذا كان جواب الملائكة بياناً لمصير لوط، لا لمناقشة مصير قومه، كما ذكر في سورة هود. ولا مانع من أن يكون إبراهيم «عليه السلام» قد أثار مصير قوم لوط معهم كما أثار مصير لوط، انطلاقاً من النظرة السريعة للموقف على أساس الإعلان المفاجئ عن تعذيبهم، تماماً كما كان رد فعله السريع على البشارة، باستغراب ذلك واستبعاده، وليس من الضروري أن يكون النبي مستحضراً في نفسه لكل الأمور المتصلة بالأحداث، بحيث يفقد عنصر المفاجأة في كل شيء، فقد تكون فكرة هلاك لوط مع قومه واردة على أساس أن الأمور التكوينية لا تفرق في بلاء الدنيا بين الصالحين، وغيرهم، والله العالم.

وقد جاء في الكافي ما ربما يؤيد التفسير السابق الذي ناقشناه، بإسناده عن أبي زيد الحماد، عن أبي عبدالله جعفر الصادق «عليه السلام» في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال: فقال لهم إبراهيم: لماذا جئتم؟!

قالوا: في إهلاك قوم لوط.

فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟!

فقال جبرئيل: لا.

قال: فإن كان فيها خمسون؟!

---

(١) تفسير الميزان: ج١٦ ص ١٢٨.

قال: لا.

قال: فإن كان فيها ثلاثون؟!

قال: لا.

قال: فإن كان فيها عشرون؟!

قال: لا.

قال: فإن كان فيها عشرة؟!

قال: لا.

قال: فإن كان فيها خمسة؟!

قال: لا.

قال: فإن كان فيها واحد؟!

قال: لا.

قال: فإن كان فيها لوطاً؟!

قالوا: **(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)**(١).

قال الحسن بن علي «عليه السلام»: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم، وهو قول الله تعالى: **(يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)**(٢)»(١).

---

(١) الآية ٣٢ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٧٤ من سورة هود.

وقفة قصيرة:

ونقول:

إننا نلاحظ الأمور التالية:

١ ـ قوله: «..إن قلق إبراهيم «عليه السلام» إنما كان على مصير النبي لوط «عليه السلام» وذلك استناداً إلى قول إبراهيم للملائكة: **(إِنَّ فِيهَا لُوطًا)**..» غير صحيح، فإن هذا القول لا يدل إلا على توقعه أن وجود لوط سيمنع من أن ينالهم العذاب.. ولا يدل على اعتقاده أن العذاب ـ لو نزل ـ سيحيق بلوط أيضاً.

٢ ـ إن الله سبحانه قد صرح: بأن جدال إبراهيم إنما كان في قوم لوط، قال تعالى: **(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)**[٢].

٣ ـ هذا بالإضافة إلى الرواية المروية عن الإمام الصادق، والتي أوردها هذا البعض نفسه حيث تدل ـ كما اعترف هو نفسه ـ على أن إبراهيم كان مهتماً برفع العذاب عن قوم لوط، وأنه اتخذ من وجود لوط فيما بينهم ذريعة إلى ذلك فلماذا يصر هذا البعض على مخالفة الرواية، بل الآية أيضا؟!

(١) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج١٨ ص ٤٦ و ٤٧ و ٤٨.

(٢) الآية ٧٤ ـ ٧٦ من سورة هود.

ولماذا أشار إلى دلالة الرواية على خلاف ما يذهب إليه، مع مزيد من التضعيف، وإثارة الشك والإرتياب في تلك الدلالة، حيث قال: «ما ربما يؤيد».

٤ ـ لماذا يتهم إبراهيم «عليه السلام» شيخ الانبياء، وأفضلهم بعد نبينا محمد «صلى الله عليه وآله» بأنه كان متسرعاً في موقفه، وواقعاً تحت تأثير المفاجأة، حتى إنه حينما جاءته الملائكة بالبشرى استغرب ذلك واستبعده..

كما أنه قد عرّض به «عليه السلام» حين اعتبر أن ليس من الضروري أن يكون إبراهيم «عليه السلام» مستحضراً في نفسه لكل الأمور المتصلة بالأحداث بحيث يفقد عنصر المفاجأة في كل شيء.

فإن هذا التعريض مرفوض جملة وتفصيلاً، إذ مهما كان وقع المفاجأة على إبراهيم «عليه السلام» قوياً، فإنه لا يمكن أن لا يمر في وهمه: أن الله سبحانه رحيم بالعباد، ولا يفعل إلا الحق، ولا ينزل العذاب إلا بمن يستحق.

ولا يمكن أيضاً أن تختلط عليه الأمور فيظن أن الله سبحانه ينزل العذاب بحيث يشمل حتى نبيه الذي أرسله.. فإن غضب الله سبحانه ليس عشوائياً بحيث لا تبقى ثمة ضوابط أو معايير لما يصدر عنه ومنه، وحاشا إبراهيم أن يظن بالله ذلك.

٥ ـ وإذا كان هذا البعض قد أدرك هذه الحقيقة، وهي إساءة القوم واستحقاقهم نزول العذاب عليهم، ثم نزوله بالفعل، ونبي الله فيهم

معناه هلاك ذلك النبي الأمر الذي لا بد أن يمنع من نزول العذاب.

نعم.. إذا أدرك هذا البعض ذلك، فكيف لم يدركه ابراهيم النبي «صلوات الله وسلامه عليه»؟!

٦ ـ وقد كان من المفروض: أن يثور احتمال لدى إبراهيم، إن يخرج الملائكة لوطاً من بين قومه، ثم يهلكونهم بما فعلت أيديهم.

٧ ـ ومن الواضح: أن إبراهيم كان يعلم: أن للشفاعة تأثيراً في رفع العذاب، وهي من أسباب غفران الذنوب حتى الكبيرة..

وقد كان الموقف يحتاج إلى إظهار وتجسيد حقيقة أن عذاب قوم لوط قد اصبح من المحتوم، وأن جرائمهم هي من الخطورة إلى درجة أنها حجبت حتى عنصر الشفاعة عن التأثير في رفع العذاب عنهم.. وقد كان من واجب إبراهيم أن يبادر إلى ذلك الموقف من أجل أن تستنفد جميع الأسباب، من جهة، ومن أجل إظهار وتجسيد هذه الحقيقة بالذات من جهة أخرى..

٨ ـ إن هذا البعض قد ادعى أن إبراهيم خاف على لوط، ولم يكن يعرف أن الله ينجي أنبياءه من عذاب الإستئصال.

ونقول:

إن العقل يرفض أخذ البريء بذنب المجرم، كما أن النصوص القرآنية قد ألمحت وصرحت مراراً وتكراراً بأن الله لا يظلم أحداً، ولا يعامل البريء والمذنب على حد سواء، **(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ**

كَالْمُجْرِمِينَ) (١).

وصرحت الآيات أيضاً: بأنه تعالى إنما يهلك أهل القرى بظلمهم، ويأخذهم بذنوبهم.. (٢).

بل صرحت: بأن الله ينجي المؤمنين، ويهلك من عداهم فقد قال تعالى:

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (٣).

وبعدما تقدم نقول:

صحيح أن السنة الإلهية جارية على أن عذاب الإستئصال إذا نزل، فإنه يعم كل من نزل عليهم..

---

(١) الآية ٣٥ من سورة القلم، والآية ٤٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٩ من سورة القصص، والآيات ٣١ و ٣٤ و ٤٠ من سورة العنكبوت، والآية ١٠٠ من سورة الأعراف، والآيتان ١١٢ و ١١٣ من سورة النحل، والآية ١٦ من سورة الإسراء، والآية ١١ من سورة الأنبياء، والآيتان ٤٥ و ٤٨ من سورة الحج.

(٣) الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦من سورة الأعراف.

ولكن من الواضح أيضاً: أن العذاب إنما ينزل على خصوص المجرمين، إما لارتكابهم الجرائم فعلاً، أو لأجل رضاهم بها وعدم قيامهم بواجبهم في رفعها، وعدم تحريكهم ساكناً في مواجهتها.

فيأخذهم الله بذنوبهم نفسها.. فهل يمكن اتهام لوط: بأنه مقصر في واجباته، أو أنه مرتكب للجرائم أو راض بارتكابها؟! أو هل يمكن اتهام إبراهيم: بأنه يجهل هذه الحقيقة، أعني حقيقة: أن الله لم يكن ليعذب نبيه بعذاب الاستئصال، بل ينجيه منه وينجي من آمن معه؟!

ولأجل ذلك نجد: أن الله سبحانه لم يغرق قوم نوح حتى صنع نوح السفينة، وحمل بها كل من آمن معه، فلماذا لم يتعلم إبراهيم «عليه السلام» من هذه القضية بالذات؟!

وقد سئل الرضا «عليه السلام»: «لأي علة أغرق الله عز وجل الدنيا كلها في زمن نوح «عليه السلام» وفيهم الأطفال، وفيهم من لا ذنب له؟!

فقال «عليه السلام»: ما كان فيهم الأطفال، لأن الله ـ عز وجل ـ أعقم أصلاب قوم نوح «عليه السلام»، وأرحام نسائهم أربعين عاماً، فانقطع نسلهم، فغرقوا ولا طفل فيهم، وما كان الله ـ عز وجل ـ ليهلك بعذابه من لا ذنب له.

وأما الباقون من قوم نوح «عليه السلام»، فأغرقوا لتكذيبهم نبي الله نوحاً «عليه السلام»، وسائرهم أغرقوا برضاهم بتكذيب المكذبين.

ومن غاب عن أمر، فرضي به كان كمن شهده وأتاه» (١).

وسأل سدير أبا جعفر «عليه السلام»: أرأيت نوحاً «عليه السلام» حين دعا على قومه، فقال: **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)** (٢)؟!.

قال «عليه السلام»: علم أنه لا ينجب من بينهم أحد، قال: قلت: وكيف ذلك؟! قال: أوحى الله إليه: **(أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ)** (٣)، فعند هذا دعا عليهم بهذا الدعاء (٤).

وعن ابن عباس: قال عزير: يا رب، إني نظرت في جميع أمورك وإحكامها، فعرفت عدلك بعقلي، وبقي باب لم أعرفه، إنك تسخط على أهل البلية، فتعمهم بعذابك، وفيهم الأطفال!

فأمره الله تعالى: أن يخرج إلى البرية، وكان الحر شديداً، فرأى شجرة فاستظل بها ونام، فجاءت نملة فقرصته، فدلك الأرض برجله، فقتل من النمل كثيراً، فعرف أنه مثل ضرب، فقيل له:

---

(١) علل الشرائع: ص٢٢ وعيون أخبار الرضا: ج١ ص٢٣١ والبحار ج٥ ص٢٨٣.

(٢) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة نوح.

(٣) الآية ٣٦ من سورة هود.

(٤) علل الشرائع ص٢٢ والبحار ج٥ ص٢٨٣.

«يا عزير، إن القوم إذا استحقوا عذابي قدرت نزوله عند قضاء آجال الأطفال، فماتوا أولئك بآجالهم، وهلك هؤلاء بعذابي» (١).

قال المجلسي: «إن الله تعالى كما أنه يميت متفرقاً، إما لمصلحتهم، أو لمصلحة آبائهم، أو لمصلحة النظام الكلي، كذلك قد يقدر موتهم جميعاً في وقت واحد لبعض تلك المصالح.

وليس ذلك على جهة الغضب عليهم، بل رحمة لهم، لعلمه تعالى بأنهم يصيرون بعد بلوغهم كفاراً، أو يعوضهم في الآخرة، ويميتهم لردع سائر الخلق عن الإجتراء على مساخط الله، أو غير ذلك.

مع أنه ليس يجب على الله تعالى إبقاء الخلق أبداً، فكل مصلحة تقتضي موتهم في كبرهم، يمكن جريانها في موتهم عند صغرهم، والله تعالى يعلم» (٢).

وعن الإمام الباقر «عليه السلام»: «إن الله أوحى إلى يونس حين دعا على قومه: إن فيهم الحمل، والجنين، والطفل، والشيخ الكبير، والمرأة الضعيفة، والمستضعف المهين، وأنا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي، وخلقي، وبريتي، في بلادي، وفي عيلتي، أحب أن

---

(١) بحار الأنوار ج٥ ص٢٨٦ عن قصص الأنبياء.

(٢) المصدر السابق: ج٥ ص ٢٨٦ و ٢٨٧.

أتأناهم، وأرفق بهم، وأنتظر توبتهم الخ..»(١).

وهذه الرواية، وإن كان فيها مواضع مشكلة، ولكن هذه الفقرة فقط هي موضع الحاجة، وليس في الأخذ بها محذور.. لأنها آتية وفق القواعد والأصول العامة العقلية وغيرها، كما أنها مؤيدة بسائر الروايات الآنفة الذكر.

وقد رأينا: أن العذاب لم ينزل على قوم يونس حتى خرج «عليه السلام» من بينهم مغاضباً لهم، فرأوه قد دنا منهم، ثم رفع عنهم بسبب توبتهم.

وأخيراً، فقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم :**(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)** أي أهل مكة **(وَأَنْتَ فِيهِمْ)**. قال ابن عباس: إن الله لم يعذب قومه حتى أخرجوه منها، **(وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)**(٢)، أي وفيهم بقية المؤمنين بعد خروجك من مكة.

وذلك أن النبي «صلى الله عليه وآله» لما خرج من مكة بقيت فيها بقية المؤمنين لم يهاجروا لعذر، وكانوا على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفارهم، فلما خرجوا أذن الله في فتح مكة.

---

(١) البحار: ج ١٤ ص ٣٩٣ عن تفسير العياشي، والبرهان ج٢ ص٢٠٠ و ٢٠٢.

(٢) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

وقيل: معناه: وما يعذبهم الله بعذاب الإستيصال في الدنيا، وهم يقولون: غفرانك ربنا. وإنما يعذبهم على شركهم في الآخرة[١].

٨ ـ بقي أن نشير إلى أن ثمة آية ورواية، قد يتوهم متوهم: أنهما تدلان على خلاف ذلك.

ألف: أما الآية فهي:

قوله تعالى: **(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)**[٢].

ولكن الحقيقة هي: أن هذه الآية ليست ناظرة إلى عذاب الاستئصال، بل المقصود بالفتنة هو البلاء الناشئ عن المعاصي في الدنيا، كالفتن والحروب، والأمراض، وما أشبه ذلك، فإن ضررها لا يقتصر على من يثيرها.

ب: وأما الرواية فهي: ما روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أنه قال: ما عذب الله قرية فيها سبعة من المؤمنين..[٣].

فالجواب: أنها لا يمكن الإستدلال بها على أن عذاب الاستئصال يمكن أن ينال المؤمنين، إذ لا تأبى أن يكون المراد: أن القرية لا تستحق العذاب ما دام فيها سبعة من المؤمنين يقومون بواجبهم في

---

(١) بحار الأنوار ج١٨ ص ١٥٩.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٣٨٣ عن الاختصاص ص ٣٠.

إنكار المنكر، والأمر بالمعروف.. فإذا قلّ عدد المؤمنين عن هذا استحقت عذاب الاستئصال.. فيؤمر هؤلاء بالخروج منها، ويمهلون من أجل ذلك، فإذا خرجوا نزل عليها العذاب، تماماً كما جرى لقوم نوح، ولوط، ويونس، ومشركي مكة أعزها الله تعالى. وإن كان الله قد رفع العذاب عن قوم يونس بعد أن دنا منهم ورأوه رأي العين، فكان ذلك سبب توبتهم.

٢٨٣ ـ جبرائيل لم يكن ينزل على لوط «عليه السلام».

٢٨٤ ـ لوط «عليه السلام» يتلقى الأوامر من إبراهيم «عليه السلام».

وقد أعلن البعض في إذاعة محلية تابعة له، إنكاره نزول جبرائيل «عليه السلام» على نبي الله لوط «عليه السلام».. وأنه إنما كان ينزل على إبراهيم «عليه السلام»، وهو الذي كان يصدر الأوامر إلى لوط «عليه السلام»، وذكر أن ذلك يعطي أسلوبا تنظيميا جيداً، واعتبر ذلك كشفا مهمّا منّ الله به عليه!!

مع أن الله سبحانه يقول: **(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)**(١)، فهل يكون لوط مرسلاً ولا ينزل عليه الوحي؟! ومن أين صحّ له أن الوحي لم يكن ينزل على لوط؟!

فاستمع إليه يقول ـ ونحن نعتذر للقارىء الكريم لأنّا سنورد

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة الصافات.

كلامه، الذي جاء باللغة العامية، ولم نتدخل في صياغة عبارته ـ:

«إن إبراهيم من أولي العزم، يعني هو رسول الله إلى الناس جميعاً، وكان يرسل ذاك الزمن مثلاً إبراهيم «عليه السلام»، مثلاً يرسل أشخاص أنبياء محليين، يعني مثلاً أرسل لوط إلى هذه القرية التي انتشر فيها الفساد والشذوذ الجنسي المذكر (اللواط) على أساس أن يذكرهم بالله، وأن يركز لهم القاعدة الإيمانية، وأن يواجه هذا الإنحراف الشاذ عندهم، فهناك أنبياء محليون. هؤلاء الأنبياء المحليون لا يرتبطون بالوحي مباشرة، وإنما يرتبطون بالوحي العام.

ما تسمعوا بأولي العزم؟! أولي العزم يعني هم: إبراهيم، وموسى، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد «صلى الله عليه وآله» وسلم، هؤلاء أولياء.. أنبياء أولي العزم. هؤلاء هم كأن الأنبياء الموجودين، في أنبياء ضيع، في أنبياء قرى مثلاً، فكأن لوط.. إبراهيم هو مسؤول لوط، كأنه لوط ليس نبياً بشكل مباشر، ولكن نبوته من خلال أنه وكيل إبراهيم «عليه السلام» في هذا المجال، فاستئذانهم من لوط من إبراهيم باعتبار أنه يتحمل مسؤولية لوط، فمن الناحية التنظيمية، الله سبحانه وتعالى راعى الناحية التنظيمية، إنه يستأذن إذا أراد أن.. العذاب على الجماعة أولئك فيستأذن إبراهيم بعدما إبراهيم يفهم القضية يذهبون إلى لوط ويحدثونه ويتولوا المهمة ويدبروا الوضع مع لوط هذا.

وهذا المعنى إذا صح، هذا الفهم من هذه المسألة، هذا نفهم من

عندها الجانب التنظيمي: أنه عندما يكون هناك مسؤولية لإنسان عن إنسان آخر فما يجوز، إحنا نتصل بالإنسان الآخر بشكل مباشر، إذا كان أي شخص يعني أي عمل يتصل بالشخص الثاني سواء فيما يوكل إليه من مهمات أو فيما يوكل إليه من مهمات للقاعدة التي يعيش فيها لازم يتصل حتى القيادة لا تتصل بالأشخاص الثانويين بشكل مباشر تتصل بالأشخاص الأساسيين حتى تتحدث معهم حول القضية فهنّي يذهبون هذا.. وبعد ذلك عندما يفهم يروحوا إلى تلك الديار، هذا الجانب التنظيمي جدا مهم يعني لما الواحد.. أنا مثلاً مكلف واحد.. أستوحي هذا المعنى من هذا الجوّ ولم أجد أحداً استوحى هذه القضية فيما قرأت من تفاسير.. حتى أنني لم أذكرها في تفاسيري، لكن كما يقولون: العلم يزكو على الإنفاق» (١).

وحاصل كلامه ـ كما هو ظاهر ـ: أنه ينكر نبوة لوط «عليه السلام» بالمعنى المعروف للنبوة، وجعله له نبياً بمعنى من المعاني ـ وهو كونه نبياً بالمعنى العام بهذا المقدار ـ وهذا المعنى يصدق في حق الكثيرين ممن سبق، ممن يصدق في حقهم أنهم وكلاء للأنبياء ومتعاونون معهم، وينفذون أوامرهم.. فلا بد على هذا التقدير من عدِّهم في جملة الأنبياء، كما أنه ينبغي ـ بناءً على هذه المقولة ـ أن يصح القول في وكلاء الإمام صاحب الزمان «عليه السلام» بأنهم

---

(١) النص الحرفي لكلام البعض مسجلاً بصوته على شريط موجود عندنا برقم ٣٢ وقد بثتها إذاعة محلية تابعة لذلك البعض.

أئمة أيضاً، فهل يلتزم هذا البعض بذلك؟!!.

الفصل الثالث

موسى وهارون ′

٢٨٥ ـ موسى «عليه السلام» ينكث العهد.

٢٨٦ ـ موسى «عليه السلام» غير منضبط.

٢٨٧ ـ خطأ موسى «عليه السلام» في موقفه.

٢٨٨ ـ موسى «عليه السلام» لا يستفيد من التجربة الخاطئة الأولى.

٢٨٩ ـ موسى «عليه السلام» لم يفهم الحدث ولم يفكر.

٢٩٠ ـ علم الأنبياء والأئمة «عليهم السلام» محدود بحدود مسؤولياتهم.

٢٩١ ـ نسيان موسى «عليه السلام».

٢٩٢ ـ النسيان حالة اضطرارية.

٢٩٣ ـ موسى «عليه السلام» في دورة تدريبية.

٢٩٤ ـ عدم أهلية موسى لمرافقة الخضر.

ويقول عن موسى × والخضر ×:

«..وأحس موسى بالحرج الشديد لمخالفته للمرة الثانية، ونكثه بالعهد، قال: **(إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي)** (١)، لأنني لن أكون أهلاً لمرافقتك فيما يمثله ذلك من عدم الإنضباط أمام الكلمة المسؤولة التي التزمت بها أمامك» (٢).

وقال عنه: «وها هو يعود إلى الإخلال بكلمته من جديد» (٣).

ويقول حكاية لقول العبد الصالح لموسى «عليه السلام»: **(أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)** (٤)، ولماذا لم تستفد من التجربة الأولى التي عرفت فيها خطأ موقفك في اهتزاز مشاعرك أمام الحدث الذي لم تفهمه، ولم تفكر بأن من الممكن أن يكون له وجه آخر» (٥).

«ففي قصة الخضر هو العبد الصالح، هي أن الله أراد أن يدخل موسى في دورة تدريبية، حتى يفهم الجانب الثاني من الصورة» (٦).

وعن علم الأنبياء «عليهم السلام» والأئمة «عليهم السلام»

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الكهف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٤ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٤ ص٣٩٥.

(٤) الآية ٧٥ من سورة الكهف.

(٥) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٤ ص٣٩٣.

(٦) فكر وثقافة عدد ٣ بتاريخ السبت ١٩٩٦/٦/٢٩م.

ببعض مفردات علوم الحياة والإنسان، أو ببعض خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية يقول:

«أما هذه الجوانب فلا دليل على ضرورة إحاطته بها، ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها، ولا تتعلق بحركة المسؤولية وربما كانت هذه القصة دليلا على صحة هذا الرأي الذي نميل إليه» (١).

ويقول:

«..قال لا تؤاخذني بما نسيت، من عهدي لك، هذا موقف ثان للنسيان يعيشه موسى في ذاته، لأن النسيان حالة اضطرارية، لا يملك الإنسان معها عنصر الاختيار» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

قال الله تعالى حكاية لما جرى بين موسى «عليه السلام» والعبد الصالح:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٤ ص٣٨٧.

(٢) من وحي القرآن ج١٤ ص ٣٩١ و ٣٩٢.

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..)(١).

تفسير الآيات:

قد قلنا: إنه إذا كان ثمة وجه صحيح ومعقول، ومنسجم مع دلالات الآيات القرآنية، فلماذا اللجوء إلى تفسير الآيات بطريقة توجب الشبهة، وتوقع في المحذور.

ونحن نذكر فيما يلي عرضاً موجزاً لما ترمي إليه الآيات، دون أن يكون ثمة أي محذور عقائدي، فنقول:

---

(١) الآيات ٦٦ ـ ٧٩ من سورة الكهف.

١ ـ إن المراد بالقصة المشار إليها في كلام هذا البعض هي قصة العبد الصالح وموسى «عليه السلام»، ومن الواضح: أن نسبة النسيان ـ بهذا المعنى ـ إلى موسى تعني نفي العصمة عنه من هذه الجهة، كما أن موسى لم ينكث العهد، لأنه لم يكن قد عاهد الخضر «عليه السلام» على السكوت على ما يراه مخالفاً لأحكام الشريعة، وحقائق الدين، وقد كان تكليفه الإلهي أن يعترض وأن يسأل.. وأن يظهر حساسية بالغة لصالح الإلتزام بالحكم الشرعي، ولو لم يعترض «عليه السلام» لم يكن أهلا لمقام النبوة والرسالة.

٢ ـ إن قول موسى «عليه السلام»: لا تؤاخذني بما نسيت، لايعني: أن المبرر لاعتراضه على الخضر هو النسيان وأنه يعتذر له منه، ولأجل ذلك لم يقل له: لا تؤاخذني بنسياني، بل قال: (**بِمَا نَسِيتُ**)[(١)]، أي: بتركي العمل في المورد الذي كان علي أن أهمل الوعد فيه، وأزيحه عن ذاكرتي، لكي أبادر لمواجهة ما أراه من مخالفة للشرع، إذ لا يجوز لي في هذا الموقف إلاّ أن أبادر للردع عن المنكر الظاهر، فالمراد بالآية الإعتذار بالإنشغال بالأهم عن غيره..

٣ ـ وحين أكّد له الخضر «عليه السلام» بصورة ضمنية على أن عمله ليس فيه مخالفة للحكم الشرعي، وأنه سيعرف باطن الأمر في الوقت المناسب، قبل منه ذلك، فلما تكرر ما ظاهره المخالفة كان لا بد

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الكهف.

من تكرار الإعتراض، عملا بالتكليف الإلهي، ولم يستعجل الحكم، ولا نكث العهد، ولا كان ذا فضول كما يقوله البعض.. ولا هو يعاني من عدم الإنضباط أمام الكلمة المسؤولة..

وأما بالنسبة للمرة الثالثة، فلم تكن امتداداً لما سبقها، بل كانت نتيجة اتفاق جديد بين العبد الصالح وبين موسى «عليه السلام»، حيث توافقا على الإلتزام بمضمون قوله تعالى: **(قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)**(١)،

حيث قد أصبح بإمكان موسى «عليه السلام» أن يعترض على العبد الصالح إن شاء، فتكون المفارقة بينهما، وبإمكانه أن يستمر معه.

فاختار موسى الإنفصال، لا عن نسيان للوعد، بل عن معرفة به، والتفات إليه..

والمراد بالنسيان في الآية هو: الترك والإهمال، ولو ظهر بصورة العمل الذي يصفه الناس ـ عادة ـ بأنه نسيان، ولم يكن في واقعه وحقيقته كذلك، وهذا العمل هو وضع هذا الوعد جانبا، والمبادرة لإنجاز التكليف الشرعي الحاضر، الذي هو الأهم.

فالتعبير بالنسيان لا يراد به الإخبار عن حدوثه، بل الإخبار عن العمل الذي يراه الناس كذلك، وإن لم يكن في واقعه كذلك.

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الكهف.

٤ ـ ولعل نجاح موسى «عليه السلام» الباهر في هذا الإمتحان هو الذي أظهر أهليته لمقام النبوة والرسالة، وعرّفنا على سر اصطفاء الله له من بين سائر قومه ليكون نبياً من أولي العزم.

٥ ـ كما أنه لا ربط لهذه الآية بموضوع علم الأنبياء والأئمة، وإنما هي ترتبط بموضوع تنجز التكليف في ما يرتبط بالمعذرية أمام الله سبحانه، لكي يكون العمل عن حجة ظاهرة لكي لا يصبح ذريعة للجبارين والظالمين.

٢٩٥ ـ إحتمال ارتكاب النبي موسى «عليه السلام» جريمة دينية.

٢٩٦ ـ الآلام النفسية لموسى «عليه السلام» بسبب عملية القتل.

٢٩٧ ـ جريمة موسى «عليه السلام» في مستوى الخطيئة.

٢٩٨ ـ الخطأ غير المقصود لموسى «عليه السلام».

٢٩٩ ـ موسى«عليه السلام» يستجيب للوسوسة الخفية بالقتل.

ثم إن هذا البعض يقرر أن النبي قد يكون مجرما، ويحتمل أن يكون قد ارتكب جريمة قتل نفس بريئة، فهو يقول عن موسى:

«ولكن هل كان يشعر بالذّنب لقتله القبطي، باعتبار أن ذلك يمثل جريمة دينية في مستوى الخطيئة التي يطلب فيها المغفرة من الله؟! أو أن المسألة هي أنه يشعر بالخطأ غير المقصود الذي كان لا يجب أن يؤدي إلى ما انتهى إليه مما يجعله يعيش الألم الذّاتي تجاه عملية القتل..».

إلى أن قال:

«إننا نرجح الإحتمال الثاني»(١).

وهذا يعني أن الإحتمال الأول لا يزال واردا، ولكنه مرجوح!!

ويقول عن وسوسة الشيطان لموسى «عليه السلام» بقتل القبطي:

«أما حديث التأثير الشيطاني في الأشياء من خلال آية المائدة فلا يدل على المقصود، فإن الظاهر إرادة الإرتباط بهذه الأشياء في الجانب العملي من خلال وسوسته للإنسان في الأخذ بها بالطريقة المضادة لمصلحته، وهذا هو الذي نفهمه من آية موسى «عليه السلام» لأن قتله للقبطي قد يكون ناشئا من الوسوسة الخفية فيما تصنعه من حالة الإثارة التي تقود إلى ذلك»(٢).

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٧ ص٣١٠.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٩ ص٣٠١ و ٣٠٢.

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) (١) .

وإذا قرأنا هذه الآيات الشريفة، فإننا نذكر القارئ بما يلي:

١ ـ إن الاحتمال الأول باطل جزما، إذ لا يحتمل في حق نبي أو وصي أن يكون قاتلا أو مرتكبا لجريمة دينية.. لأن احتمال المعصية الكبيرة في حق المعصوم كالقول ـ بوقوعها ـ مناف للقول بالعصمة.

فلو أن ذلك البعض قد ذكر هذا الإحتمال وبادر إلى ردّه وإبطاله بصورة حاسمة، لم يكن ثمّة إشكال.. ولكنه لم يفعل ذلك، بل أبقاه احتمالا واردا، وله درجة من المقبولية، إلى درجة أنه بعد التأمل يكتفي بترجيح الإحتمال الآخر عليه، ولا يمكن قبول هذا الأمر في حق الأنبياء ولو على مستوى الإحتمال.

٢ ـ إن من البديهي: أن الآيات الكريمة لا تؤيد ما ذكره، بل فيها ما يدل على خلافه، وأن الشيطان لم يوسوس لموسى «عليه السلام»، ولا ارتكب موسى «عليه السلام» جريمة دينية، ولا أخطأ، ولا غير ذلك مما احتمله هذا البعض. وذلك لأن هذه الآيات بدأت بذكر إعطاء

---

(١) الآيات ١٣ ـ ١٩ من سورة القصص.

موسى «عليه السلام» حكما وعلما جزاءً على إحسانه، ثم ذكرت ما جرى له مع ذلك الرجل الذي هو من عدوه، فهي تقول: **(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)**(١).

٣ ـ ثم ذكرت الآية التي بعدها هذه القصة، وصرحت بأن المقتول كان رجلا من الأعداء، فهي تقول: **(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)**(٢).

والمراد بالعداوة عداوة الدين والإيمان.

٤ ـ وقوله: **(هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)** يقصد به: أن الإقتتال بين الرجلين قد نشأ من وسوسة الشيطان، الذي حرّض على الفتنة، حتى انتهى الأمر إلى القتال بين الرجلين، اللذين أغاث موسى «عليه السلام» أحدهما، الذي كان من شيعته على الذي من عدوّه، ولا يقصد به أن موسى «عليه السلام» نفسه قد تأثر بالشيطان، فإن كلمة هذا ليست إشارة إلى القتل، وإنما هي إشارة إلى القتال الذي بدأه العدو، وانتهى بمبادرة موسى «عليه السلام» لنصرة ذلك المظلوم.

٥ ـ إن موسى «عليه السلام» بنصرته لذلك المظلوم، لم يكن مجرما ولا مخطئا، وإنما كان يطيع أمر الله، ويعمل بتكليفه وواجبه الشرعي في دفع الكافر الظالم عن المؤمن المظلوم ولو أدى ذلك إلى

---

(١) الآية ١٤ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٤ من سورة القصص.

قتل هذا الكافر.

وقد روي عن الإمام الرضا «عليه السلام» قوله: «فقضى على العدوّ بحكم الله تعالى ذكره، فوكزه موسى فقضى عليه »، وحينما قال له فرعون: **(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** (١). أجابه هازئاً ومستنكراً مردداً قول فرعون بصيغة السؤال: **(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** (٢). **(فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)**؟! (٣).

ولو لم يكن ذلك، فلا معنى لإقحام كلمة (إذا) التي يراد بها ردّ الكلام على قائله، على سبيل الإنكار عليه.

٦ ـ ومما يشير إلى ذلك أيضاً: أن موسى «عليه السلام» حين قتل الذي من عدوه لم يكن من الضالين.. بل كان الله قد آتاه حكما وعلما.. كما ذكرت الآيات.

كما أنه «عليه السلام» قد كان من عباد الله المحسنين، فاستحق المكافأة على إحسانه، فلم يكن ليظلم غيره، فيقتل نفساً بريئة ويرتكب جريمة دينية!!!

٧ ـ فما حكاه الله سبحانه عن موسى «عليه السلام» بعد تلك

---

(١) الآية ١٩ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ١٩ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٠ من سورة الشعراء.

الحادثة بقوله: (**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ**) (١)، يراد به: أنه قد انتهى به الأمر بدخوله المدينة، ثم بقتله للذي من عدوّه، إلى أن يحتاج إلى تدخل إلهي ليستره عن عيون الفراعنة، الذين يطلبونه.. فقد صدر منه فعل له عواقب تعود على النفس بالمشقة والمتاعب، ويحتاج إلى ستر الله سبحانه، وإلى معونته، وقد روي عن الإمام الرضا «عليه السلام» في تفسير هذا الموضع قوله: (**فَاغْفِرْ لِي**)، أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي، فيقتلوني، (**فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)، ومعنى الغفران: الستر، وسمي المِغفَر ـ الذي يستعمل في الحرب ـ مغفراً لأنه يستر الرأس، ويقيه ضرب السيوف.

ولو صح منه «عليه السلام» طلب المغفرة من الذنوب، فقدعرفت أنها إنما تكون من المعصومين بمعنى دفع المعصية عنهم، لا رفع آثارها بعد وقوعها منهم.

٨ ـ ثم إن موسى «عليه السلام» يصر على مواصلة الطريق في نصرة المظلومين، ويقطع على نفسه عهدا بذلك فيقول: (**قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**) أي بهذه الحماية والستر، (**فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ**) (٢) وسوف أستمر.. يقول الإمام الرضا «عليه السلام»:

---

(١) الآية ١٦ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٧ من سورة القصص.

رب بما أنعمت علي من القوة حتى قتلت رجلاً بوكزة، فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى.

٩ ـ ثم وجد موسى «عليه السلام» ذلك الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم على آخر، فعاتبه على دخوله في هذا النزاع الجديد بقوله: **(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)** (١)، لا تسلك سبيل الرشد ولماذا لا تتفادى المشكلات مع أعداء الله بحكمة وروية؟ ثم بادر موسى «عليه السلام» ليبطش بعدوّ الله، فظن المؤمن أنه يريد البطش به هو، لأنه كان قد أنّبه قبل ذلك، لا البطش بعدوّه، فقال له: **(أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ)** (٢)، فسمعها الذي من عدوّه وذهب إلى فرعون وأخبره بالأمر.

وهكذا يتضح: أن الآيات المذكورة بعيدة عن إفادة تلك القضايا التي حاول البعض استفادتها منها، حتى احتمل بحق نبي من أولي العزم ما لا يصح نسبته إلى من رتبته دون ذلك بكثير، والإستيحاء من الآيات إذا كان على هذا النحو، فهو غير مقبول، لا عقلاً ولا شرعاً.

٣٠٠ ـ خطأ الأنبياء في تقدير الأمور.

٣٠١ ـ العصمة إنما هي فيما يعتقد أنه معصية.

٣٠٢ ـ الجهل المركب عند الأنبياء.

---

(١) الآية ١٨ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٩ من سورة القصص.

٣٠٣ ـ نقاط ضعف الأنبياء في حياتهم العملية.

٣٠٤ ـ الضعف البشري عند الأنبياء.

٣٠٥ ـ جهل النبي بتكليفه الشرعي.

ثم هو يتحدث عن خطأ الأنبياء في تقدير الأمور، فيقول:

«وتبقى لفكرة العصمة بعض التساؤلات: كيف يخطئ هارون «عليه السلام» في تقدير الموقف وهو نبي؟! أو كيف يخطئ موسى «عليه السلام» في تقدير موقف هارون «عليه السلام»، وهو النبي العظيم؟! وكيف يتصرف معه هذا التصرف؟!

ولكننا قد لا نجد مثل هذه الأمور ضارة بمستوى العصمة، لأننا لا نفهم المبدأ بالطريقة الغيبية التي تمنع الإنسان من مثل هذه الأخطاء في تقدير الأمور، بل كل ما هناك: أن لا يعصي الله فيما يعتقد أنه معصية، أما أنه لا يتصرف تصرفاً يعتقد أنه صحيح ومشروع، فهذا ما لا نجد دليلاً عليه.

بل ربما نلاحظ في هذا المجال: أن أسلوب القرآن في الحديث عن حياة الأنبياء «عليهم السلام»، في نقاط ضعفهم في حياتهم العملية قد يؤكد الحاجة إلى الإيحاء بأن الرسالة لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري في الخطأ في تقدير الأمور» (١).

ونقول:

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ ص ١٧٨ و ١٧٩.

إذا جوّزنا على النبي أن يقع في التصرف الخاطئ، وإن اعتقد أنه صحيح ومشروع، فلازم ذلك: أن لا يكون فعل النبي حجة، مع أن من المسلّم به: أن سيرة المعصومين بأجمعهم حجة وطريق إلى أحكام الله تعالى.. هذا كله عدا عما تقدم في مختلف العناوين التي استخلصناها من كلمات ذلك البعض فلتراجع.

وسنتحدّث بإيجاز بعد الفقرة التالية عن حقيقة موقفي هارون «عليه السلام» وموسى «عليه السلام»، حيث سيظهر: أن الآيات تدل على خلاف ما ينسبه هذا البعض إلى أنبياء الله سبحانه، فانتظر.

٣٠٦ ـ إختلاف نبيَّين في الرأي في مسألة واحدة.

٣٠٧ ـ موسى «عليه السلام» يغضب لله سبحانه على هارون «عليه السلام».

٣٠٨ ـ موسى «عليه السلام» يحمّل هارون مسؤولية ضلال قومه.

٣٠٩ ـ هارون «عليه السلام» يتساهل مع قومه وموسى يعنف.

٣١٠ ـ موسى «عليه السلام» يشعر بالحرج مما صدر منه.

٣١١ ـ لو احتاط موسى وهارون لكانت النتائج أفضل.

٣١٢ ـ خطأ موسى أو هارون «عليهما السلام» في تقدير الموقف.

٣١٣ ـ مرة أخرى العصمة لا تمنع من الخطأ في تقدير الأمور.

٣١٤ ـ الجهل المركّب لدى الأنبياء «عليهم السلام».. ثانية.

٣١٥ ـ لا يفهم العصمة بالطريقة الغيبية.

٣١٦ ـ هارون «عليه السلام» مقصر لكنّه ليس بعاصٍ.

ويقول ذلك البعض:

«وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، في تعبير صارخ عن الحالة النفسية التي كان يعيشها موسى إزاء ما حدث.. وربما تحدّث الكثيرون عن مبدأ العصمة في شخصيته كنبيّ.. وعن التساؤل الإيماني، في مدى انسجام هذا التصرف الغاضب مع هذا المبدأ.. ولكننا لا نجد هناك تنافياً بينهما إذا أردنا أن نأخذ القضية ببساطة تحليلية بعيداً عن التعقيد والتكلف.. فموسى بشر يغضب كما يغضب البشر، ولكن الفرق بينه وبينهم: أن لغضبه ضوابط في التصرفات، فلا يتصرف بما لا يرضي الله، وفي الدوافع فلا يغضب إلا لما يرضاه الله.. وقد غضب على قومه لله.. وعلى أخيه هارون لنفس الغرض.. لأنه اعتبره مسؤولاً عما حدث، من خلل التساهل معهم، وعدم ممارسة الضغط الشديد عليهم، ومنعهم من ذلك. فقد كان تقديره: أن رفع درجة الضغط يمكن أن تساهم في منع ما حدث.. ما لم يقم به هارون.. فكان موسى منسجماً مع نفسه، ومع دوره، وصفته.. فيما اتخذه من إجراء مع هارون.. ولكن هارون كان له رأي آخر.. فقد وقف ضدّهم، وواجههم بكل الوسائل التي يملكها في الضغط عليهم.. ولكنهم كانوا لا يهابونه كما يهابون موسى من خلال

شخصيته القوية، فيما عاشه من عنف المواجهة مع فرعون، حتى قهره».

إلى أن قال:

«..**(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ..)**. فلم أفعل ما أحاسب عليه، لأن الظروف كانت أقوى من قدرتي.. فقاومت حتى لم يعد هناك مجال للمقاومة.. وجابهت.. حتى كدت أن أقتل.. فإذا تصرّفت معي بهذه الطريقة.. فإن ذلك سوف يكون دافعاً لشماتة الأعداء بي.. لأنني قاومتهم وجابهتهم.. وها هم يرونني أمامك واقفاً وقفة المذنب من دون ذنب.. فلا تفعل بي ذلك **(وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** (١)، لأني قمت بما اعتقدت أنه مسؤوليتي من دون تقصير..

وشعر موسى بالحرج.. وسكن غضبه.. فرجع إلى الله يستغفره، لنفسه ولأخيه، لا لذنب ارتكباه.. ولكن للجوّ الذي ابتعد فيه القوم عن الله، من خلال الفكرة التي كانت تلح عليهما.. فيما لو كان الإحتياط للموقف أكثر، فقد تكون النتائج أفضل..».

إلى أن يذكر هنا ما تقدم قوله آنفاً من قوله:

«وتبقى لفكرة العصمة.. بعض التساؤلات».

---

(١) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

إلى قوله: «في الخطأ في تقدير الأمور» (١).

ويقول البعض أيضاً:

«ربما كانت القضية على أساس أنه اعتبر أن هارون قصّر، وليس من الضروري أن يكون تقصيره معصية..».

إلى أن قال:

«هارون عنده تقييم معين للمسألة، وانطلق فيها من حالة أنه قال: **(إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)** (٢)، ولهذا واجه القضية بطريقة لينة.

وكان موسى «عليه السلام» يعتقد على أنه لازم تواجه القضية بقوة، لأن بني إسرائيل لا يفهمون إلاّ بلغة القوة الخ..» (٣).

وقفة قصيرة:

إن من الواضح: أن مخالفة هارون لموسى، الذي هو إمام لهارون، إنما تعني التأسيس لتجويز مخالفة كل مأموم لإمامه، وتبرير خروجه عليه. أضف إلى ذلك أن الإختلاف في الرأي هنا يستبطن وجود مخطئ ومصيب، فبأيهما تكون الأسوة والقدوة للناس والحالة هذه، والمفروض أن كلاً منهما نبي ومعصوم!!؟

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ ص ١٧٦ ـ ١٧٩.

(٢) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

(٣) مجلة الموسم عدد٢١ ـ ٢٢ ص٣٢١.

وأضف إلى ذلك أيضاً: أنه إذا كان اختلاف الرأي يرتبط بالدعوة وأسلوبها، فذلك يعني أن هذا النبي يجهل تكليفه الشرعي، فكيف يمكنه تبليغه للناس، وإعلامهم به؟! ألا يلزم من ذلك تبليغ حكم خاطئ لا واقع له؟!

والذي نقوله نحن هنا هو:

إنه لم يكن ثمة اختلاف في الرأي، فيما بين موسى وهارون «عليهما السلام»، ولا كان ثمّة جهل بالتكليف الشرعي، ولا غير ذلك مما تقدم، فإن الإختلاف في الموقف تجاه الواقعة الواحدة، ينبئ عن جهل بالحكم الشرعي، في كيفية التعاطي مع بني إسرائيل.

كما أن اتهام نبي بالتساهل في القيام بمهماته، وتسببه في ما حصل للناس، من انحراف وضلال تعتبر تهمة خطيرة على مستوى الإعتقاد في الأنبياء وفي النبوات بصورة عامة، بل في هذا اتهام صريح لحكمة الله تعالى، حيث أرسل مع موسى من ينقض غرضه في تبليغ الرسالة، ويكذب توقعاته فيه، كما جاء في الآية الكريمة: **(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)** (١).

ومهما يكن من أمر، فإن الآيات الشريفة قد فسرت على غير وجهها الصحيح، إذ إنّ ما أظهره موسى «عليه السلام» تجاه أخيه هارون «عليه السلام» لم يكن سببه الإختلاف في الرأي بينهما في

---

(١) الآيات ٢٩ ـ ٣١ من سورة طه.

كيفية المعاملة، بل كان من أجل إظهار خطر ما صدر منهم، ومدى بشاعة الجريمة التي ارتكبوها.. ثمّ من أجل إظهار براءة هارون «عليه السلام»، وتحصينه من نسبة القصور أو التقصير إليه.

وقد بين موسى «عليه السلام»: أنه لم يتهمه بمعصية أمره ليستحق ـ بزعم البعض ـ هذه المواجهة القاسية، وهذا العتاب والتوبيخ بهذه القوة، بل وجّه إليه سؤالا عن ذلك ليسمع الناس جوابه الذي يتضمن برهانا إقناعيّا يدل على دقته، وحسن تقديره للأمور، وقد قبل موسى منه ذلك بمجرد تفوهه به، ودعا لنفسه وله، كما جاء في قوله تعالى: **(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)**(١).

(..رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)(٢).

وأما ما زعمه هذا البعض من أن هارون «عليه السلام» كان يرى لزوم معاملتهم باللين، وكان موسى «عليه السلام» يرى لزوم الشدة في ذلك، فهو لا يصح، وذلك لما ذكرناه آنفا، ولأن هارون قد وصل معهم إلى درجة المواجهة، حتى لقد قال لأخيه موسى: **(إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)**(٣).

---

(١) الآيات ٢٩ ـ ٣١ من سورة طه.

(٢) الآية ١٥١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

وأما القول: بأن موسى «عليه السلام» قد غضب على أخيه هارون «عليه السلام»، وكان غضبه لله سبحانه وتعالى، فذلك يعني: أنه «عليه السلام» كان يتهم أخاه النبي هارون «على نبينا وآله، وعليهما صلوات الله سلامه» بارتكاب المعصية، ويحمّله مسؤولية ما جرى، ويتهمه بالتساهل والتخلف عن أن يكون عضداً له، يشد أزره، ويشركه في أمره، وذلك مما لا يمكن قبوله في حق الأنبياء.

وهكذا يتضح: أن كل ما ذكره ذلك البعض أجنبي عن دلالة الآيات.

٣١٧ ـ أصول العقيدة تعرف بالسمع لا بالعقل.

٣١٨ ـ لا دليل يصرف معنى الرؤية عن الرؤية الحسية.

٣١٩ ـ النبي موسى «عليه السلام» لا يعرف: أن الله لا يرى.

٣٢٠ ـ الله يعلّم أنبياءه أصول العقيدة بالتدريج.

٣٢١ ـ لا يبعد أن سؤال موسى عن رؤية الله الحسية.

٣٢٢ ـ وأيضاً.. نقاط الضعف لدى الأنبياء.

٣٢٣ ـ الله يسلط نوره على الجبل فكيف لو تسلط عليه بنفسه؟!

٣٢٤ ـ موسى والتحاليل الفلسفية والمعادلات العقلية في استحالة تجسد الإله وإمكانه.

ويقول ذلك البعض:

«(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ

إِلَيْكَ..)[(١)] .. ووصل موسى إلى الموعد الذي أعطاه الله له.. وكلمه ربه.. فيما يريد أن يوحي به إليه.. واندمج موسى في الجوّ الإلهي.. وشعر بالسعادة الغامرة تغمر قلبه.. ففاضت روحه بالأشواق الروحية، فيما توحيه كلمات الله إليه.. وفيما تمثله من معاني القرب من الله، والوصول إلى الدرجة العليا من رضوانه.. وبما توهج في كيانه من إشراق النور الإلهي في لحظة روحية حالمة.. فطلب من ربه أن ينظر إليه.. فقال: **(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)**[(٢)]. فقد خيل إليه: أن من يسمع كلام الله، يستحق أن يراه.. أو يمكن له أن يطلب رؤيته..

وهنا يقف المفسرون وقفة حيرة فلسفية كلامية.. فكيف يمكن لهذا النبي العظيم أن يطلب مثل هذا الطلب المستحيل من ربه.. وهو يعرف من خلال سموّ درجته، ورفعة منزلته في عالم المعرفة بالله: أن الله ليس جسداً مادياً محسوساً لتمكن رؤيته.. فهو **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)**؟![(٣)]..

وأجاب بعضهم: أن المراد بالنظر: الرؤية القلبية التي هي كناية عن العلم الواسع بالحقيقة الإلهية..

وأجاب آخرون: بأنه لم يسأل انطلاقاً من قناعة بالسؤال، أو

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١١ من سورة الشورى.

انسجام(اً) معه.. بل كان سؤاله استجابة لسؤال قومه الذين رافقوه إلى الموعد الإلهي.. فأراد أن يجعلهم وجهاً لوجه أمام الجواب الصاعق على هذا السؤال..

ولكننا لا نستبعد أن يسأل موسى هذا السؤال.. فقد لا نجد من البعيد في مجال التصور والإحتمال أن لا يكون قد مرّ في خاطر موسى مثل هذا التصور التفصيلي للذات الإلهية.. لأن الوحي لم يكن قد تنزل عليه بذلك.. ولم يكن هناك مجال للمزيد من التحاليل التأملية للجانب الفلسفي من المعادلات العقلية التي تتحدث عن استحالة تجسد الإله أو إمكانه.. لأن ذلك قد لا يكون مطروحاً لدى موسى «عليه السلام».. ونحن نعرف، تماماً، معنى التكامل التدريجي للتصور الإيماني في شخصية الرسول الفكرية..

ولهذا، فإننا نحاول هنا: أن نسجل تحفظنا على الكثير من الأحكام المسبقة التي تحاول تطويق النص القرآني ببعض الإستبعادات الذاتية.. كما في مثل هذه الآية.. فإننا نلاحظ: أن تصورنا لشخصية الأنبياء، يبدأ من القرآن، فيما يحدثنا عنهم من أحاديث، ويسبغه عليهم من صفات. فهو المصدر الأساس الأمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

ونحن نرى: أن الحديث القرآني يركز في بعض نقاطه على نقاط الضعف لدى الأنبياء كما يركز على نقاط القوة عندهم.. من موقع البشرية التي يريد القرآن أن يركزها في التصور القرآني في أكثر من

اتجاه.. فهل نريد أن ندخل في مزايدة كلامية على القرآن، فيما يتعلق بمثل هذه الأمور.. فنفرض لأنفسنا تصورات معينة للأنبياء، ثم نحاول تأويل كلام الله بطريقة لا يتقبلها النص في بعض الأحيان..

إننا نفهم التأويل حملاً للفظ على خلاف الظاهر، على أساس المجاز أو الكناية أو ما يقترب منهما.. ولا بد للخروج من الظاهر: أن يكون هناك دليل لفظي أو عقلي حتى نصرف اللفظ عن الظاهر من خلاله.. ولا نجد شيئاً من هذين في موضوع هذه الآية، فليس هناك مانع من إرادة النظر بالمعنى الحسي فيما طلبه موسى. بل هو الظاهر الواضح جداً في أجواء الآية من خلال التجربة التي قدمها الله أمامه، فيما تعطيه كلمة التجلي من أجواء استحالة الرؤية البصرية فيما وجّهه الله للجبل من نوره الذي لا يستطيع الجبل أن يتماسك معه.. فكيف لو كان التجلي له ـ سبحانه ـ.. ثم لو كان المراد الرؤية القلبية لما كان هناك وجه قريب لهذه التجربة في انهيار الجبل، فيما تعطيه من معنى مادي للمسألة.. لأن الجبل لا يحمل أي جوّ للجانب القلبي في الموضوع في تأثره بنور الله.. **(قَالَ لَنْ تَرَانِي)**(١).. لأن الرؤية لا تكون إلا للمحدود الذي يحمل خصائص مادية، فيما يستحيل فرضه بالنسبة إلى الله الذي **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)**(٢).. و **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ**

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

شَيْءٌ) (١) **(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي)** (٢). إنها التجربة التي تعطي لموسى فكرة توضيحية للمسألة المطلوبة.. ولكن من جانب آخر.. فقد أراد الله له أن ينظر إلى هذا الجبل العظيم.. وهو يتهاوى قطعة قطعة حتى يتحول إلى رميم أمام التجلي الإلهي الذي قد يكون كناية عن تسليط نوره عليه.. فكيف يمكن لمخلوق مثله أن يواجه نور الله.. فضلاً عن أن يواجه الله بذاته ـ لو كان ذلك أمراً ممكناً»؟! (٣).

وقفة قصيرة:

إن موضوع رؤية الله سبحانه، وصفاته، وأصول العقيدة، هي من الأمور التي يدركها العقل، وبه تعرف، وليست مما يعرف بالسمع، إلا من حيث تأكيد حكم العقل، والإرشاد إليه.

إذن.. كيف لم يكن موسى النبي «عليه السلام»، الذي سبق له مواجهة فرعون، المدعي للربوبية، كيف لم يكن يعرف ـ على حد قول البعض ـ إلى مضي زمن طويل من نبوته أن الله سبحانه لا يرى؟!

فهل يعقل أنه لم يخطر في بال موسى أن يستعد لمواجهة طلب

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٠ ص١٦٥ ـ ١٦٧.

محتمل جدا من فرعون ومن بني إسرائيل رؤية هذا الإله الذي كان يأتيه جبرئيل بالأوامر والتوجيهات والتوجهات من قبله، ولم يطلب من جبرئيل أن يجمعه به ويتحدث إليه!!

ويقول:

«لذلك فإن الله تعالى لم يعرِّف موسى حتى ذلك الوقت أنه لا يرى»(١).

«ولا ندري لماذا لم يكن قد مر في خاطر موسى هذا التصور التفصيلي للذات الإلهية؟! وكيف خيّل إليه ذلك في هذا الوقت بالذات، ولم يخيل ذلك قبل هذا الوقت؟! ولماذا لم يعرفه الله ذلك في بدايات نبوته وانتظر إلى أن مضت هذه المدة كلها؟! وهل يمكن أن يرسل تعالى نبياً لا يعرفه حق المعرفة؟! وهل يمكن أن نقبل ممن لا يعرف أصول الدين وصفات الباري تعالى أن يكون مرشداً دينياً في قرية؟! فكيف نرتضي أن يكون نبياً لله سبحانه ـ فضلاً عن أن يكون نبياً من أولي العزم ـ أرسله الله إلى فرعون مدعي الربوبية؟! وكيف نسي فرعون، ومن معه، أن يسألوه عن هذا الإله الذي أرسله، من هو، وأين وكيف هو؟!.

وكيف يمكن أن نفهم تعليل ذلك البعض وتوضيحه لهذا الأمر بقوله: إن الله كان يعرِّف أنبياءه أصول العقيدة وصفاته

---

(١) نشرة بينات ١٩٩٧/٢/٢١.

بالتدريج» (١) .

ومن أين عرف هذا البعض، هذا الأمر التاريخي المرتبط بالتعاطي التعليمي لله سبحانه مع أنبيائه؟!!

وهل صحيح أن أصول العقيدة تعرف بالسمع؟! وبالتدريج؟! أوَلا يوجد دليل عقلي يمنع عن الأخذ بظاهر الآية ويصرف الرؤية عن ظاهرها؟!

وهل كان هذا الطلب اقتراحاً من موسى مباشرة؟! أم كان استجابة لطلب قومه منه، ليؤكد لهم بصورة عملية عدم صحة طلب كهذا؟!

٣٢٥ ـ ربما كان القبطي مستحقاً للقتل. (أي وربما كان لا يستحق القتل، فيكون قتله جريمة).

٣٢٦ ـ موسى يفعل أمراً محرّماً بغير قصد.

٣٢٧ ـ موسى «عليه السلام» يقر على نفسه بالضلالة وعدم الهدى.

٣٢٨ ـ موسى يعترف بجهله بالنتائج السلبية لقتله القبطي.

٣٢٩ ـ كان موسى حين قتل القبطي ضالاً، لم يحدد لنفسه الطريق المستقيم المنطلق من قواعد الشريعة.

٣٣٠ ـ الضعف البشري قبل النبوة بسبب فقد الهداية التفصيلية.

---

(١) نفس المصدر السابق.

٣٣١ ـ موسى ارتكب ما لو كان في الموقع الذي هو فيه بعد النبوة لما فعله.

٣٣٢ ـ لم يكن قتل القبطي ضرورياً.

يقول البعض:

«..كيف اعترف موسى على نفسه بالضلال؟! **(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا)**. أي حينئذ **(وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)**(١). أي الجاهلين بالنتائج السلبية التي تترتب عليّ فيما أدى إلى أكثر من مشكلة اعترضت حياتي وأبعدتني عن أهلي وبلدي، مع أن القضية كانت تحل بغير ذلك.. فلم أفعلها في حال الرسالة لتكون تلك نقطة سوداء تسجلها علي في موقعي الرسالي، بل فعلتها قبل أن يلهمني الله الهدى المتحرك في خط الرسالة، عندما كنت ضالاً لم أحدّد لنفسي الطريق الواضح المستقيم المنطلق من قواعد الشريعة المنزلة القائمة على التوازن فيما يصلح الإنسان أو يفسده..

وبذلك نستوحي من الفقرة في الآية: أن الضلال ليس بالمعنى الوجودي المضاد الذي يعبر عن الإنحراف، بل بالمعنى السلبي المعبر عن عدم معرفة طريق الهدى، الذي يضيء عمق الأمور على أساس المصلحة الحقيقية للإنسان.

القرآن يثير نقاط الضعف البشري في الأنبياء.. وفي ضوء ذلك،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الشعراء.

نفهم كيف يقدّم لنا القرآن شخصية النبي من نقاط الضعف البشري قبل النبوة، عندما كان بعيداً عن الإهتداء التفصيلي بالشريعة والمنهج، خلافاً للفكرة المعروفة لدى الكثيرين من العلماء الذين لا يوافقون على أن النبي يمكن أن يضعف أمام عوامل الضعف الذاتي قبل النبوة أو بعدها، حتى فيما لا يشكّل معصية، أو انحرافاً خطيراً عن الخط المستقيم.

وهكذا واجه موسى الموقف بشجاعة الإعتراف بما فعله قبل أن يُبعث بالرسالة، ويهتدي بالحق من خلال الوحي النازل من الله.. فلم يسقط أمام التحدي الذي وجهه فرعون للرسالة على أساس ما وجهه لشخصه من عمل سابق.. بل أكده في مواقعه الذاتية قبل الرسالة قبل أن ينزل عليه الهدى الذي يدعو إليه الناس الآن، فارتكب ما ارتكبه في الجوّ الذي لو كان في الموقع الذي هو فيه الآن لما فعله، لا لأنه فعل حراماً، فلم يكن متعمداً للمسألة، وربما كان الشخص يستحق القتل، بل لأنه لم يكن ضرورياً بالمستوى الذي وصلت إليه القضية في نتائجها السلبية على مستوى حياته الشخصية فيما أدت إليه من إرباك وتعقيد..»(١).

وقفة قصيرة:

إن ما ذكره هذا البعض قد تضمن عدة نقاط لا يمكن قبولها وهي

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٧ص١٠٨ و ١٠٩.

التالية:

١ ـ قلنا فيما تقدم من هذا الكتاب: إن جواب موسى «عليه السلام» لفرعون، حين ذكر فعلته بقتله للقبطي: **(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)** (١). يراد به السخرية من كلام فرعون بقرينة كلمة (إذن).

وقد شرحنا ذلك هناك بما يناسب المقام، فليراجع.

ولم يكن موسى «عليه السلام» بصدد الإعتراف بالجهل بالنتائج السلبية لما فعله، فإنه حتى الإنسان الغبي يدرك النتائج المترتبة على قتل إنسان مّا من أيّ فئة كانت، فكيف إذا كان يعلم أن وراء هذا المقتول أمة بأسرها، بما فيها حاكمها المستكبر المدعي للألوهية؟!

٢ ـ ولا ندري كيف حكم هذا البعض على موسى «عليه السلام» أنه حين قتل القبطي كان ضالاً لا يعرف قواعد الشريعة؟!

مع أن هذا البعض قد فسر قوله تعالى: **(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)** (٢) ـ في مسألة قتل الغلام مع العبد الصالح بحضور موسى ـ بأنه قتل النفس أمر ينكره العقل والشرع والعرف، الأمر الذي يبطل كلامه هنا.

ألم يكن موسى «عليه السلام» على علم بشريعة إبراهيم التي

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ٧٤ من سورة الكهف.

كان البشر كلهم مطالبين بالعمل بها؟!

ولنفترض: أنه لم يكن على علم بتفاصيل أحكام الشريعة الربانية، فهل كان ما فعله من الأمور الغامضة، التي تحتاج في الإقدام عليها إلى معرفة تفاصيل الشريعة؟!

وهل كان يحتمل أحد: أن تأبى الشريعة قتل هذا الكافر المحارب المتعدي على الأبرياء، والذي يحاول قتلهم؟!

٣ ـ كيف عرف هذا البعض: أن موسى «عليه السلام» قد ارتكب قبل النبوة ما لا يفعله بعدها؟! فإن هذا الحكم الجازم ليس له ما يبرره! كما أن هذا مخالف لما عند الشيعة الامامية من أن النبي معصوم مطلقاً قبل البعثة وبعدها.

٤ ـ ومن أين عرف: أن موسى «عليه السلام» لم يكن نبياً من أول أمره؟!

٥ ـ ومن أين عرف أيضاً: أن قتل القبطي لم يكن ضروريا حتى أدركه هو، ولم يدركه موسى آنذاك؟!.

٦ ـ ومن أين استنتج: أن قتل القبطي عائد إلى وجود ضعف بشري لدى موسى «عليه السلام» قبل نزول النبوة، ثم استنتج من ذلك بطلان ما يذهب إليه البعض من تنزيه الأنبياء عن أي ضعف بشري قبل النبوة وبعدها؟!

وهل هذه إلا دعوى ليس لها ما يبررها، لا من عقل ولا من نقل؟!

كما أنه هو نفسه يصرح في نفس كتابه «من وحي القرآن» بأن كل ما كان يريده موسى هو أن يدافع عن الذي من شيعته، ويخلصه من بين يدي القبطي، فحصل القتل منه من دون قصد.

إذن، فلم يكن في الأمر جريمة ناتجة عن ضعف بشري ولا غيره..

٧ ـ وأخيراً، فإن هذا البعض يجوّز على الأنبياء أن يرتكبوا جرائم قبل النبوة حتى بمستوى قتل النفس البريئة، وفقاً لما احتمله في كتابه في هذا المورد بالذات، وهذا أمر مرفوض في عقائد الشيعة الإمامية كما هو معلوم، إذ قتل النفس المحترمة هو من الكبائر التي توعّد الله فاعلها بالنار؟!

٣٣٣ ـ غريزة الفضول لدى موسى «عليه السلام».

٣٣٤ ـ لا دليل على ضرورة علم النبي بما لا يتصل بمسؤولياته من علوم الحياة والإنسان.

٣٣٥ ـ يمكن أن يكون لمن لا يعلم بعض الأمور حق الطاعة على العالم بأمور أخرى.

٣٣٦ ـ القرآن لا يتحدث عن الأنبياء، من خلال الكمال القريب من المطلق.

٣٣٧ ـ القرآن لا يتحدث عن الأنبياء من خلال الأسرار الخفية.

٣٣٨ ـ موسى استعجل المعرفة قبل توفّر عناصر النضوج لديه.

٣٣٩ ـ استعجال موسى من شأنه أن يحوّله إلى إنسان سطحي في

تفكيره.

يقول البعض:

«..ولكنّ هنالك رأياً، يقول: إن العقل لا يفرض، في مسألة القيادة والإمامة والطاعة، إلا أن يكون الشخص الذي يتحمل هذه المسؤوليات محيطاً بالجوانب المتصلة بمسؤولياته، فيما لا يحيط به الناس إلا من خلاله.. أما الجوانب الأخرى من جزئيات حياتهم العامة، أو من مفردات علوم الحياة والإنسان، أو من خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية، أمَّا هذه الجوانب فلا دليل على ضرورة إحاطته بها.. ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها، على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها ولا تتعلق بحركة المسؤولية..

وربما كانت هذه القصّة دليلاً على صحة هذا الرأي الذي نميل إليه، كما يميل إليه بعض العلماء القدامى.. لأنه يلتقي بالجو القرآني الذي يتحدث عن الأنبياء بطريقة معينة بعيدة عما اعتاده الناس في نظرتهم إليهم من خلال الأسرار الخفيّة، والكمال القريب من المطلق.»

إلى أن قال:

«..**(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)** [(١)] مما قد ترى فيه

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الكهف.

انحرافاً عن الموازين التي تزن بها الأمور على أساس ما تراه قاعدة للشرعية أو فيما تتصوره منسجماً مع طبيعة الواقع الذي تخضع في تقييمك له، لرؤية معينة.. الأمر الذي يجعلك تنتفض وتحتج وتستثير فضولك لتطرح السؤال تلو السؤال لتتعرف طبيعة المسألة، لأن الإنسان الذي رُكّب تكوينه على أساس غريزة الفضول، فيما أراده الله من إثارة قلق المعرفة في ذاته كسبيل من سبل الحصول عليها، أو الذي يملك قاعدة معينة للتفكير، قد تختلف عن غيره، لا بد له أن يعبّر عن موقفه بطريقة متوترة لا تملك الصبر على ما يواجهه من علامات الاستفهام، أو على ما يراه من مظاهر الإنحراف.. ولكن موسى يصرّ على الحصول على شرف مرافقته، لأن الله يريد له ذلك، فهو مأمور باتباعه.

(قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا) فيما يصبر عليه طالب المعرفة من الجهد النفسي والعملي الذي يتحمله في سبيل الحصول عليها.. إنه العزم الذي يتحرك في إرادتي التي لا أضمن امتدادها في خط الإلتزام العملي إلا بمشيئة الله، فيما يقدّره من أسباب، وفيما يخلقه من ظروف، وفيما يثيره في حياتي من أفكار ومشاعر، قد تغير العزم، وتسقط الالتزام، إن القضية هي أني أعدك بالصبر، فسأكون صابراً، أتحمل كل النوازع الذاتية الصعبة **(وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)**(١)

(١) الآية ٦٩ من سورة الكهف.

كما هو دور التلميذ مع أستاذه الذي يثق بكفاءته وحسن تقديره للأمور، وإخلاصه في سبيل رفع مستواه.

ولكن العبد الصالح يريد أن يحدد المسألة في دائرة محددة في خط الأسلوب العملي للمعرفة.. فهو لا يريد أن يبادر تلميذه بالمعرفة، ولا يريد له أن يبادره بالسؤال.. بل يريد له أن يتأمل، ويثير الفكرة في داخله، ويحاول أن يحصل على طبيعة التعمّق في القضايا من خلال المعاناة الفكرية التي تمنحه قوّة عقلية متقدمة، كما يريد له أن يحصل على ملكة الصبر في مواجهة المشاكل الفكرية المعقدة، فلا يستعجل الوصول إليها قبل توفر عناصر النضوج لديه فيتحول إلى إنسان سطحي في تفكيره..

(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ) مما لم تعرف وجهه، ولم تحط بخفاياه **(حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)**(١)، وأبدأ حواري معك، عندما تحين اللحظة المناسبة، التي أرى فيها المصلحة للحديث عن الموضوع معك.. وهذا هو شرطي الوحيد الذي أضعه أمامك للموافقة على أن تصاحبني في هذا الطريق»(٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الكهف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٤ ص٣٨٦ ـ ٣٨٩.

١ ـ إن موسى «عليه السلام» لم يسأل العبد الصالح انطلاقاً من غريزة الفضول لديه، بل انطلاقا من الإحساس بالتكليف الشرعي القاضي بعدم السكوت على ما يخالف أحكام العقل والفطرة والدين. ولو بحسب الظاهر، فبادر إلى السؤال ليستطيع على ضوء ذلك أن يحدد موقفه الشرعي.

وهذا الأمر هو الذي أعطى موسى «عليه السلام» وسام الإستحقاق لمقام النبوة، فإنه قد نجح في الامتحان الذي استهدف تجسيد مدى حساسيته تجاه قضايا الحق والدين.

٢ ـ إن اتهام نبي من أنبياء الله بأنه يتخذ مواقفه من خلال تحرّك غريزة الفضول لديه ناشئ عن عدم الاهتمام باحترام مقام الأنبياء في مقام الخطاب والحديث عنهم، وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلا.

٣ ـ إن ما استقربه من أنه لا دليل على لزوم معرفة النبي بأكثر مما يتصل بمسؤولياته في القيادة والإمامة والطاعة.

وأنه يمكن أن يكون هناك من هو أعلم من النبي في مفردات علوم الحياة والإنسان.

إن ذلك مما لا مجال لقبوله منه، وذلك لوجود أحاديث متواترة في مجالات مختلفة تدل على خلاف هذا الكلام. ففي الكافي (كتاب الحجة)، وفي بصائر الدرجات، وفي البحار طائفة كبيرة جداً من هذه الأحاديث فليراجعها من أراد، وتلك هي الدليل القاطع على عدم صحة هذه المقولة.. وسيأتي حين الحديث عن الولاية التكوينية للمعصوم ما

يفيد في هذا المجال..

٤ ـ أما قوله: «إن استعجال موسى «عليه السلام» بالسؤال يحوله إلى إنسان سطحي في تفكيره».

فلو صح لمنع من مبادرة الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء وغيرهم إلى طرح أسئلتهم في مختلف المجالات، لأن ذلك يحولهم إلى سطحيين، مع أن من يراجع آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يجد أن الأمر قد جرى منهم على خلاف هذا التوجيه، حيث نراها زاخرة بالأسئلة منهم «عليهم السلام» في مختلف الشؤون، ولم يتحولوا بسبب ذلك إلى أناس سطحيين.

٥ ـ لا ندري من أين عرف هذا البعض: أن موسى «عليه السلام» قد استعجل المعرفة قبل توفّر عناصر النضوج لديه. فهل دله على ذلك آية أو رواية؟ أم أنه كان حاضراً وناظراً آنذاك؟! أم هو الاستيحاء، والتظني الذي لا يقوم به حجة، ولا يستند إلى برهان؟ أم ماذا؟!.

هذا مع الإغماض عما ذكرناه آنفاً من أن تكليف موسى «عليه السلام» كان هو المبادرة إلى السؤال، ولولا ذلك، لم ينل «عليه السلام» هذا المقام العظيم..

ولعل هذه هي الحكمة في إرساله «عليه السلام» إلى العبد الصالح، أو أنها أحد عناصر حكمة ذلك.

٣٤٠ ـ شخصية موسى غير متوازنة.

٣٤١ ـ موسى «عليه السلام» يعاني من عقدة نفسية ذاتية.

٣٤٢ ـ موسى ارتكب ذنبا أخلاقياً.

٣٤٣ ـ قتل القبطي خطأ أخلاقي مبرر بطريقة ما.

٣٤٤ ـ مغفرة الله لموسى لطف في توازن الشخصية لا عفو عن ذنب.

ويقول عن موسى «عليه السلام» في موضوع قتله القبطي:

«..كان كل همه أن يدافع عن الإسرائيلي ويخلّصه من بين يدي القبطي الذي كان يريد أن يقتله، فيما يبدو.. وبهذا لم يكن في الأمر جريمة، بل كان الدخول شرعياً، ولم تكن النتيجة مقصودة له.. ولكنه كان يفضّل أن لا يحدث ما حدث.. وبذلك كان يرى في ذلك نوعاً من الذنب الأخلاقي، أو الاجتماعي الذي يحسّ بالعقدة الذاتية منه.. وعلى ضوء هذا كان التعبير بأنه ظلم للنفس، تعبيراً عن الحالة الشعورية أكثر مما كان تعبيراً عن حالة المسؤولية وربما كان تعبيراً عن القلق من النتائج الواقعية السلبية التي يمكن أن تترتب على ذلك في علاقاته الاجتماعية بمحيطه فيما يحمله من أخطار مستقبلية على شخصه بالذات. أما طلب المغفرة من الله، فقد يكون ناشئاً من الرغبة الروحية العميقة للإنسان المؤمن، أن يضع أعماله بين يدي الله، حتى التي لا تمثل انحرافاً عن أوامره ونواهيه.. بل تمثل نوعاً من الخطأ الأخلاقي المبرر بطريقة ما، ليحصل على لمسة الرحمة الإلهية العابقة بالحنان والعطف، فيبلغ ـ من خلال عصمته له ـ الكمال في سلوكه، والتوازن

في أخلاقه.. مما يجعل من المغفرة لطفا في توازن الشخصية لا عفواً عن ذنب.. وهكذا كان اللطف الإلهي بموسى.. فيما يعلمه الله من حاله في ظرفه الواقعي مما يحقق له الكثير من العذر في حساب المسؤولية **(فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** (١)، الذي تتحرك مغفرته من عمق رحمته لتفيض على الإنسان الراجع إليه بكل خير وإحسان» (٢).

وقفة قصيرة:

إن ما ذكره هذا البعض لا يحتاج إلى تعليق، ولكننا نرشد القارئ الكريم إلى ما شرحنا به الآيات التي تحدثت عن قتل القبطي فيما تقدم من هذا الكتاب فليراجع.

غير أن ما يحزّ في النفس ألمه، ويدمي كَلْمُه أمور:

١ ـ أن ينسب إلى موسى «عليه السلام» وهو كليم الله ونبي من أولي العزم يقول تعالى في حقه **(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)** (٣) ـ ينسب إليه ـ أنه ارتكب ذنباً أخلاقياً.

٢ ـ وأنه كان يحس بالعقدة الذاتية منه!!.

٣ ـ والأغرب من ذلك: أن يصرح في كلامه: أن شخصية هذا النبي العظيم غير متوازنة فاحتاج إلى اللطف الإلهي لتتوازن

---

(١) الآية ١٦ من سورة القصص.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٧ص٣١١.

(٣) الآية ٤١ من سورة طه.

شخصيته.

٤ ـ ويبقى هنا سؤال حول الطريقة المجهولة التي أشار إليها والتي تبرر وقوع موسى «عليه السلام» في الخطأ الأخلاقي المتمثل في قتله للقبطي.

٥ ـ وأي خطأ أخلاقي في قتل الإنسان لرجل يهاجمه ويحاربه ويبطش بالناس ليقتلهم، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون، وهو كافر وعدو؟!.

٦ ـ بل إن هذا البعض نفسه قد صرح في كلامه بأن موسى «عليه السلام» لم يقصد قتل القبطي، فأي خطأ أخلاقي صدر عن موسى «عليه السلام» إذن؟!.

٣٤٥ ـ خوف موسى كان بسبب الضعف البشري الذي كان يعيشه في حالات الغفلة.

٣٤٦ ـ كاد موسى أن يتأثر بسحرهم من خلال طاقته البشرية.

ويقول البعض:

«..وكانوا يملكون الفن العظيم الذي يسحر العيون ويخلب الألباب حتى كاد موسى أن يتأثر بها من خلال طاقته البشرية.. وطاف به خيال الإنسان الذي يتأثر بسرعة، بما يحيط به فخيل **(إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)**(١) في صورة سريعة متلاحقة، **(فَأَوْجَسَ فِي**

(١) الآية ٦٦ من سورة طه.

نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) (١) من خلال الضعف البشري الذي يعيشه الإنسان في حالات الغفلة.. لا سيما أن موسى لا يعرف ماذا يحدث له من خلال التفاصيل الجزئية لأن المسألة ليست اختيارية له، بل هي مسألة التدبير الإلهي الذي يثق بحصوله، ولكنه لا يعرف طبيعته.. ولذا فانه كان ينتظر نداء الله وتعليماته » (٢).

وقفة قصيرة:

إن من الواضح: أن موسى «عليه السلام» لم يخف على نفسه، فإنه كان يعلم أنها حبال وليست حيات حقيقية، كما أنها احتيالات وتخييلات لا واقع لها. **(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)** (٣).

وإنما خاف «عليه السلام» على الناس أن يتأثروا بسحرهم، وأن يتسبب ذلك بضلالهم عن الحق، وابتعادهم عن سبيل الرشاد والهدى.

ولذلك نجد الآيات القرآنية تشير إلى أن الله تعالى قد طمأن موسى إلى حقيقة أن الله سيبطل سحرهم وكيدهم، ويكون موسى «عليه السلام» هو الغالب، حيث قال الله تعالى له: **(لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)** (٤).

---

(١) الآية ٦٧ من سورة طه.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٥ص١٣٥ و ١٣٦

(٣) الآية ٦٦ من سورة طه.

(٤) الآية ٦٨ من سورة طه.

إذن، فموسى «عليه السلام» قد خشي من أن تكون الغلبة لهم، وأن يكون لهم العلوّ الذي سينشأ عنه غواية الناس عن طريق الحق والهدى.

وبذلك يتضح أيضاً: أن خوف موسى «عليه السلام» لم يكن ناشئاً عن ضعف طاقته البشرية، بل كان خائفاً على الناس كما قلنا.

وعن علي «عليه السلام»: «لم يوجس موسى «عليه السلام» خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال، ودول الضلال»(١).

٣٤٧ ـ نقاط ضعف طبيعية ونقاط ضعف انفعالية أيضاً.

٣٤٨ ـ بشرية النبي قد تدفعه إلى نقاط الضعف الطبيعية.

٣٤٩ ـ قد يغفل النبي عن بعض المناسبات الشكلية أو المعنوية.

٣٥٠ ـ موسى «عليه السلام» ينساق مع نقاط الضعف الانفعالية.

ويقول البعض:

«لنا ملاحظة في موقف موسى من هارون:

ولنا ملاحظة، في هذا الموقف الذي انطلق فيه موسى ضد أخيه، من موقع غضبه لله وانفعاله بالوضع الجديد الذي عاش فيه بنو إسرائيل مبدأ الصنمية..

إننا لا نجد في موقفه هذا ابتعاداً عن خط الطاعة لله ليكون منافياً للإستقامة الشرعية في دائرة العصمة، ولكننا نجد فيه انسياقا مع نقاط

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤

الضعف الإنفعالية التي توحي بأن بشرية النبي قد تدفعه إلى نقاط الضعف الطبيعية التي قد يغفل فيها عن بعض المناسبات الشكلية أوالمعنوية (**قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**)؟! [(١)] . كيف فعلت ما فعلته من هذا الأمر الخطير الذي جئت به؟! وهذا هو معنى الخطب الذي هو الأمر الخطير الذي يهمك (**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا**) [(٢)] » [(٣)] .

وقفة قصيرة:

قد تحدثنا فيما مضى من هذا الكتاب عن أن غضب موسى «عليه السلام» لم يكن على أخيه هارون صلوات الله وسلامه عليه، بسبب جرم ارتكبه، أو تقصير منه في القيام بالواجب، وإنما كان من أجل أن يعرّف بني إسرائيل بخطر ما أقدموا عليه، وبمدى بشاعة الجريمة التي ارتكبوها.. ثم هو قد أراد أن يسمع الناس إجابة هارون «عليه السلام» من أجل إظهار براءته وتحصينه من نسبة القصور أو التقصير إليه، وتكون النتيجة هي التالية:

١ ـ لم يكن موسى «عليه السلام» يقف ضد أخيه.

٢ ـ إن موسى «عليه السلام» لم يغفل عن بعض المناسبات

---

(١) الآية ٩٥ من سورة طه.

(٢) الآية ٩٦ من سورة طه.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٥ ص١٥٦.

الشكلية ولا المعنوية ـ كما يقول هذا البعض ـ بل كانت الأمور واضحة لديه وضوحا تاما، لا سيما ان المسألة هي من جملة ما يتعلق بأمر التبليغ الذي ليس لمسلم أن يشكك في القول بعصمة الأنبياء فيه.

٣ ـ إن موسى «عليه السلام» قد انساق مع نقاط القوة، وحقق الهدف الإلهي، ولم يكن لديه نقاط ضعف انفعالية لينساق معها.

وإن نسبة ذلك كله وسواه إلى هذا النبي العظيم هي مجرد تبرّع من هذا البعض لا مستند له فيه، فضلا عن كونه مخالفاً للقواعد العقلية الصحيحة، وليست الآيات ظاهرةً ولا ناظرة في شيء من معانيها إلى شيء مما ذكره.

٣٥١ ـ رأي موسى «عليه السلام» يخالف ما قرره الله له.

٣٥٢ ـ موسى «عليه السلام» يقول لربه: لا فائدة من إرسالي لأن النتيجة معلومة.

٣٥٣ ـ إحتباس كلام موسى «عليه السلام» يمنعه من الحوار والجدال بالكلمات القوية.

٣٥٤ ـ إحتباس كلام موسى «عليه السلام» يمنعه من الأسلوب اللبق.

٣٥٥ ـ موسى «عليه السلام» يعاني من نقص في الصفات التي يحتاج إليها.

ويقول هذا البعض:

«..**(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)** (١)، لأنني أعرف فيهم الطغيان الذي يمنعهم من الإذعان بالرسالة ويدفعهم إلى احتقار الناس من حولهم، ممن هم دونهم في الطبقة الاجتماعية، الأمر الذي يدعوهم إلى تكذيبي فيما أبلّغهم من رسالاتك.. فلا فائدة من إرسالي إليهم لأن النتيجة معلومة بالرفض **(وَيَضِيقُ صَدْرِي)** في مواجهة الضغط الذي أتعرض له منهم، مما لا أستطيع تحمّله في قدرتي الذاتية **(وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)** فيما أعانيه من حالات احتباس الكلام، مما لا يسمح لي المجال معه بالحوار والجدال، وإدارة الصراع بالكلمات القوية، والأسلوب اللبق **(فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)** (٢)، ليكون عوناً لي على أداء الرسالة، لما يتميز به من صفات تسد النقص الذي يعاني منه كفصاحة اللسان ونحوها **(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ)** فقد قتلت شخصا منهم **(فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)** (٣) ثأراً له» (٤).

وقفة قصيرة:

إن هذا البعض قد لا يكون الوحيد الذي فسر الآيات بهذه الطريقة. ولكننا نسجل عليه وهو داعية دراسة الأمور بعقلانية وموضوعية، ما

---

(١) الآية ١٢ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ١٤ من سورة الشعراء.

(٤) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٧ص١٠٢ و ١٠٣.

يلي:

١ ـ **إن هذا البعض يقول:** إن احتباس الكلام لدى موسى كان إلى درجة لا يسمح له بإدارة الصراع بالأسلوب اللبق.

كما أن هذا الإحتباس قد بلغ حداً لا يسمح له بالحوار والجدال.

ولا ندري كيف استطاع «عليه السلام» أن يحاور فرعون حينما واجهه بالدعوة التي انتهت بجمع السحرة في يوم الزينة؟! وكيف استطاع أن يحاور بني إسرائيل في شأن البقرة وغيرها؟! بل كيف استطاع تأدية الرسالة التي بعث من أجلها لا سيما إن هارون الذي أرسل ليسد النقص الموجود عند موسى ـ كما يزعم هذا البعض ـ قد توفي قبل موسى «عليه السلام»، فماذا صنع موسى «عليه السلام» بنقصه الذي يعاني؟! ومن الذي قام مقام هارون في هذا الأمر؟!

٢ ـ هذا بالإضافة إلى أن هذا البعض يتحدث عن موسى «عليه السلام» ويصوره لنا كأنه يعترض على الله، ويدلّه على أنه غير مصيب في إرساله، لأن ذلك سيكون أمراً عقيماً، وعبثياً، ومن دون فائدة. فانظر إلى قول هذا البعض:

«إنني أعرف فيهم الطغيان.. مما يوحي: بأن سبب مبادرة موسى باقتراح إرسال أخيه معه هو معرفته بطغيانهم ».

وكأن الباري تعالى لا يعرف ذلك.

٣ ـ مع أن موسى «عليه السلام» حين تحدث عن خوفه من تكذيبهم، وعن أن صدره يضيق بهذا التكذيب، وأن لسانه لن ينطلق

معهم في البيان لأنهم سيتعاملون معه من موقع المعادي والحاقد، الذي لا يصغي إلى الحجة، ولا يخضع للدليل..

نعم.. إن موسى «عليه السلام» حين تحدّث عن ذلك، فإنما أراد به أن يعرف من الله سبحانه أوجه معالجة الموقف في هذه الحالات والظروف الصعبة، ولا يريد أن يعرّف الله ـ والعياذ بالله ـ أن إرساله لا فائدة منه، لأن النتيجة معلومة على حد زعمه.

٤ ـ أما بالنسبة لاحتباس لسان موسى «عليه السلام»، إن المراد ليس هو اللكنة في اللسان، التي تمثل عائقا عن الإفصاح في الكلام، بل المراد هو أن قتل القبطي، وكونه قد تربى عندهم سيجعلهم يتعاملون معه بطريقة حاقدة وغير عقلانية تمنعه من الإفصاح عن مراده ولذا فهو يطلب من الله أن يهديه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع هذا الواقع الذي يواجهه.

على أن هذا الإحتباس، لا ربط له باللباقة، وبالأسلوب، كما هو معلوم.

وسيأتي المزيد من توضيح هذا الأمر فيما يرتبط بالعقدة في لسان موسى «عليه السلام» في تعليقنا على الفقرة التالية.

٣٥٦ ـ القرآن يوحي بما لا يتفق مع كون النبي أعلم الناس وأشجعهم وأكملهم في المطلق.

٣٥٧ ـ الرسالة تتصل بحركة الكلام في لسانه، وطريقة التعبير في كلامه.

٣٥٨ ـ ضعف موسى في طبيعة الكلمة، والمنهج، والأسلوب، وقوة هارون في ذلك.

٣٥٩ ـ لكنة في لسان موسى تؤدي إلى ضعف موقفه.

٣٦٠ ـ نقاط ضعف بشري تتحرك بشكل طبيعي في شخصية النبي، حتى في مقام حمل الرسالة.

٣٦١ ـ لكنة موسى تمنعه عن إفهام ما يريد للناس.

٣٦٢ ـ الجانب الغيبي لا يتدخل في تضخيم شخصية النبي على حساب بشريته العادية.

٣٦٣ ـ اللكنة في لسان موسى تثير السخرية ونحوها.

وبعد ما تقدم نقول:

يتحدث البعض عن طلب موسى من الله أن يشد عضده بأخيه هارون، فكان مما لاحظه في هذه القصة ما أجمله بقوله:

«..**(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي)** (١)، فقد كان يعيش حبسا في لسانه بحيث يمنعه من الطلاقة التي تفصح الكلمة بحيث يفهم الناس ما يريد أن يقوله.. لأن الرسالة تتصل بحركة الكلام في لسانه، وطريقة التعبير في كلامه.

وتلك هي مشكلته الخاصة التي أراد الله أن يساعده في حلها وترويضها وتيسيرها وتسهيل صعوباتها.. فيما يريد أن يمارسه

(١) الآيتان ٢٧ و ٢٨ من سورة طه.

بجهده الذاتي **(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)**[(١)] . لأن المهمة تحتاج إلى جهد آخر يشترك مع جهده في الدعوة والحركة والانطلاق.. ليعاون أحدهما الآخر فيما يمكن أن يواجههما من مشاكل وقضايا وصعوبات، خصوصا في جانب الدعوة في طبيعة الكلمة والمنهج والأسلوب، الذي يتمتع هارون بمميزات جيدة لأن لسانه أفصح من لسان موسى، كما جاء في سورة أخرى.. وتلك هي الروح المتواضعة الجادة التي تدرس حجم المسؤولية، وحجم إمكاناتها فإذا رأت بعضا من الخلل الذي قد يصيب المسؤولية أمام ضعف الإمكانات، فإنها لا تتعقد ولا تهرب من الواقع لتلجأ إلى الذات في عملية استغراق في الإيحاء بالقدرة الشاملة غير الموجودة لينعكس ذلك سلباً على حركة الموقف العملي، بل تعمل على أن تستكمل القوة من جانب آخر لمصلحة العمل المسؤول.. وهذا هو ما فعله النبي موسى «عليه السلام» عندما أراد من الله أن يضيف إليه شريكاً في أمره، لأنه يعيش بعض نقاط الضعف التي يملك فيها هارون نقاط قوة..

وهذا هو الذي يوجب على العاملين في سبيل الله، أن يواجهوه فيما يتحملونه من مسؤوليات ليعملوا على الإخلاص للدور العملي في استكمال كل الإمكانات التي يحتاجها، ولو كانت لدى الآخرين.. لأن

---

(١) الآيات ٢٩ ـ ٣٢ من سورة طه.

ما نعانيه في ساحة العمل، هو أن بعض العاملين قد يدفعهم الشعور الأناني بالعظمة الفارغة، فيسيئون إلى مسؤولياتهم للحفاظ على ذواتهم لأنهم لا يريدون الاعتراف بالحجم المحدود لقدراتهم، وبالإمكانات المتوفرة لدى الآخرين» (١).

ويقول البعض أيضاً:

«وقد نلاحظ في هذه القصة: أن النبوة لا تتنافى مع الضعف البشري الذي يعيشه النبي ويعترف به، فيطلب إلى الله أن يقويه بإنسان آخر في أداء مهمته لا بواسطة تنمية قدراته الذاتية.. مما يوحي: بأن الجانب الغيبي لا يتدخل في تضخيم شخصية النبي على حساب بشريته العادية، بل يترك المسألة للطبيعة البشرية لتتكامل بطريقة عادية..

وهذا ما قد يحتاج إلى مزيد من الدراسة فيما يطلقه علماء الكلام فيما يتصل بصفات النبي، بأن يكون أعلم الناس وأشجعهم وأكملهم في المطلق.. فإن تأكيد القرآن على نقاط الضعف البشري في شخصية الأنبياء، لا سيما في شخصية موسى «عليه السلام» قد توحي بما لا يتفق مع ذلك» (٢).

ويقول أيضاً:

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ ص١٠٨ ـ ١١٠

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ص ١١٠ و ١١١.

«..وهناك نقطة أخرى: وهي أن الرسالة تفرض الدخول في جدل مرير مع هؤلاء القوم يمكن أن يثيروه من شبهات، أو يطالبوه بالحجة، فيحتاج إلى التحدث بطريقة مقنعة حاسمة، بلسان فصيح.. وهذا ما لا يملكه موسى لِلّكْنة كانت في لسانه، مما يؤدي إلى ضعف موقفه الذي ينعكس سلباً، على موقف الرسالة فيما قد يثيره ذلك من سخريةٍ ونحوها..

لذلك كان بحاجة إلى شخص آخر يشاركه المسؤولية، ليواجه مثل هذا الموقف الطارئ معه، أو ليكون بديلا عنه في مقارعة الحجة بالحجة.. ولهذا فقد أراد أن يكون أخوه هارون معه (**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا**). أي ناصراً ينصرني ويشد ظهري «يصدقني» ويشرح بفصاحته مواقع الصدق في رسالتي، ومواطن القوة في موقفي، (**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**) (١)، فيفرض ذلك عليّ الدفاع والجدال حول مفاهيم الرسالة ومواقعها» (٢).

ونجد هذا البعض يقول أيضاً في موضع آخر في تفسير قوله تعالى (**إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى**) (٣):

«ونلاحظ في هذه الآية الإشارة إلى ما يعيشه النبي من نقاط

---

(١) الآية ٣٤ من سورة القصص.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٧ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨.

(٣) الآية ٤٥ من سورة طه.

الضعف البشري التي تتحرك في شخصيته بشكل طبيعي، حتى في مقام حمل الرسالة.. فيتدخل اللطف الإلهي من أجل أن يمنحه القوة الروحية التي تفتح قلبه، بعمق على التأييد الإلهي في أوقات الشدة الأمر الذي يعطي الفكرة بأن النبي يتكامل في وعيه وقوته وحركته في الرسالة..»(١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

إننا رغم أننا لم نذكر في العناوين المستخرجة من كلام هذا البعض ما ذكره عن الضعف البشري في شخصية الأنبياء، فإننا نذكّر القارئ الكريم بما يلي:

١ ـ إن هذا البعض قد فسّر الآيات بطريقة أوصلته إلى أن ينسب إلى الأنبياء ما ألمحنا إليه في العناوين التي صدّرنا بها كلامه هذا الأخير..

ونحن نذكر هنا ما يشير إلى المراد من أفصحية هارون «عليه السلام»، ليظهر للقارئ: أن الآية ليست ناظرة إلى موضوع طلاقة اللسان من الأساس..

ولو سلمنا أنها ناظرة إلى طلاقة اللسان من حيث البلاغة والفصاحة الكلامية، فذلك لا يستلزم ما ذكره ذلك البعض.

---

(١) من وحي القرآن ج١٥ ص١١٩.

ونحن نشرح ذلك ضمن النقاط التالية، فنقول:

ألف: لقد طلب موسى «عليه السلام» من الله أن يشد عضده بأخيه هارون «عليه السلام». وهو طلب طبيعي، ليس فيه أية مشكلة، وهو لا يعني وجود نقص في شخصية النبي موسى «عليه السلام» يحتاج إلى رفعها بواسطة الاستعانة بهارون «عليه السلام»، ويدل على ذلك: ما روي من أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد طلب أيضاً مثل ذلك من الله تعالى فقال «صلى الله عليه وآله»: واجعل لي وزيرا من أهلي، علياً أخي، أشدد به أزري..

وقد صحت الرواية بذلك من طريق الفريقين على حد تعبير صاحب الميزان [(١)].

«..وعن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإزاء ثبير وهو يقول: أشرق ثبير، أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى: أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، وأن تجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي. أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً» [(٢)].

فالمراد من الأمر في قول موسى «عليه السلام»: **(وَأَشْرِكْهُ فِي**

---

(١) تفسير الميزان ج١٤ص١٤٧.

(٢) تفسير البرهان ج٣ص٣١ وتفسير الثقلين ج٣ص٣٧٦.

أمْرِي) [(١)] . غير النبوة، بدليل أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» دعا الله بأن يشرك علياً «عليه السلام» أمره مع أن علياً ليس نبياً قطعاً، بل المراد هو آثار النبوة، كافتراض الطاعة وغير ذلك والله العالم.

ب: كما أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد طلب من الله سبحانه حل العقدة من لسانه حيث قال: **(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي)** [(٢)] . مع أن ذلك لم يكن لقلة فصاحة فيه، ولا لعقدة أو لكنة في لسانه، ولا لكون علي «عليه السلام» أفضل منه، وهو القائل «صلى الله عليه وآله»: «أنا أفصح من نطق بالضاد».

وهذا يشهد بأن المراد من الفصاحة في دعاء موسى «عليه السلام» ليس هو المعنى الذي يذكرونه في علم المعاني والبيان، وإلا لما صح أن يدعو به أفصح من نطق بالضاد، فالمراد إذن، شيء آخر: وهو أنه أكثر انطلاقاً في الحديث معهم حيث لم يقتل منهم رجلاً من عدوه كما فعله أخوه موسى «عليه السلام»، بالإضافة إلى جدالهم في أمر إحسانهم لموسى وتربيتهم له «عليه السلام» وليداً كما ذكر الله تعالى حكاية ذلك في قوله: **(..أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** [(٣)] .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة طه.

(٢) الآيتان ٢٧ و ٢٨ من سورة طه.

(٣) الآيتان ١٨ و ١٩ من سورة الشعراء.

وهكذا يتضح: أن ذلك لا ينافي كون موسى «عليه السلام» أعلم الناس وأكملهم وأشجعهم كما يقول هذا البعض.

٢ ـ وحتى لو سلمنا ـ جدلاً ـ بأفصحية هارون من الناحية الكلامية، ولم نحمل كلامه على ما ذكرناه آنفاً، أو على أن ذلك كان منه تواضعاً وهضماً للنفس، فلا مشكلة في ذلك، لأن هذه الآية نفسها تثبت صفة الفصاحة لموسى «عليه السلام» أيضاً غير أنه يمهد للحصول على مطلوبه وهو أن يكون أخوه هارون وزيراً له. وأين هذا مما ذكره هذا البعض من كون لكنة موسى تمنعه من إفهام ما يريده للناس، الأمر الموجب للنقص في الصفات التبليغية المتوجب توفرها في المبلغ لدين الله.

فأفصحية هارون «عليه السلام» كمال له، وفصاحة موسى «عليه السلام» لا تعتبر نقصاً، ولا تضر في أفضلية موسى «عليه السلام»، حيث إن ملاك الأفضلية هو التقوى الناشئة عن العلم والتي تقترن بالعمل.

وأما بالنسبة للصفات الجسدية ونحوها فقد ذكر العلماء أن المطلوب هو الكمال وعدم النقص، وهذا متحقق في موسى «عليه السلام».

ثم إن هذه الأفصحية قد حازها نبي بالقياس إلى نبي آخر، لا أنها ثابتة لشخص عاديّ بالقياس إلى النبي، ليقال: لا بد أن يكون النبي أكمل من سائر الناس. فموسى وهارون «عليه السلام» أكمل أهل

زمانهما لكن موسى أفضل عند الله وأكمل من أخيه في كثير من الصفات. فكما أن أكملية موسى «عليه السلام» لا تضر في نبوة هارون. كذلك أفصحية هارون ـ مع كون الفصاحة الكاملة موجودة عند موسى ـ لا تضر في نبوة موسى، ولا في أفضليته عند الله بمعرفته بالله سبحانه حتى على هارون نفسه. وإلا لكان الدعاء من الرسول «صلى الله عليه وآله» بدعاء موسى «عليه السلام» بلا معنى.

هذا كله، لو سلمنا ـ جدلاً ـ بأفصحية هارون «عليه السلام». فيتضح مما تقدم: أن ما ذكره ذلك البعض من ضعف بشري لدى الأنبياء، وأن موسى «عليه السلام» كان يعانى من حبس في لسانه يمنعه من الطلاقة المفهمة لمراده غير صحيح.

ملاحظة:

واللافت للنظر هنا: أن الله سبحانه قد اتخذ موسى كليماً، وأعطاه الكرامة عن سائر الأنبياء، فهل اختاره كليماً لأجل لكنته هذه تعويضاً له عما فيه من نقص؟! إن هذا الأمر عجيب حقاً، وأي عجيب!! وإذا كان هناك من احتمال آخر فليطلعنا عليه.

٢ ـ إنه إذا كانت مشكلة موسى «عليه السلام» هي في احتباس لسانه المانع له من الطلاقة المفهمة لمراده كما يقول البعض، فما هو ربط ذلك بالمنهج واللباقة في الأسلوب؟! ومن أين عرف أن منهج هارون «عليه السلام» وأسلوبه، كان أحسن من منهج وأسلوب موسى

«عليه السلام»؟! ومن أين علم أن موسى استعان بهارون كي لا يهزأ ولا يسخر منه قومه لعدم قدرته على افهامهم؟!

مع أن القرآن سجل لنا في تساؤل بني إسرائيل عند أمره لهم بذبح البقرة موقفاً معاكساً حيث اتهموه بأنه يهزأ بهم **(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)** (١).

٣ ـ إن قول موسى وهارون عن فرعون: **(إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)** (٢) لا يستلزم وجود نقاط ضعف بشري تتحرك في شخصية النبي بشكل طبيعي، حتى في مقام حمل الرسالة، كما يقوله ذلك البعض.

فإن معرفتهما بشخصية فرعون، ثم ذكرهما لما يحتمل أن يواجهاه معه، ليس معناه أنهما يعانيان من وجود ضعف في شخصيتهما. بل ذلك يعني: أنهما وهما يتحسبان لما سيواجههما به فرعون إنما يريدان إعداد العدّة لمواجهة أي احتمال.. وهذا هو غاية القوة في مقام حمل الرسالة..

فما هو نقاط قوة في الحقيقة أصبح ـ بنظر هذا البعض ـ نقاط الضعف في شخصية النبي التي تتحرك بشكل طبيعي حتى في مقام حمل الرسالة!!.

(١) الآية ٦٧ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٤٥ من سورة طه.

الفصل الرابع

يعقوب ويوسف ’

٣٦٤ ـ يعقوب والصدمة وتأثيرها المؤلم فيه.

٣٦٥ ـ يعقوب لم يفعل أي شيء يؤذي جسده.

٣٦٦ ـ العوارض الطبيعية هي التي أوجبت عمى يعقوب.

٣٦٧ ـ كان يعقوب يعيش الحزن الهادئ دون أن يؤثر على حياته.

٣٦٨ ـ ظنوا أن أباهم قد نسي يوسف..

يقول البعض:

«ولكن يوسف أصر على موقفه، وعادوا إلى أبيهم من دون أخيهم، وكم كان وقع الصدمة قاسياً على يعقوب «عليه السلام»، واجه الصدمة فأثرت به تأثيراً مؤلماً، لأنها أيقظت أحزانه وأثارت أشجانه وذكرياته، فتولى (**عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**)(١)، وهنا ربما يتساءل البعض ويقول: كيف يجزع يعقوب، وهو نبي؟ نجيب على ذلك بأنه «عليه السلام» لم يفعل أي شيء يؤذي جسده، ولكن كان يعيش الحزن الهادئ حيث ابيضت عيناه من البكاء كنتيجة طبيعية للعوارض التي أوجبت فقدان بصره، لذلك عندما قالوا له: (**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ**

---

(١) الآية ٨٤ من سورة يوسف.

حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) (١)، أجابهم: بأنه لا يشكو لهم، ولا يسبب أي مشكلة معهم **(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ)** (٢)، فلست إنساناً يشكو أمره للعباد، فالقادر على قضاء حاجتي، وتفريج همي وكربي هو الله، فيعقوب «عليه السلام» كان يملك الإحساس العميق بعدم اليأس، فوهبه الله معرفة أن يطل على المستقبل، لذلك على الرغم من مرور السنوات الطوال على غياب يوسف ومحاصرته بكثير من المشاكل بقي منفتحاً الخ.. (٣).

ويقول البعض أيضاً:

«..**(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)** (٤)، ورغم كل شيء فهو يحبس غيظه وحزنه في نفسه، ولم يتصرف تصرف الجازعين الذين يتمردون على إرادة الله، ولكنه يعطي للحزن دوره الهادئ في قلبه وإحساسه وشعوره، من دون أن يترك الحزن تأثيره على حياته وعلى دوره في رسالته وحركته في الحياة **(قَالُوا تَاللهِ)**، لقد فوجئوا بذكره ليوسف الذي يقال بأنه غاب عنهم مدة ثمانية عشر عاماً، وظنوا أن أباهم قد نسيه، لأن الذكريات الماضية تذوب وتزول وتذهب **(قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ)** أي لا تفتأ ولا تزال **(تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ**

---

(١) الآية ٨٥ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) حركة النبوة في مواجهة الإنحراف: ص ٢٥٣.

(٤) الآية ٨٦ من سورة يوسف.

حَرَضًا) أي مشرفاً على الهلاك قريباً من الموت **(أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)** (١). أو يؤدي بك ذلك إلى الهلاك **(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ)** أنا لا أشكو بثي وحزني إليكم، فأنا لا أشكو لبشر، وأنا عندما أتذكر يوسف وآسف على غيابه، فإنما أجلس في حالة مناجاة مع الله، ولذا فإني أرجع شكواي إلى الله وأقدم حزني بين يديه سبحانه، فهو الذي يملك إزالة حزني عني ويبدله إلى فرح، وعندما أعبر عن حزني فليس لإثارة الإشفاق علي من الناس، أو لأفرض حزني عليهم **(وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)** (٢) أعلم من الله أنه رحيم بعباده، فهو يعطي الأمل من قلب اليأس وهذا ما أعلمه من خلال معرفتي به تعالى، لذلك لم أفقد ثقتي بربي أو إيماني به، ولا أرى أن التعبير عن الحزن يتنافى مع استسلامي له، فالتعبير عن الحزن حالة إنسانية، والإستسلام إلى الله هو حركة هذه الحالة بين يدي الله حتى تعين الإنسان على أن ينفتح على المستقبل أكثر من خلال الله، لا من خلال غيره (٣).

وقفة قصيرة:

ونلاحظ:

---

(١) الآية ٨٥ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) حركة النبوة في مواجهة الانحراف ص٣٤١.

١ ـ من الواضح: أن الجزع المذموم والمرفوض من قبل الشارع هو الذي يستبطن الإعتراض على الله سبحانه حين يعتبر الجازع أن ما حدث يمثل ظلماً، وتعدياً وتصرفاً غير سديد.. كما أن من الواضح أيضاً: أن إظهار الحزن الشديد لا يستبطن الإعتراض على الله بحيث لا ينفك هذا الإظهار عن ذلك الإعتراض، إذ كثيراً ما ينطلق الجزع من حب الله ومن شدة الإهتمام بالحفاظ على الدين ورموزه الكبرى، وهذا يكون جزعاً ممدوحاً، ومحبوباً له تعالى، ومندوباً إليه، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق «عليه السلام»: «كل الجزع والبكاء مكروه سوى على الحسين»(١).

وقد روي عن الإمام الرضا «عليه السلام» أنه قال: «إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا الخ..»(٢).

وذلك يدل على أنهم «عليهم السلام» قد بكوا على الحسين حتى تقرحت جفونهم.. والقرح هو الجرح وذلك معناه: أنهم «عليهم السلام» قد فعلوا أمراً قد نشأ عنه أمر لم يكن ليجوز لهم في الحالات العادية تماماً كما بكى يعقوب على فراق يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن.

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص ٣١٣ وراجع: علل الشرائع ص ٢٦٤ ومصباح المتهجد، وغير ذلك.

(٢) الأمالي للصدوق ص ١١ المجلس ٢٧ ح ٢ والبحار ج٤٤ ص ٢٨٤.

وفي زيارة الناحية المقدسة: «ولأبكينك بدل الدموع دماً».

وذلك يدل على جواز فعل ما يؤدي إلى مثل الجرح والعمى، فلا معنى للمنع من ضرب الرأس بما يدميه تفجعاً على الحسين «عليه السلام»..

فإن عمى يعقوب وتقرح جفون الأئمة أعظم ضرراً من إدماء الرأس أو اللطم على سيد الشهداء «عليه السلام».

وعن اللطم بالخصوص نجد الإمام الرضا «عليه السلام» لا يعترض على دعبل حينما أنشد قصيدته. وقد جاء فيها:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات

إذن للطمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات

فلم يقل له: إن فاطمة لا تفعل ذلك، لأنه حرام. بل نجده ـ كما تذكر بعض الروايات ـ قد زاد له بيتين في قصيدته يؤكد: أن الحزن العظيم والمستمر إلى يوم القيامة عليه هو «عليه السلام». والبيتان هما:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة الحت على الأحشاء بالزفرات

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرج عنا الهم والكربات

كما أن النساء حين رأين جواد الحسين خرجن من الخدور.. على الخدود لاطمات، كما جاء في زيارة الناحية المقدسة.

وقد لطم النسوة خدودهن ليلة العاشر أمام الحسين «عليه

السلام»، فقال الحسين «عليه السلام»: يا أختاه، يا أم كلثوم، يا فاطمة، يا رباب، انظرن إن انا قتلت فلا تشققن علي جيباً ولا تخمشن وجهاً ولا تنطقن هجراً (١)، فهو إنما نهاهن عن ذلك بعد موته.

وعن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: وقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب.

كما أن الحديث عن الأئمة «عليهم السلام» قد عد يعقوب من البكائين الخمسة، أو الثمانية (٢).

ويروى: أن الإمام الصادق «عليه السلام» جزع على ابنه إسماعيل جزعاً شديداً (٣)، وأن آدم «عليه السلام» جزع على ابنه هابيل (٤).

٢ ـ إن من الواضح: أن حبس الإنسان غيظه وحزنه في قلبه لا يوجب عمى عينيه، كما زعم هذا البعض.. ولم نسمع، ولم نر إنساناً حبس غيظه وحزنه في قلبه قد أصيب بالعمى رغم الكثرة الكاثرة في

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٦٤ و ٢٦٥ عن الإرشاد، وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج٨ ص ٣٢٥ والذكرى (طبعة حجرية) ص ٧٢.

(٢) بحار الأنوار ج ١١ ص ٢٠٤ وج ١٢ ص ٣١١ وراجع ص ٢٤٤ و ٢٦٤ و ٣٠٥ وج ٧٩ ص ٨٦ وج ٤٣ ص ٣٥.

(٣) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٢٤٩ و ٢٥٠.

(٤) بحار الأنوار ج ١١ ص ٢٤٠ و ٢٦٤.

كل هذا التاريخ الطويل، لمن يصابون بأفدح المصائب ثم يكظمون غيظهم وحزنهم..

٣ ـ ما معنى قوله: «إن يعقوب قد أعطى الحزن دوره الهادئ في قلبه وإحساسه وشعوره، من دون أن يترك تأثيره على حياته ودوره في رسالته وحركته في الحياة..».

ألم يصب يعقوب بالعمى في عينيه من شدة حزنه، وهل العمى ليس له تأثير سلبي على حياة الإنسان؟!

٤ ـ ما معنى قول أبناء يعقوب له **(تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا)**. أليس معنى الحرض هو: الإشراف على الهلاك قريباً من الموت. حسب تفسير هذا البعض نفسه؟! ثم قولهم له: **(أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)** (١). ألا يدل ذلك على أن حزن يعقوب كان ظاهراً قوياً، وليس هادئاً، ولا محبوساً في داخل نفسه ـ حسبما يدعيه هذا البعض ـ؟!

وهل ثمة من جزع أكبر من أن يشرف الإنسان على الهلاك من شدة الحزن، أو أن يهلك بالفعل بسبب ذلك؟!

وإذا كان يعقوب قد حزن على يوسف إلى درجة العمى، أو حتى أشرف على الهلاك، فما بال البعض ما فتئ يقبح الجزع على الإمام الحسين «عليه السلام» رغم ورود الرواية الصحيحة عن أهل بيت

---

(١) الآية ٨٥ من سورة يوسف.

العصمة في أنه لا محذور فيه؟!

ولماذا يعتبر أن مظاهر الحزن واللطم في عاشوراء غير حضارية ولا واعية؟! بل هي من مظاهر التخلف، ومن دواعي السقوط، كما أن بعض مفرداتها محرمة لأنها بنظره من مصاديق الإضرار بالنفس؟!

٥ ـ ما معنى قول هذا البعض عن يعقوب ـ مجيباً على سؤال ـ: كيف يجزع يعقوب، وهو نبي؟!:

«إنه لم يفعل أي شيء يؤذي جسده، ولكن كان يعيش الحزن الهادئ حتى ابيضت عيناه من البكاء، كنتيجة طبيعية للعوارض التي أوجبت فقدان بصره».

فهل إن البكاء الذي صدر من يعقوب لا يدخل في دائرة الفعل أصلاً أم أنه فعل لكنه لم يكن من فعل يعقوب؟!

وإذا كان العمى قد نشأ عن البكاء الذي هو من فعل يعقوب، فكيف يقول: إنه لم يفعل أي شيء يؤذي جسده؟! وهل العمى بسبب البكاء لا يعد أذى للجسد؟!

ألم يكن العمى نتيجة لفعل البكاء؟!

وكيف يمكن الجمع بين قوله: «إن العمى كان نتيجة العوارض الطبيعية».

وقوله: «إنه قد عمي من البكاء»؟!

٦ ـ إن التعبير بالصدمة بالنسبة لنبي الله يعقوب غير سديد جزماً،

فإن هذا النبي المجاهد الصابر لم يفاجأ بما حدث، وقد حكى الله عنه: أنه أخبر أبناءه بخوفه على ولده، وأخذ عليهم المواثيق أن يأتوه به إلا أن يحاط بهم، وهم لم يأتوا بجديد عما كان يتوقعه، بل اقتصروا على شرح ما جرى لهم، وإنما تكون الصدمة في أمر لم يكن متوقعاً.

٧ ـ من أين علم أن أبناء يعقوب «عليه السلام» قد ظنوا أن أباهم قد نسي يوسف «عليه السلام» فإن قولهم له: **(تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ)** (١). يدل على أنه كان مستمراً على ذكره، مثابراً عليه، وأنهم كانوا يعلمون ذلك وينكرونه عليه فمن أين جاء ظنهم ذاك.. إن قوله هذا يحتاج إلى إثبات قطعي ـ حسبما يقرر هذا البعض نفسه ـ وإن أي إثبات يأتي به سيكون مخالفاً للقرآن، فلا بد من رده عليه..

٣٦٩ ـ النبي يعقوب يحب ولده لجماله.

٣٧٠ ـ النبي يحب ولده لذكائه ووداعته.

يقول البعض:

«..وجاء يوسف إلى أبيه.. وكان أثيرا عنده حبيبا إليه، لجماله ووداعته وصفاء روحه.. وجلس عنده يقص عليه رؤياه الغريبة التي أثارت في نفسه القلق لما تشتمل عليه من جو يوحي بالسمو ولكنه حافل بالغموض» (٢).

(١) الآية ٨٥ من سورة يوسف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٢ص١٧٨.

ويقول أيضاً:

«..ولكن يعقوب يعرف أن أولاده الآخرين يحسدون يوسف على ما تميز به عنهم من جمال وذكاء ووداعة وصفاء.. وعلى ما له من المنزلة عند أبيه، كنتيجة لما يملكه من هذه الصفات وغيرها مما يجعله أهلاً للمعاملة المميزة»(١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

ألف: إننا لا نريد أن نرهق القارئ بالتعليق على هذه الفقرات، لكننا نلفت نظره إلى أننا ما كنا نحسب أن علاقة نبي الله يعقوب «عليه السلام» بولده النبي يوسف «عليه السلام» كانت بسبب جمال صورة ولده، أو بسبب ذكائه، ووداعته، فنحن نجل الأنبياء عن أمر كهذا.

وإنما نعتقد أنه ينطلق في حبه له مما يلمسه فيه من معان إنسانية، وصلاح وهدى، واستقامة على طريق الخير والرشاد.

ب: وإذا كان الله سبحانه قد أعطى يوسف «عليه السلام» جمالاً خصه به، ولم يعط سائر إخوته، فإن ذلك لم يكن بسوء اختيارهم ليستحقوا هم ذلك الإبعاد، ويستحق يوسف «عليه السلام» هذا القرب.

وإنما هي مشيئة الله سبحانه التي ليس لهم أو ليوسف «عليه

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٢ص١٧٩.

السلام» معها أي اختيار، أو خيار.

ج: ولو أردنا أن نفسح المجال لموضوع الانجذاب للجمال، بحجة أن هذا يعبر عن الذوق الرفيع، ليكون هذا الأمر من المعايير والضوابط التي يعتمدها الأنبياء في حبهم وفي ارتباطهم العاطفي بالأشياء وبالأشخاص لا سيما بعد ملاحظة ما يذكره هذا البعض عن يوسف وامرأة العزيز، فإن ذلك قد يدفع من لا تقوى لديه من أعداء الإسلام أمثال سلمان رشدي إلى كتابة «آيات شيطانية»جديدة تهدف إلى طرح وتسويق مثل أكذوبة زوجة أوريا، حينما رآها النبي داود في حالة مثيرة كما يزعمون، وكذلك الحال بالنسبة لقضية زينب بنت جحش وما افتروه من أن النبي قد عشقها بعدما رآها بصورة مثيرة.. وغير ذلك.

وهذا باب خطير، لا يمكن فتحه، ولا مجال للقبول به.

٣٧١ ـ عذاب يوسف «عليه السلام» في مقاومة الإغراء.

٣٧٢ ـ الإنجذاب إلى الحرام والقبيح لا ينافي العصمة.

٣٧٣ ـ جسد يوسف «عليه السلام» تأثر بالجو (الجنسي).

٣٧٤ ـ عزم على أن ينال منها ما أرادت نيله منه.

٣٧٥ ـ همّ بها، ولكنه توقف، ثم تراجع.

٣٧٦ ـ إيمان يوسف(النبي) يستيقظ.

٣٧٧ ـ إستنفد كل طاقاته في المقاومة.

وأما حديث ذلك البعض عن يوسف «عليه السلام» فهو أشهر من أن يذكر، ونقتصر هنا على قوله في بيان ما جرى لهذا النبي «عليه السلام» مع امرأة العزيز:

«التفسير الذي نميل إليه ونستقربه، هو الإنجذاب اللاشعوري، تماماً كما ينجذب الإنسان إلى الطعام».

إلى أن قال:

«فالعصمة لا تعني عدم الإنجذاب إلى الطعام المحرم، والشراب المحرم، أو الشهوة المحرمة، ولكنها لا تمارس هذا الحرام، فالإنجذاب الغريزي الطبيعي هنا لا يتحول إلى ممارسة، وتتضح الصورة أكثر عندما جمعته مع النسوة، اللاتي قلن: **(حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)** (١)، عند ذلك شعر أن الطوق بدأ يضيق ويحاصره إلى درجة لا يستطيع فيها أن يتناسى، على اعتبار أنه إستنفد كل طاقاته في المقاومة».

«وهذا يجعلنا نشعر بالعذاب الذي كان يعيشه يوسف في مقاومته لإغراء هذه المرأة».

ويقول:

«خلاصة الفكرة: إن يوسف «عليه السلام» لم يتحرك نحو المعصية، ولم يقصدها، ولكنه انجذب إليها غريزياً، بحيث تأثر جسده

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف.

بالجوّ، دون أن يتحرك خطوة واحدة نحو الممارسة» (١).

وذكر في بعض ما بثته بصوته إذاعة تابعة له:

«عزم على أن ينال منها ما كانت تريد نيله منه» (٢).

ويقول:

«..**(وَهَمَّ بِهَا)** (٣) في حالة لاشعوريّة، فيما يتحرك فيه الإنسان غريزيا بطريقة عفوية من دون تفكير.. لأن من الطبيعي لأي شابٍّ يعيش في أجواء الإثارة أن ينجذب إليها، تماماً، كمن يتأثر بالروائح الطيبة أو النتنة التي يمر بها، أو كمن تتحرك غريزة الجوع في نفسه بكل إفرازاتها الجسدية عندما يشم رائحة الطعام».

إلى أن قال:

«وهكذا نتصور موقف يوسف، فقد أحس بالإنجذاب في إحساس لاشعوري وهمّ بها استجابة لذلك الإحساس، كما همّت به، ولكنه توقف ثم تراجع.. ورفض الحالة بحزم وتصميم، لأن المسألة عنده ليست مسألة تصور سابق، وموقف متعمد، وتصميم مدروس، كما هي المسألة عندها، ليندفع نحو خط النهاية، كما اندفعت هي، ولكنها كانت مسألة انجذاب جسدي يشبه التقلص الطبيعي، والإندفاع

---

(١) دنيا الشباب ص٣٦ وراجع الندوةج١ص٣٠٤.

(٢) هذا الكلام مسجل بصوته، والشريط موجود لدينا.

(٣) الآية ٣١ من سورة يوسف.

الغريزي.. إنها لحظة من لحظات الإحساس، عبّرت عن نفسها ثم ضاعت وتلاشت أمام الموقف الحاسم، والعقيدة الراسخة، والقرار الحازم.. المنطلق من حساب دقيق لموقفه من الله، فيما ينطلق فيه من عقيدة، وفيما يتحرك فيه من خط، وفيما يقبل عليه من عقاب الله، لو أطاع إحساسه.. وهذا ما عبر عنه قوله تعالى: **(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ..)** (١)، فيما تعنيه كلمة «البرهان» من الحجة في الفكرة التي تقوده إلى وضوح الرؤية، فتكشف له حقيقة الأمر، فيحس، بعمق الإيمان، أنه لا يملك أية حجة فيما يمكن أن يقدم عليه، بل الحجة كلها لله.. وربما كان جوّ هذه الآية هو جوّ قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)** (٢) وقد نستوحي ذلك من مقابلة كلمة: **(وَهَمَّ بِهَا)**، لكلمة **(وَهَمَّتْ بِهِ)** (٣). فقد اندفعت إليه بكل قوة وضراوة واشتهاء، فحركت فيه قابلية الإندفاع.. وكاد أن يندفع إليها لولا يقظة الحقيقة في روحه، وانطلاقة الإيمان في قلبه.. وبذلك كان الموقف اليوسفي، فيما هو الإنجذاب، وفيما هو التماسك والتراجع والإنضباط، مستوحى من الكلمة، ومن الجوّ الذي يوحي به السياق معاً» (٤).

---

(١) الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٤) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

وقفة قصيرة:

إن آيات القرآن الكريم لا تؤيد ما ذكره هذا البعض، إن لم نقل: إنها تدل على عدم صحته. ونحن نبين المراد من الآيات الشريفة بمعزل عما ذكره ذلك البعض، فنقول:

١ ـ إننا قبل كل شيء هنا نذكر سؤالا وجه إلى ذلك البعض، وأجاب عليه.. والسؤال والجواب هما كما يلي:

سؤال: إذا نوى الإنسان أن يفعل فعلاً سيئاً مثلاً، وصمم أن يرتكب فاحشة الزنا فهل يحاسب هذا الإنسان وكيف يمكن أن نتخلص من مقولة: «إنما الأعمال بالنيات» إذا كان الجواب بالنفي؟!

«جواب: المعروف أن الإنسان لا يحاسب على نيته إذا لم يحولها إلى واقع فالإنسان تخطر في باله أعمال يعبرون عنها في علم الأصول بالقول: «فعل قبيحٌ وفاعل قبيحٌ». بمعنى: أن هذا يدل على قبح الفاعل، أي أنه إنسان سيئ ذاك الذي يفكر بالجريمة لكنه لم يفعل»(١).

فهل يلتزم هذا البعض بنسبة القبح إلى نبي الله يوسف «عليه السلام»؟! وهل يجوز أن يقول عنه: إنه «**إنسان سيئ**» أو إنه «**فاعل قبيح**»؟! لا سيما وأن هذا القائل قد صرح في مورد آخر بأن يوسف «عليه السلام» قد عزم على أن ينال منها، ما كانت تريد هي أن تناله

(١) الندوة ج١ ص ٦٤٠.

منه (١).

٢ ـ إن قوله تعالى: **(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ..)** (٢)، يفيد: أنه لم يحصل منه أي شيء مما ذكره هذا البعض، فإنك إذا قلت: لولاي لوقع الطفل عن السطح، فمعناه أن الطفل لم يقع، فيوسف «عليه السلام» ـ إذن ـ لم ينو هذه المعصية، ولم تدخل في دائرة اهتماماته.. فالله سبحانه ينفي أن يكون قد صدر عن النبي يوسف أي فعل قلبي، ويقول: إن هذا الأمر قد كان خارج دائرة نواياه..

٣ ـ أضف إلى ما تقدم: أن الشيطان قد استثنى عباد الله المخلصين من إمكانية تأثيره فيهم، فقال: **(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)** (٣).

وقال تعالى: **(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)** (٤).

وقد صرحت الآية هنا: بأن بُعْدَ يوسف عن هذا الأمر، وإبعاده له عن دائرة نواياه، إنما هو لأنه كان من عباد الله المخلصين. فقد قال تعالى: **(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا**

---

(١) هذا القول قد جاء على لسان هذا البعض في شريط مسجل بصوته، والشريط موجود أيضاً لدى مؤلف هذا الكتاب.

(٢) الآية ٢٤ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص.

(٤) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

الْمُخْلَصِينَ) (١). حيث ظهر من الآية: أن سبب صرف ذلك عنه هو كونه مخلَصاَ.

٤ ـ إن وجود نوايا قبيحة مرفوضة ستكون نتيجتها سقوط الإنسان عن درجة الإعتبار وأنه سينظر إليه بعين الإحتقار والنقص، فلو أنّ إنسانا نوى الفاحشة مع امرأة محصنة، فإنه لن يكون محترما عند الذين يعلمون منه ذلك، فكيف إذا كانت هذه النية من أحد الأنبياء المخلصين، فإنها تكون أشنع وأقبح، وقد تقدّم تصريح البعض: بأنّ من ينوي ذلك، فهو إنسان سيء، وأن ذلك من مصاديق القبح الفاعلي على حد تعبيره، وفقا لما عند علماء الأصول.

٥ ـ إن المخلَص ـ بالفتح ـ هو الخالص لله، بحيث لا يكون فيه أية شائبة لغيره، فمن ينجذب نحو الفاحشة انجذاب الجائع إلى الطعام، ومن عزم على أن يفعل ما طلبته منه امرأة العزيز، ومن تتحرك فيه قابلية الإندفاع نحو الفعل الحرام، هل يكون خالصاً لله، وصافياً بحيث لا تكون فيه أية شائبة؟!.

٦ ـ هذا مع العلم: أن الله سبحانه قد قرر قبل ذلك مقام يوسف، وعلوّ درجته حيث قال: **(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)** (٢). ولم يُشِرْ بعد ذلك، لا من قريب ولا من

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف.

(٢) الآية ١٤ من سورة القصص.

بعيد ولو حتى بالعتاب، إلى ما ربما يتوهم منه عزمه على أن ينال منها ما كانت تريد نيله منه كما يدعيه ذلك البعض.

٧ ـ ومع غض الطرف عن ذلك كله، فإن كلمة **(همّ به)** ليس معناها همّ بنكاحه، بل معناها: همّ بضربه وإيصال الأذى إليه، حيث يقال: جاء فلان وتكلم بكلام سيء، فهممت به، أي هممت بإيصال الأذى إليه أو بضربه.

وقد ذكر هذا المعنى في الروايات عن الأئمة الطاهرين «عليهم السلام»، وأن المراد: همّ يوسف «عليه السلام» بضربها.

مناقشة وردّها:

قال المرجع الديني سماحة الشيخ التبريزي وهو يرد على مقولات ذلك البعض: «إن لفظ (لولا) دال على امتناع همّه بالمعصية لرؤية برهان ربه»..

فردّ عليه ذلك البعض بقوله: «..إن التعبير الصحيح أو البليغ لهذا المعنى هو: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، لتفيد معنى حصول الفعل الذي يحصل بالمستقبل، فلا يصح أن نقول: «جاء زيد لولا القوم»، بل الصحيح أن نقول: «لولا القوم لجاء زيد»..»(١).

ونقول:

---

(١) راجع رد ذلك البعض على المرجع الديني الشيخ التبريزي ـ الرد على السؤال السابع.

إننا نسجل هنا ما يلي:

إن السيد المرتضى هو ممن لا يُشكّ في تضلعه في علوم اللغة والبيان والفقه حتى قيل فيه: «لو قيل: إن المرتضى أعلم العرب بلغتهم لم نتجاوز». وهو من أبرز أعلامنا.. منذ مطلع القرن الخامس وإلى يومنا هذا.. وقد ذكر هذا العلم هنا عدة أجوبة (١).

الأول: إن الآية قد علقت ـ في ظاهرها ـ كلمة (همّ) بذاتيهما، فقالت: **(هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)** (٢)، ولا يجوز تعلق الهمّ بالذات بمعنى الإرادة والعزم، فلا بد من تقدير محذوف، وليس بعض الأفعال أولى بالتقدير من بعضها الآخر، فهل همّ بالضرب؟! أو الإكرام؟! أو أي شيء آخر؟! ويترجح أن يكون يوسف قد همّ بالضرب، كقولك: همّ فلان بفلان، أي بأن يوقع به ضرباً أو مكروهاً..

أما من ناحيتها، فالمحذوف هو الفعل القبيح، وإنما فرّقنا بينها وبينه في هذا الأمر، لما ظهر من أنها قد راودته عن نفسه، فجاز عليها فعل القبيح فهمّت به، أما يوسف «عليه السلام» فلا يجوز ذلك عليه، لأنه رفض واستعصم، حسبما دل عليه القرآن..

والسبب في أن برهان ربه قد صرفه عن ضربها: هو أنه لو فعل

---

(١) هذه النقاط مقتبسة مما ذكره علم الهدى في كتابيه تنزيه الأنبياء (ط الأعلمي) ص٨٠ ـ ٨٥ وأمالي المرتضى ج١ص٤٧٧ ـ ٤٨١.

(٢) الآية ١٤ من سورة القصص.

ذلك لأهلكه أهلها وقتلوه، أو أنها تدعي عليه المراودة على القبيح، وتقذفه به، وأنه إنما ضربها لامتناعها، وسيصدق الناس عليه ذلك.

وعلى هذا التفسير لا يكون جواب (لولا) متقدما عليها، بل هو مقدر ومتأخر عنها، والتقدير: همّت به وهمّ بدفعها أو ضربها، **(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ..)**(١)، لفعل ذلك.

وحذف الجواب هنا كحذفه في قوله تعالى: **(وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)**(٢)، والتقدير: لهلكتم.

أضف إلى ما تقدم: أن من يقول: المراد أنه «عليه السلام» قد همّ بالقبيح كما همت هي به، يحتاج هو الآخر أيضاً إلى تقدير جواب، كأن يقال: همت بالقبيح وهم به لولا أن رأى برهان ربه لفعله..

الثاني: أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، أي: لقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، وهذا كقولك: قد كنت هلكت لولا أني تداركتك، وقتلت لولا أني خلصتك، أي لولا تداركي لك لهلكت، ولولا تخليصي لك لقتلت، وقال الشاعر:

فلا يدعني قومي ليوم كريهة لئن لم أعجل طعنه لم أعجل

وقال الآخر:

ولا يدعني قومي صريحا لحرة لئن كنت مقتولا ويسلم عامر

---

(١) الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٢٠ من سورة النور.

فقدم جواب (لئن) في كلا البيتين.

ومما يشهد على ذلك أنهم يقولون: قد كان زيد قام لولا كذا كذا (و) قد كنت قمت لولا كذا (و) قد كنت قصدتك لولا أن صدني فلان. وإن لم يقع قيام ولا قصد، وهذا هو الذي يشبه الآية.

وخلاصة الأمر: أن في الآية شرطاً، ويحتاج إلى جواب، وليس تقديم جواب (لولا) بأبعد من حذف الجواب من الأساس..

وإذا جاز عندهم الحذف ـ لئلا يلزمهم تقديم الجواب ـ جاز لغيرهم تقديم الجواب حتى لا يلزم الحذف.

تذكير:

إن الملفت للنظر هنا: أن أبا علي الجبائي المعتزلي ـ تبعاً لغيره ـ هم أصحاب مقولة: أن معنى هم بها اشتهاها، ومال طبعه إلى ما دعته إليه.. وقد روي هذا التأويل عن الحسن البصري، من علماء العامة أيضاً.

قال المرتضى رحمه الله: «ويجب على هذا الوجه أن يكون قوله تعالى: **(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)** (١)، متعلقا بمحذوف، كأنه قال: لولا أن رأى برهان ربه لعزم أو فعل» انتهى (٢).

هذا مع أن قوله تعالى: **(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ**

---

(١) الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) أمالي المرتضى ج١ ص٤٨١.

لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (١)، يدل على صحة تقديم لولا عليها.

٣٧٨ ـ لعل يوسف نسي أهله بعد انقطاع أخبارهم.

٣٧٩ ـ لعل أهل يوسف قد نسوه بعد انقطاع أخباره.

٣٨٠ ـ رؤية يوسف لإخوته كانت بمثابة الصدمة له.

٣٨١ ـ ضغط الأحداث على يوسف، جعل ذكر أهله يغيب عن فكره.

وفي تفسير قوله تعالى: **(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)** (٢).

يقول البعض:

«..ومرت الأيام.. وابتعد يوسف عن أهله.. وابتعدوا عنه.. وربما نسيهم بعد انقطاع أخبارهم عنه، وربما نسوه بعد انقطاع أخباره عنهم.. وتحول الجميع لدى بعضهم البعض إلى ذكرى تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة» (٣).

ويقول:

«أما بالنسبة ليوسف، فقد كانت ملامحهم في ذهنه، لأنهم كانوا

---

(١) الآية ١٠ من سورة القصص.

(٢) الآية ٥٨ من سورة يوسف.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج ١٢ ص ٢٣٤.

كباراً عندما فارقهم، ولم يحدث في حياتهم تغيير يذكر، يبعد الصورة البارزة لديه. لهذا كانت رؤيته لهم، بمثابة الصدمة التي أعادته إلى الماضي، وربما يكون قد ساهم في ذلك أنهم كانوا قد ذكروا أسماءهم، ومواقع بلادهم عند قومهم، فمن المتعارف لدى الناس، سؤال الغرباء عن هويتهم وبلادهم» (١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ ما المبرر لطرح احتمال نسيان يوسف لأهله.. وطرح احتمال نسيان أهله له، حتى تحولوا لدى بعضهم البعض إلى ذكرى تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة؟!.

وإذا كانت الذكرى للأهل تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة فهل يصح اعتبار الأهل قد نسوا ولدهم، والولد قد نسي أهله في حالات الإنصراف الذهني حين الإنشغال بالعمل، وذلك يكون حتى حين يكون الولد جالساً إلى جنب أبيه وأمه؟!.

وهل الأنبياء كانوا يعانون من ضعف الذاكرة إلى هذا الحد؟! وما معنى أن ينسب مثل هذا الأمر إليهم؟!

٢ ـ ما معنى تصويره لحالة يوسف حينما رأى إخوته، فعرفهم وهم له منكرون.. على أنها كانت بمثابة الصدمة له؟!! وهل يصح

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج ١٢ ص ٢٣٥.

استعمال أمثال هذه التعابير في حق أنبياء الله سبحانه؟!

٣ ـ من أين استنبط هذا الحدث حتى أخبر عنه على أنه حقيقة واقعة؟! ومن أين عرف أن ملامحهم لم يحدث فيها تغيير يذكر؟! وما هو الدليل القطعي الذي يثبت له ذلك؟! أو فقل: ما هي الأخبار المتواترة أو غير المتواترة التي تثبت هذا؟

٤ ـ إننا نعتقد أن يوسف الذي كان يعيش آفاق النبوة لا يمكن أن ينشغل عن أهله، وأن ينساهم مهما طال الزمن، خصوصاً بالنسبة لأبيه النبي العظيم (٢) الذي يرتبط به روحياً وإيمانياً ـ قبل أن يرتبط به جسدياً ـ وبصورة أعمق وأوثق من أي رباط آخر بنحو يتناسب مع الآفاق التي يعيشها الأنبياء، والمسؤوليات التي يحملونها.

كما أن يعقوب لا يمكن أن ينسى ولده لنفس السبب الذي اشرنا إليه، وقد طال حزنه عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن. وقد صرح القرآن بأنه لم يكف عن ذكر يوسف طيلة تلك المدة، حتى قال له ابناؤه: تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين.. فمن كانت هذه حاله كيف يقال: إن أهله نسوه.. وإذا كان بعضهم يوشك أن ينساه فإن حزن يعقوب وبكاءه عليه يمنع من حدوث هذا النسيان.

٥ ـ قد صرح هذا البعض:

---

(١) وكذلك بنيامين، بناء على كونه نبياً.

«بأن يوسف قد عرف أسماء اخوته ومواقع بلادهم من خلال أسئلته التي وجهها لهم، فساهم ذلك في تذكره لهم».

فهل يريد هذا البعض أن يقول: إن يوسف الذي أصبح على خزائن الأرض، وصار له هذا الشأن العظيم، إنما لم يستخدم موقعه ونفوذه، والوسائل المتوفرة لديه في السؤال عن أهله، ومعرفة أخبارهم، وكذلك لم يأت بهم من البدو بسبب النسيان الذي طرأ عليه بسبب ضغط الأحداث المتلاحقة؟!

وهل يعقل أن لا يخطر له على بال أبداً طيلة سنين، وسنين أن له أباً وأماً، وأن له إخوة وأنهم قريبون منه.. وأنهم هم الذين أوقعوه بالمصائب، والبلايا؟!.

ألم يمر في وهمه أي خاطر من هذا القبيل ولو حين يأوي إلى فراشه فيدفعه ذلك إلى السؤال عن منطقتهم، وعن أحوالهم، وعن مصيرهم؟! إن ذلك لغريب حقاً، وأي غريب!!

إننا نبادر إلى القول بأن يوسف الذي هو نبي اصطفاه الله لا يمكن أن ينسى مسؤوليته الشرعية تجاه أبويه على الأقل، ولزوم التعرف على أخبارهما، لأداء واجب البر بهما وصلة رحمهما، التي هي من الواجبات..

وإن ما جرى لم يكن يجري في صراط النسيان والغفلة ـ وحاشاه من ذلك وهو نبي الله سبحانه ـ ثم التذكر حين مواجهة الصدمة (!!) على حد تعبير البعض بل كانت الأمور تجري في نطاق الخطة

الإلهية، والرعاية الربانية لأنبيائه ورسله، وتسديدهم فيما يعملون له من نشر راية الحق والهدى، والفلاح والصلاح بنجاح. وهكذا كان..

الفصل الخامس

يونس ×

٣٨٢ ـ يونس «عليه السلام» ليس لديه الصبر الكافي.

٣٨٣ ـ الله يؤدِّب نَبِيَّه يونس «عليه السلام».

٣٨٤ ـ يونس «عليه السلام» تهرَّب من مسؤولياته.

٣٨٥ ـ الله يعتبر يونس«عليه السلام» هاربا كإباق العبد من سيده.

٣٨٦ ـ يونس«عليه السلام» يخرج دون أن يتلقى تعليمات من الله.

يتحدث البعض عن تأديب الله ليونس بسبب عدم صبره، بملاحظة حجم يونس، فيقول بلهجة عامية:

«ما كان عنده الصبر الذي تحتاجه المسألة، فتفسير **(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)**[(١)]. ليس معناها: أنه ظن أن الله لا يقدر عليه، أن لن نقدر عليه، يعني أن نضيق عليه كأنه في هذا المجال، وما في مانع أن الأنبياء الله سبحانه يتعهدهم بالتربية وبالتأديب في حالة من الحالات، لا سيما إذا كانوا أنبياء في حجم يونس، وأمثال يونس من الأنبياء

---

(١) الموسم عدد ٢١ ـ ٢٢ ص ٣٢٢.

المحليين الخ..» (١).

ويتحدث عن هروب يونس «عليه السلام» من مسؤولياته، وإباقه من الله، وأنه عندما لم يستجب له فيها منهم الكثيرون:

«خرج مغاضباً احتجاجاً على ذلك، من دون أن يتلقى أية تعليمات من الله في ذلك منه (اعتقاداً منه) (٢) بأن المسألة لا تحتاج إلى ذلك، فقد قام بدوره كما يجب، ولم يدّخر جهدا في الدعوة إلى الله بكل الأساليب والوسائل، ولم يبق هناك شيء مما يمكن عمله. ولكن الله اعتبرها نوعا من الهروب، فيما يمثله ذلك من معنى الإباق، تماماً كما هو إباق العبد من مولاه» (٣).

ثم هو يقول:

«نستوحي من هذه القصة الخاطفة: أن الله قد يبتلي الدعاة المؤمنين، من عباده ورسله، فيما يمكن أن يكونوا قد قصّروا فيه، أو تهربوا منه من مسؤوليات.

وأن الداعية قد يضعف أمام حالات الفشل الأولى، أو أوضاع الضغط القاسية، أو مشاكل الظروف الصعبة، كنتيجة لفكرة انفعالية سريعة، أو لشعور حاد غاضب.

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) أضفنا هذه الكلمة لينسجم الكلام ويتم المعنى.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٩ ص ٢٤١.

ثم يلطف الله بهم بعد أن يتراجعوا عن ذلك، ويرجعوا إليه، فينجيهم من بلائه، ويحوطهم بنعمائه، ويسبغ عليهم من ألطافه وآلائه، لئلا يتعقد الخطأ، أو الإنفعال في شخصيتهم، لينطلقوا إلى الحياة من روحية الصفاء الروحي، والنقاء الشعوري، من جديد، ليبدؤا الدعوة من حيث انتهوا، ويتابعوا المسيرة بعزم، وقوة، وإخلاص.

ثم نلتقي في أعماق الموقف بالابتهالات الخاشعة الخاضعة لله في روحية الإحساس بالعبودية، التي يشعر المؤمن معها بأن الله يلتقيه في مواقع الإنابة، مهما كانت الخطايا والذنوب، وأن الخطأ لا يتحول إلى عقدة، بل يتحول إلى فرصة للقاء بالله من جديد، في مواقع التوبة الحقيقية الخالصة، التي يبدأ فيها التائب تاريخا جديدا، وصفحة بيضاء من حياته» (١).

وقفة قصيرة:

إننا قبل أن نتعرض لشرح الآيات الخاصة بنبي الله يونس «عليه الصلاة والسلام»، نشير إلى أمرين:

أحدهما: إن ذلك البعض ـ حسبما أسلفنا ـ قد استوحى من قصة يونس «عليه السلام» أمورا ترتبط بما يبتلي الله به الدعاة من عباده ورسله، وذلك يعني: أن ما استوحاه من قصة هذا النبي ظهر له من قصته، وأنه مما ابتلي به هذا النبي نفسه، وذلك يعني أنه يمكن أن

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ ص ٢٨٤.

ينال جميع الأنبياء الآخرين، كما أنه قد قرر إمكانية ابتلاء الدعاة المؤمنين من عباد الله ورسله، بمثل ما ابتلى الله يونس، فيما يمكن أن يكونوا قد قصّروا فيه، أو تهربوا منه من مسؤوليات.. وها نحن هنا نذكر النقاط التي استوحاها، وهي التالية:

ألف: الدعاة من الرسل قد يقصرون في واجباتهم كدعاة.

ب: الدعاة والرسل قد يتهربون من مسؤولياتهم.

ج: قد يضعفون أمام حالات الفشل الأولى.

د: ضعفهم أمام الفشل قد يجعلهم ينفعلون ويغضبون.

هـ: قد يلطف الله بهم لئلا يتعقدوا من الخطأ، أو الإنفعال.

و: يجب أن لا يتحول خطؤهم إلىعقدة بل إلى فرصة للقاء الله.

ز: توبتهم تكون بفتح صفحة بيضاء جديدة، أو تاريخ جديد.

الثاني: قد ظهر أن هذا البعض يرى: أن تأديب الله لأنبيائه تابع لأحجامهم!! فثمّة أحجام تستدعي التأديب وتبرره، وقد كان يونس «عليه السلام» من هذا النوع بالذات!!

ولا ندري إذا كان السبب في اتخاذ يونس لهذا الحجم (!!) وهو كونه نبياً محلياً(!!) الأمر الذي يجعله ـ بنظر ذلك البعض ـ غير جامع للكمالات المطلوبة، وليس في المستوى الذي يؤهله لتقدير مسؤولياته، ويمنعه من الهروب منها!!

ولكن ليت شعري أيٌّ نبي سَلِمَ من نسبة الخطأ في تقدير الأمور

إليه، من قبل هذا البعض؟! فقد تقدم: أن موسى «عليه السلام» (وهو من أولي العزم) وأخاه هارون «عليه السلام» قد أخطأا، أو أحدهما في تقدير الأمور.. بل قد جُعِلَ الخطأ قاعدة ـ لدى هذا البعض ـ نالت جميع الأنبياء حتى سيّد المرسلين وأفضل الأنبياء نبيّنا محمد «صلى الله عليه وآله».

تفسير الآيات:

ومهما يكن من أمر، فإننا نشير هنا إلى تفسير الآيات التي تحدثت عن يونس، فنقول:

إن قصة يونس «عليه السلام» من خلال الآيات لا تدل على تلك المقولات التي أطلقها البعض، فقد تحدث الله سبحانه عن يونس «عليه السلام» في أكثر من موضع من كتابه العزيز، ونحن نذكر أولا الآيات التي ذكرت، وهي التالية:

ألف: قال تعالى: **(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)** (١).

ب: وقال تعالى مخاطباً نبيّه: **(..فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ**

---

(١) الآيتان ٨٧ و ٨٨ من سورة الأنبياء.

لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)[١] .

ج: وقال سبحانه: (**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَفَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)**[٢] .

وهنا نذكرّ القارئ الكريم بنقاط تدل على براءة يونس «عليه السلام» مما ينسب إليه، وهي التالية:

١ ـ كلمة مغاضباً التي تعني حدوث فعل الإغضاب من طرفين، ـ أحدهما يونس «عليه السلام» ـ حيث يريد كل منهما أن يغضب الآخر، ولا يصح القول بأن المغاضبة قد كانت بين يونس «عليه السلام» وبين الله سبحانه، فإن فرض ذلك لا يليق بمؤمن صالح فضلا عن أن تكون قائمة بين الله سبحانه وبين يونس «عليه السلام»، فلم يكن ثمة سعي من يونس «عليه السلام» لإغضاب الله تعالى، ولا إرادة من الله سبحانه لإغضاب يونس «عليهم السلام»، فإذا كان الله سبحانه يقول عن سائر المؤمنين: (**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**

---

(١) الآيتان ٤٨ و ٤٩ من سورة القلم.

(٢) الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨ من سورة الصافات.

وَأَعَدَّ لَهُمْ)(١)، فكيف بالأنبياء الكرام، ومنهم يونس «عليهم السلام»؟!

إن الحقيقة: هي أن المغاضبة كانت بين يونس «عليهم السلام» وبين فريق آخر، والظاهر: أنهم قوم يونس «عليه السلام»، الذين يئس من هدايتهم، وتنحى عنهم بعد أن علم أن العذاب سينزل عليهم. فالتجأ إلى الفلك المشحون بالناس، وكان قومه يطلبونه، ليوصلوا إليه الأذى، لأنهم كانوا يرونه قد أساء إليهم، فاعتبروه فارّاً وآبقاً منهم، وكانوا لا يصدقون بنزول العذاب عليهم.

فلما رأوا علائم العذاب استكانوا إلى الله وخضعوا له، فكشف الله عنهم العذاب، ومتعهم إلى حين. وكان ذلك في غياب يونس «عليه السلام»، ولم يكن يونس «عليه السلام» يعلم بذلك، وتذكر بعض الروايات: أنَّ جبرئيل «عليه السلام» كان قد استثنى في هلاكهم، ولم يسمعه يونس «عليه السلام»، فإن كان ذلك الإستثناء قد حصل حين الوحي ليونس فلا بد من توجيه الرواية أو طرحها، حتى لا يكون ثمة تقصير من قبل جبرئيل «عليه السلام» في إيصال الوحي، ولا في يونس «عليه السلام» في تلقيه له.

وإن كان ذلك على سبيل الحديث العادي، الذي يجري بين اثنين، فأراد جبرئيل أن يخبر يونس من عند نفسه، لا على سبيل إيصال

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

الوحي الإلهي إليه، فلا مانع من أن يكون جبرئيل «عليه السلام» قد تعمد أن لا يسمع يونس «عليه السلام» هذا الإستثناء إذ لا يضر ذلك في تلقي الوحي، ولا في إلقائه، لأن هذا ليس من الوحي أساساً، ولكننا لانجد مبررا عقلانيا لتصرف كهذا من قبل جبرئيل «عليه السلام». وإن كان حديثه مع الأنبياء في أمور ليست من الوحي الإلهي مما لاشك فيه.

وقد روي أن جبرئيل كان بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» يأتي إلى فاطمة «عليها السلام» ويحدثها بما يسليها، وكان علي «عليه السلام» يكتب ذلك في مصحف فاطمة«عليها السلام» (١).

٢ ـ قوله تعالى: **(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)** (٢). أي: أن نضيق عليه، فالذي يكون آبقا وهاربا من المسؤولية لا يظن أن الله سوف لا يضيق عليه، بل هو يتوقع التضييق، وأن يلاقي جزاء هروبه هذا..

إذن، الفقرة تشير: إلى أنه «عليه السلام» كان واثقا من رضا الله عنه، ولم يكن آبقا منه تعالى، ولا هاربا من مسؤولياته.

وكلمة ظن هنا بمعنى: عَلِمَ (٣)، لكن بما أن العلم هو انكشاف للواقع.. وبما أن المتعلق هنا أمر مستقبلي، فإن المستساغ هو استعمال

---

(١) راجع كتاب مأساة الزهراء ج١ ص١٠٦ ـ ١١٧.

(٢) الموسم عدد ٢١ ـ ٢٢ ص ٣٢٢.

(٣) راجع قواميس اللغة.

كلمة ظن بدل علمه مراعاة لهذه الخصوصية، في الظواهر التعبيرية، وحسب.

٣ ـ إن مناداة يونس «عليه السلام» في الظلمات الثلاث، اعني ظلمة الليل، وظلمة أعماق البحار، وظلمة بطن الحوت **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)**. تؤكد على حقيقة التوحيد الخالص لدى يونس «عليه السلام» ـ خصوصا في هذا الموقع ـ حيث لم يتعلق بغير الله سبحانه كمنقذ له من ذلك البلاء.. فهو العالم به، وهو القادر دون سواه على إنقاذه.

أما قوله: **(إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)**(١)، فهو تعبير يشير إلى رسوخ قدم هذا النبي في معرفة الله، فإنه يرى نفسه باستمرار مقصراً عن أداء شكر ربه، وعن قيامه بواجبه تجاهه، وعن عبادته حق عبادته، فكلمة (كنت) قد جاءت مجردة عن الزمان، والمراد بها الحديث عن خصوصية ذاته، كما يقتضيه مقام العبودية.

ويشير إلى ذلك: ما روي من تفسير الإمام الرضا «عليه السلام» له بقوله: إني كنت من الظالمين بتركي مثل هذه العبادة التي أفرغتني لها في بطن الحوت.

وبكلمة موجزة نقول:

لا بد من تنزيه الأنبياء عن ارتكاب الظلم الذي ربما يخطر بالبال

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

حين سماع هذا التعبير، قبل التأمل والتعمق في فهم المراد..

٤ ـ إنه لو كان سبحانه هو الذي ابتلى يونس «عليه السلام» بالتقام الحوت ليؤدبه بذلك على ما فرط منه، وعلى إباقه منه، فان المناسب أن يقول فرفعنا عنه العقوبة، لا أن يعبر بكلمة أنجيناه من الغم فان ذلك يشير إلى أن الله سبحانه قد نجاه من بلاء ناله من غير جهة الله سبحانه.

٥ ـ إن قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)** [(١)] . كأنه تعليل لإنجائه تعالى ليونس «عليه السلام»، مشيراً بذلك إلى أن إيمان يونس «عليه السلام» هو السبب في هذا التدخل الإلهي، وهذا ما لا يتناسب مع ما يقوله هذا البعض من إباق يونس «عليه السلام» كإباق العبد من سيده، وهروبه من مسؤولياته..

إذ لو كان الهروب من المسؤولية، لكان الأنسب سوق الحديث باتجاه تأكيد التوبة والإستغفار، لأنه هروب يحتاج إلى ندم وتضرع وتوبة، ثم قبول إلهي لها، فيقول مثلا، وكذلك نرحم التائبين، ونحسن إليهم ونتوب عليهم، بدل أن يقول وكذلك ننجي المؤمنين، الظاهر في أن انجاءه له، إنما كان جائزةً ومكافأةً له على إيمانه..

٦ ـ أما آيات سورة القلم، التي تقدمت في أوائل هذه الوقفة، فإنما يراد بها أن يتذرع الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» بالصبر،

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء.

لينال بذلك مقاما عظيما يفوق مقام يونس «عليه السلام».

فان دعاء يونس «عليه السلام» وهو مكظوم أي مختنق بغيظه، لم يحط من مقام يونس، ولولا أن تداركته نعمة من الله لنبذ من قبل غير الله سبحانه ـ تماماً كما هي سنّة الله في هذه المواقع ـ بالعراء على أقبح صورة ممكنة ولناله أعظم السوء، ولكنه لو تحمّل المزيد لحصل على مقام أسمى مما هو فيه..

فالله يريد لنبيّه أن يتسامى في مدارج القرب ليصل إلى أبعد منازل الكرامة الإلهية، ولا يريد له أن يقف عند هذا الحد، ويرضى بما ناله، وبما وصل إليه، كما كان الحال بالنسبة إلى يونس «عليه السلام»، فالتشبيه إنما هو في هذه الناحية.

فالآيات إذن، ما هي إلّا إرشاد من الله للرسول إلى هذه الخصوصية، التي لا يستلزم تركها تنزلا عن المقام الذي هو فيه، غير أن فعلها له آثاره الكبيرة في نيل أسمى درجات القرب والكرامة.

٧ ـ فيونس «عليه السلام» إذن واقع في مأزق، فلحقته نعمة الله فنجا، ولو كان المراد قبول توبته، لكان الأنسب التعبير بالرحمة بدل النعمة.

وقوله: **(وَهُوَ مَذْمُومٌ)** (١) لا يراد به الذمّ من قبل الله سبحانه كما ألمحنا إليه.

---

(١) الآية ٤٩ من سورة القلم.

٨ ـ قد ظهر أن الإباق إلى الفلك المشحون، لم يكن إباقا من الله سبحانه، ولا هروبا من المسؤولية، بل هو إباق إليه، من موقع المسؤولية في مواجهة تبعاتها.

٩ ـ وقوله تعالى: **(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)** (١) يشير إلى عدم إباق يونس «عليه السلام» من الله تعالى، لأن من كان كل حياته من المسبحين، حتى استحق بذلك معونة الله له، فإنّه لا يهرب من ربّه، ولا يتمرد عليه.

١٠ ـ إن معنى أبق العبد: ذهب بلا خوف، ولا كد عمل، أو استخفى، ثم هرب (٢)، هذا هو المعنى اللغوي لكلمة أبق، فليس فيه أن أن هروبه لا بد أن يكون من مولاه، على صفة التمرد، والخروج عن زي العبودية.

نعم.. قد فسّر في الشرع بذلك، فإن الآبق شرعاً: «مملوك فرّ من مولاه، تمرداً أو عناداً لسوء خلقه» (٣).

١١ ـ قوله: **(وَهُوَ مُلِيمٌ)** (٤). أي يلوم غيره، لا أنه يلوم نفسه، فإن هذه الكلمة هي اسم فاعل من (ألام) بمعنى (لام)، أو بمعنى (أتى ما لا

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة الصافات.

(٢) محيط المحيط ص ٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الآية ١٤٢ من سورة الصافات.

يستحق اللوم عليه)، وتلك إشارة أخرى تؤكد عدم استحقاق يونس «عليه السلام» لأدنى لوم، ولو كان آبقا من ربّه لاستحقّ أشدّ اللوم بل العقاب بلا ريب.

٣٨٧ ـ يونس استنفد تجاربه في الدعوة إلى الله.

٣٨٨ ـ يونس لم يفكر بالمرحلة الجديدة من عمله.

٣٨٩ ـ يونس لم ينتظر نتائج التجربة الأخيرة.

٣٩٠ ـ يونس يعيش جو الحيرة.

٣٩١ ـ أراد يونس أن يخرج من جو الغم والحزن والحيرة ليجد ملجأ جديدا.

٣٩٢ ـ ظن يونس أن لن يضيق الله عليه فجاءت النتيجة عكس ما كان يتصوره.

٣٩٣ ـ يونس خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك.

٣٩٤ ـ يونس يقول ظلمت نفسي في تقصيري في أمر الدعوة من غير قصد.

٣٩٥ ـ أنا عائد إليك يا رب لتكشف عني أجواء الحيرة.

٣٩٦ ـ كان خروجه السريع سرعة انفعالية في اتخاذ القرار.

٣٩٧ ـ قد لا يكون خروج يونس تهرباً من المسؤولية.

يقول البعض:

«ولكن المراد هنا من كلمة (نقدر) المعنى الذي يلتقي بالتضييق،

أو بالتحديد كما في قوله تعالى: **(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ)**(١) . وهكذا يكون معنى الآية: إن هذا العبد الصالح خرج مغاضباً لقومه، وهو يظن أنه قد ملك حريته، بعد أن انتهت مهمته باستنفاد كل تجاربه في الدعوة إلى الله وعدم تجاوب قومه معه، واستحقاقهم العذاب على ذلك، وقرب نزوله عليهم، فلم يفكر بالمرحلة الجديدة من عمله، ولم ينتظر عودتهم إلى الإيمان من خلال التجربة الأخيرة التي قد تحقق نتائج كبيرة على هذا الصعيد، وهي مسألة تهديدهم بالعذاب الذي ثبت ـ بعد ذلك ـ أنه كان الصدمة القوية التي أرجعتهم إلى عقولهم، فانفتحت قلوبهم على الإيمان بالله وبرسالاته من جديد. كما حدثنا الله عن ذلك في آية أخرى.

لقد كانت لحظة انفعال تختزن الغضب لله، ولكنها لم تنطلق للتفكير بالمستقبل في آفاق الدعوة إلى الله، التي تعمل على أن تطل على الآفاق الواسعة من عقل الإنسان وروحه وقلبه لتنتظر منه انفتاحة إيمان، ويقظة روح، وخفقة قلب.. وفي هذا الجو كان خروجه السريع، سرعة انفعالية في اتخاذ القرار، وقد لا يكون ذلك تهرباً من المسؤولية، وحباً للراحة، وابتعاداً عن أثقال الرسالة ومشاكلها، فربما كان الجو يتحرك في حالة شديدة من الحيرة والغم والحزن، مما يريد معه أن يخرج من هذا الجو الخانق ليجد لنفسه ملجأً جديداً، أو موقعاً

---

(١) الآية ١٦ من سورة الفجر.

آخر للدعوة، أو لأي مشروع جديد، في هذا الإتجاه، وهو يظن أن الله لن يضيق عليه أمره، في رزقه، وفي حركته، وجاءت النتيجة غير ما كان يتصوره أو ينتظره، فالتقمه الحوت، بعد أن وقعت القرعة عليه، وعاش في ظلمات البحر، وجوف الحوت، وظلمات الهم والغم، وانفتحت أمامه من جديد، آفاق إيمانه الواسع، فعاش روحيته مع الله في ابتهال وخشوع، وبدأ يتذكر لطف الله به ورعايته، وتكريمه إياه من خلال ما اختصه به من رسالته وما سهل له من سبل الحياة، وهداه اليه من وسائلها، وكيف خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك، أو ينتظر ما يحدث لقومه، فانطلقت صرخته المثقلة بالهم الكبير الروحي والرسالي الذاتي، من كل أعماقه، في استغاثة عميقة بالله وحده لا سيما في مثل ظروفه التي لا يملك أحد فيها أن يقدم إليه شيئاً.

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ (١). فلا ملجأ لأي هارب أو ضائع أو حائر إلا إليك، ولا ملاذ إلا أنت، فأنت القادر على كل شيء، والرحيم لكل مخلوق، والعليم بكل الخفايا والمهيمن على الأمر كله والغافر لكل ذنب، والمستجيب لكل داع، والمغيث لكل ملهوف، والمفرج عن كل مهموم ومكروب.. وليس لي غيرك اسأله كشف ضري والنظر في أمري، فأنت ربي وسيدي ومولاي وملاذي في كل الأمور، **﴿سُبْحَانَكَ﴾** إذ يختزن قلبي وعقلي ووجداني الإحساس

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

بعظمتك في كل مواقع العظمة في مجالات التصور، وفي حركة القدرة في الواقع، في مظاهر الخلق والإبداع.. فيتحول ذلك إلى تسبيح منفتح خاشع مبتهل إلى الله، **(إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** (١)، فقد ظلمت نفسي في تحركي، أو تقصيري في سبيل الدعوة، من غير قصد، ولا عمد، وها أنذا ـ يا رب ـ راجع إليك بكل قلبي وعقلي وحياتي، لتتقبلني بكل لطفك ورضوانك ورحمتك، ولتكشف عني في كل أجواء الحيرة والغم التي تغمرني بالآلام والمشاكل، فهل تستجيب لي؟! إنك أنت الذي تستجيب كل الدعوات لمن دعاك» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إن ثمة إصلاحاً طرأ على عبارة هذا البعض وهو: أنه كان قد جزم في الطبعة الأولى من كتابه «من وحي القرآن» بأن الله سبحانه قد اعتبر ما فعله يونس تهرباً من المسؤولية، لكنه في هذه الطبعة قال: قد لا يكون ذلك تهرباً من المسؤولية.

ولعله قد ظن أن الناس سوف يعتبرونه قد اصلح وتراجع عن مقولته السابقة، الظاهرة في الإخلال بالعصمة للأنبياء..

ولكن الحقيقة هي أن ما فعله هنا قداظهر إصراره الشديد على

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) من وحي القرآن ج١٥ ص٢٥٨ و ٢٥٩.

الطعن بعصمتهم «عليهم السلام» حيث قد نبهنا في الأبحاث السابقة لهذا الكتاب ـ وربما أكثر من مرة ـ إلى أن احتمال صدور المخالفة من النبي لا ينسجم ولا يجتمع مع اليقين بعصمته، مهما كان ذلك الاحتمال ضعيفاً، حتى ولو بنسبة واحد بالمئة.. فإن عبارة: «قد لا يكون ذلك تهرباً» تعني: أن احتمال أن يكون تهرباً، لا يزال باقياً أيضاً. ولا يحتمل في حق المعصوم أن يتهرب من المسؤولية في أي من الظروف والأحوال، لأن احتمال ذلك في حقه معناه: أننا لسنا على يقين من عصمته.. وذلك واضح..

٢ ـ من أين علم هذا البعض: أن يونس لم ينطلق للتفكير بالمستقبل في آفاق الدعوة إلى الله، التي تعمل على أن تطل على الآفاق الواسعة من عقل الإنسان وروحه وقلبه، لتنتظر منه انفتاحة إيمان، ويقظة روح، وخفقة قلب ـ على حد تعبيره ـ؟!

فإن هذا الكلام يمثل إخباراً غيبياً عن ضمير يونس، وعن خلجات قلبه، كما أنه يمثل إدانة خطيرة له، فلماذا يسيء الظن ولا يحسنه بهذا النبي الفاني في الله، والباذل نفسه، وكل حياته ووجوده في سبيله؟! أم أن الله أطلعه على قلب نبيه بعد آلاف السنين، فانبرى ليخبرنا بهواجسه واهتماماته، وبنجواه، وخلجات قلبه، وما فيه إدانة بل إهانة له؟!

إننا نعتقد أن جميع الأنبياء لا يفكرون بمصالحهم كأشخاص، وإنما يفكرون في مستقبل الرسالة، ويخططون له، ويتحملون

مسؤولياتهم في ذلك.

٣ ـ أضف إلى ذلك: أن هذا البعض قد جزم بأن يونس «عليه السلام» قد خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك، أو ينتظر ما يحدث لقومه، ولا ندري من أين، وكيف جاز له الجزم بهذا الخبر التاريخي وهو الذي لا يقبل بخبر الواحد، بل يشترط التواتر أو كل ما يفيد الجزم واليقين بالأخبار التاريخية سواء من حيث السند أو من حيث الدلالة..

كما أننا قد قلنا فيما ذكرناه سابقاً من قصة يونس «عليه السلام»: إن قومه هم الذين كانوا يرونه آبقاً منهم وإننا لننزه ساحته وهو النبي المعصوم عن أن يعمل عملاً من تلقاء نفسه، ومن دون أن يتحقق من رضا الله سبحانه وتعالى فيه، فإن ذلك مما ينافي انقياده لله سبحانه، ويخلّ بأهليته لمقام النبوة والرسالة..

٤ ـ إننا نعتقد: أن الأنبياء لا يقومون بتجارب في حقل الدعوة إلى الله سبحانه، لأن هذا التعبير (تجربة ـ تجارب) له إيحاءات سيئة ـ وهو يؤمن بالإيحاءات، وكتابه موضوع على أساسها ـ لا مجال للإلتزام بها، من حيث إنه يختزن أن من يمارس التجربة لا يملك المعرفة التامة بجدوى ودقة ما يقوم به.. كما أنه يختزن معنى الخطأ في إصابة الواقع..

إن الأنبياء لا يقومون بتجارب، وإنما يعملون بوظيفتهم الشرعية التي لا يشكون في أنها المعالجة الصحيحة والدقيقة.. غير أن حالة

استكبار قومه ـ كما هو الحال في استكبار إبليس ـ وجحودهم، هو الذي يمنع من أن يؤثر هذا البلسم الشافي أثره.

٥ ـ وقول هذا البعض:

«إن يونس «عليه السلام» لم يفكر في المرحلة الجديدة من عمله» وإنه: »لم ينتظر نتائج التجربة الأخيرة».

ما هو إلا رجم بالغيب، لا يملك دليلاً قطعياً يثبته ـ حسب ما يشترطه هذا البعض ـ وهل يمكن أن يجد دليلاً يثبت على أنبياء الله القصور والتقصير في مسؤولياتهم؟!

أضف إلى ذلك: أنه هو نفسه يقول: «إن النفي يحتاج إلى دليل، كما الإثبات يحتاج إلى دليل».

٦ ـ إن الله لم يضيق على يونس، بل كان الله الذي وثق به يونس هو الذي هون عليه المشكلات التي واجهها، وذلل المصاعب والمصائب التي حلت به وحفظه، ورعاه.. فكان الله معه في كل صغيرة وكبيرة، وكان ظن يونس علماً صحيحاً وقطعياً، قد تحقق كما أراد يونس «على نبينا وآله وعليه صلوات الله وسلامه».

٧ ـ إن يونس لا يمكن أن يقصر في أمر الدعوة وهو النبي والمسؤول الأول فيها وعنها، وذلك معلوم وواضح.

٨ ـ إن كلام هذا البعض عن حيرة يونس لا يمكن قبوله، فإنه كان يعرف تكليفه الإلهي والشرعي بدقة، وينفذ ما يريده الله منه دون زيادة أو نقيصة.

ولا يمكن أن نتصور نبياً حائراً، ولا يدري ما هو تكليفه الشرعي، ولا يعرف كيف يقوم بواجبه، وكيف ينجز مسؤولياته.

٩ ـ إن كلامه عن الخروج من جو الحزن والغم والحيرة ليجد لنفسه ملجأً آخر يعطي: أن يونس إنما كان مهتما بنفسه كشخص.. او على الأقل هو يحتمل ذلك في حقه ـ كما ويحتمل أن يكون بصدد البحث عن موقع آخر للدعوة. فلماذا لا يكون واضحاً وصريحاً فيما يريد أن ينسبه إلى يونس ليعرّف القارئ مراده بدقة، ويحفظه من غائلة الريب والشك في أنبياء الله سبحانه وتعالى.

٣٩٨ ـ درجات الأنبياء في الكمال تتفاوت حسب مواقعهم الإيمانية.

٣٩٩ ـ استعجال يونس العذاب لقومه بسبب ضعفه البشري.

٤٠٠ ـ استسلام الأنبياء للضعف البشري تابع لدرجاتهم.

٤٠١ ـ يونس لم يصبر لتبلغ الرسالة مداها في تحقيق شروط النجاح، أو نهاية التجربة.

٤٠٢ ـ ليس ضرورياً أن يكون الاستسلام للضعف في حجم المعصية.

ويقول البعض:

«من إيحاءات الآية: وقد نستوحي من هذه الوصية للنبي أن لا يكون كصاحب الحوت الذي ضاق صدره بتكذيب قومه، فاستعجل العذاب لهم، ولم يصبر على الامتداد في تبليغ الرسالة لتبلغ مداها في

تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة.

قد نستوحي من ذلك، أن الأنبياء يستسلمون لنقاط الضعف البشري تبعا لدرجاتهم.. وقد لا يكون من الضروري أن يكون ذلك في حجم المعصية، لأنهم ربما انطلقوا من معطيات إيمانية في الغضب لله ولرسوله ولكن ذلك يعني أن درجاتهم في الكمال تتفاوت حسب تفاوت مواقعهم الإيمانية الروحية» (١).

وقفة قصيرة:

قد شرحنا هذه الآيات فيما مضى من هذا الكتاب.. وأوضحنا: أن الحديث فيها عن صبر يونس لا يتجه إلى اتهام يونس بالاستسلام للضعف البشري وعدم صبره إلى أن تبلغ الرسالة مداها في تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة ليقول لنا البعض بعد ذلك: هل إن ذلك في حجم المعصية أم لا؟!

١ ـ ولكن الذي لفت نظرنا هنا هو قول هذا الرجل:

«قد لا يكون من الضروري أن يكون ذلك في حجم المعصية، لأنهم ربما انطلقوا من معطيات إيمانية الخ..».

فإن هذا الكلام يستبطن احتمال المعصية في حق يونس «عليه السلام» كما يفهم من قوله: «قد لا يكون من الضروري»!!.

وقوله: «لأنهم ربما انطلقوا».

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ٢٣ص٧٠.

وهذا الأمر مرفوض في حق الأنبياء حتى على مستوى الاحتمال.

٢ ـ ولفت نظرنا أيضاً: ما أطلقه في حق الأنبياء من أن استسلامهم لنقاط الضعف البشري يكون تبعا لدرجاتهم.

فلو فرضنا جدلاً: أنهم يستسلمون لنقاط الضعف البشري، فمن أين استنتج أنهم يختلفون في درجات الاستسلام هذه تبعاً لدرجاتهم، فما هي القرينة في الآية المباركة التي تدل على ذلك؟! فالآية قد جاءت خطاباً للنبي «صلى الله عليه وآله» وهي تدل إذن على أن ذلك ممكن في حق نبينا «صلى الله عليه وآله» كما هو ممكن في حق يونس «عليه السلام» مع علمنا باختلاف الدرجة فيما بينهما.

هذا بالإضافة إلى أن هذا البعض يزعم عدم ثبوت تفضيل النبي «صلى الله عليه وآله» على سائر الأنبياء «عليهم السلام»(١).

ثم يشرح حقيقة ما فضل الله به بعض الأنبياء على بعض فيقول:

«..**(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)**(٢) فيما ميزناهم به من مواقع العمل، وطبيعة المعجزة، ونوعية الكتب، من قاعدة الحكمة

---

(١) راجع: من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٥ الصفحات ٨ ـ ١٤ ـ ١٥.

(٢) الآية ٥٥ من سورة الإسراء.

التي أقام الله عليها الحياة [(١)] .

٣ ـ ولفت نظرنا أيضاً: ما زعمه من أن استعجال يونس العذاب لقومه، إنما هو لأن صدره قد ضاق بتكذيبهم.

فهل ذلك يعني: أن يونس «عليه السلام» كان متسرعاً، وأن المسألة قد انطلقت من ضعف يونس الذي ألجأه إلى مواجهة ألوف من الناس بالعذاب الماحق، وبالخطر الداهم والساحق، الأمر الذي يعني أن قومه قد ذهبوا ضحية ضعفه البشري؟!

وهذه تهمة خطيرة في حق أنبياء الله صلوات الله عليهم.

والأدهى من ذلك: أن الله سبحانه قد جارى نبيه هذا الضعيف في ذلك حتى رأوا نذير العذاب بالفعل..

٤ ـ ثم هو ينسب إلى نبي من أنبياء الله أنه لم يصبر على الامتداد في تبليغ الرسالة، حتى تبلغ مداها في تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة.

وهذا معناه: تسجيل تهمة على هذا النبي أنه لم يقم بمهمة التبليغ الرسالي على الوجه الأكمل والأمثل، لأنه لم يصبر على الرسالة لتحقق شروط النجاح. مع أنه هو نفسه يسلم بعصمة النبي في مقام التبليغ، ولا بد أن يكون ذلك يشمل صورتي الخطأ والتقصير في التبليغ على حد سواء.

---

(١) من وحي القرآن ج١٤ ص١٥٧.

الفصل السادس

داود.. وسليمان.. وزكريا.. ويحيى.. وعيسى ^

٤٠٣ ـ قضية داود «عليه السلام» كقضية آدم «عليه السلام».

٤٠٤ ـ داود «عليه السلام» يستسلم لعواطفه في قضائه.

٤٠٥ ـ داود «عليه السلام» يعتمد على ما لا يصح الإعتماد عليه في القضاء.

٤٠٦ ـ داود «عليه السلام» يخطىء في إجراء الحكم.

٤٠٧ ـ الله هو الذي أراد لداود «عليه السلام» أن يقع في الخطأ.

٤٠٨ ـ خطأ داود «عليه السلام» كانت له نتائج سلبية.

٤٠٩ ـ الخطأ لا يتنافى مع مقام النبوّة.

ويقول البعض عن قصة حكم داود «عليه السلام» بين الخصمين:

«وهكذا أطلق داود الحكم، وتدخل في تفسير المسألة من ناحية اعتبارها مظهرا من مظاهر الإنحراف الإجتماعي في العلاقات العامّة في الحقوق المتنازع عليها بين الناس.. ولم يكن قد استمع إلى الطرف الآخر مما تقتضيه طبيعة إدارة الحكم في جانب الشكل والمضمون، فعليه أن يدرس الدعوى، من خلال الإستماع إلى حجة المدعي ودفاع المدّعى عليه.. لأن مسألة الغنى والفقر، والكثرة

والقلة، لا يصلحان أساسا للحكم على الغني الذي يملك الكثير لحساب الفقير الذي يملك القليل أو لا يملك شيئاً في دائرة الحق المختلف فيه..

ولكن المشاعر العاطفية قد تجذب الإنسان إلى الجانب الضعيف في الدعوى، لتثير فيه الإحساس بالمأساة التي يعيشها هذا الإنسان من خلال ظروفه الصعبة بينما يعيش الإنسان الآخر الراحة والسعة في أجواء اللامشكلة، مما يجعل من الحكم على الضعيف تعقيدا لمشكلته بينما لا يمثل الحكم عليه لمصلحة الضعيف مشكلة صعبة بالنسبة إليه.. هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الواقع الذي يتحرك في حياة الناس تستبعد أن يكون هذا الفقير معتديا على الغني، لا سيما في هذا الشيء البسيط، بينما يمكن أن يكون الغني في جشعه وطمعه معتديا على الفقير من موقع قوته، كما هي حال الأقوياء بالنسبة إلى الضعفاء..

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ). أي أوقعناه في الفتنة، أي في البلاء والإختبار الذي يفتتن به الإنسان فيكون معرضاً للخطأ من خلال طبيعة الأجواء المثيرة الضاغطة المحيطة به وانتبه ـ بعد إصدار حكمه لمصلحة صاحب النعجة، إلى استسلامه للمشاعر العاطفية أمام مأساة هذا الإنسان الفقير، وخطأه في عدم الإستماع إلى وجهة النظر الأخرى **(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ)** على هذا الخطأ في إجراءات الحكم الشكلية **(وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)**(١) . أي رجع إلى الله وتاب إليه وأخلص إليه.

---

(١) الآية ٢٤ من سورة ص.

قصة داود أمام علامات الاستفهام:

فغفرنا له ذلك الخطأ الذي لم يؤد إلى نتيجة سلبية كبيرة في الحياة العامة ولم يصل إلى الموقف الحاسم في تغيير الواقع (**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى**) وهي المنزلة والحظوة (**وَحُسْنَ مَآبٍ**)(١) فيما يرجع إليه من رحمة الله ورضوانه..».

إلى أن قال في جملة نقاط ذكرها:

«النقطة الثانية: كيف نفهم المسألة في دائرة فكرة عصمة الأنبياء، أمام تصريح الآية بالإستغفار والرجوع إلى الله بعد الفتنة التي لم يستطع النجاح فيها، فأخطأ في إدارة مسألة الحكم في الجانب الإجرائي منه..

ربما تطرح القضية، على أساس أن الخصمين إذا كانا من الملائكة، فإنها لا تكون تكليفا حقيقيا، بل هي قضيّة تمثيلية على سبيل التدريب العملي ليتفادى التجارب المستقبلية فيما يمارسه من الحكم بين الناس..

تماماً كما هي قضية آدم التي كانت قضية امتحانية لا تكليفا شرعيا، فلم تكن هناك معصية بالمعنى المصطلح، وبذلك يكون الإستغفار مجرد تعبير عن الإنفتاح على الله والمحبة له، والخضوع له فيما يمكن أن يكون قد صدر عنه من صورة الخطيئة، لا من

---

(١) الآية ٢٥ من سورة ص.

واقعها، وأما إذا كان الخصمان من البشر، فقد يقال بأن القضاء الصادر من داود لم يكن قضاء فعليا حاسما بل كان قضاء تقديريا، بحيث يكون قوله: **(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)** (١)، بتقدير قوله: لو لم يأت خصمك بحجّة بيّنة.

ولكن ذلك كله لا يمنع صدور الخطأ منه، فإنّه لم ينتبه إلى أن الخصمين ملكان، بل كان يمارس القضاء بالطريقة الطبيعية على أساس أنهما من البشر.. وبذلك فلم تكن المشكلة هي إنفاذ الحكم ليتحدث متحدث بأن المسألة قد انكشفت قبل إنفاذه، أو أنها لم تكن واقعية بل كانت تمثيلية، بل المشكلة هي الخطأ في طريقة إجراء الحكم..

فلا بدّ من الإعتراف بأن مثل هذه الأخطاء لا تتنافى مع مقام النبوّة، لا سيّما إذا كانت الأمور جارية في بداياتها مما قد يراد به الوقوع في الخطأ من أجل أن يكون ذلك بمثابة الصدمة القويّة التي تمنع عن الخطأ في المستقبل».

وتابع هذا البعض فقال:

«وقد أكّد الإمام الرضا «عليه السلام» ـ ذلك ـ فيما روي عنه في عيون أخبار الرضا، قال الراوي وهو يسأله عن خطيئة داود «عليه السلام»: يا بن رسول الله ما كانت خطيئته فقال: ويحك إن داود إنما

---

(١) الآية ٢٥ من سورة ص.

ظن أنه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه، فبعث الله إليه الملكين فتسوّرا المحراب فقالا: (**خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**)(١). فعجّل داود على المدعى عليه فقال: (**لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ**)(٢)، ولم يسأل المدعي البيّنة على ذلك، ولم يقبل على المدعى عليه، فيقول له: ما تقول؟! فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه.

وقد ذكرنا في هذا التفسير: أن علينا أن نأخذ الفكر في طبيعة العقيدة من نصوص القرآن الظاهرة، لا من أفكار خارجة عنه، مما قد تتحرك به الفلسفات غير الدقيقة»(٣).

آيات حكم داود ×:

قال الله تعالى: (**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى**

---

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة ص.

(٢) الآية ٢٤ من سورة ص.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٩ ص٢٧٨.

دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (١).

وقفة قصيرة:

قد ذكر العلامة الطباطبائي أن اكثر المفسرين يقولون: إن الخصمين كانا من الملائكة، وأيّد رحمه الله ذلك ببعض الشواهد، فلم يكن هناك نعجة ولا متخاصمان في عالم المادة، لأن القضية إنما هي في ظرف التمثل، ولا تكليف هناك، فلا توجد خطيئة ولا حكم، ولا غير ذلك في عالم الشهود..

وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين كانا بشراً، فينبغي أن يؤخذ قوله تعالى: (**لَقَدْ ظَلَمَكَ**) الآية.. قضاء تقديرياً، أي

---

(١) الآيات ١٧ ـ ٢٦ من سورة ص.

إنك مظلوم لو لم يأت خصمك بحجةٍ بيّنة (١).

وإنما ذلك للحفاظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل: أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله، لا يجوز عليهم لا كبيرة ولا صغيرة، على أن الله صرّح قبل هذا بأنّه آتاه الحكمة، وفصل الخطاب، ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء (٢).

ولو أغمضنا النظر عمّا قاله العلاّمة الطباطبائي فإننا نقول:

١ ـ إن افتراض الخطأ في ما جرى لداود «عليه السلام» على النحو الذي يقوله ذلك البعض، معناه عدم مصداقيّة كونه أسوة وقدوة، ومعناه أنه يحكم بين الناس بغير الحق، وأنه يتبع الهوى في أحكامه مما ترتب عليه آثار سلبية باعترافه هو نفسه، لكنه قال إنها غير أكيدة، مع أن الله سبحانه قد قال عن داود: (**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**) (٣). ثم تلتها الآيات التي تتحدث عن نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب وذلك، يشير إلى أن الآيات التي تحدثت عن قضية النعاج التسعة والتسعين لم يرد الله منها تخطئة داود «عليه السلام»، فإن من آتاه الله فصل الخطاب ـ الذي هو تفكيك الكلام

---

(١) فكأنه قال له: أرأيت لو كنا واحتكمنا اليك.. فقال له انك مظلوم لو لم يأت خصمك بحجة بينة.

(٢) راجع: تفسير الميزان ج١٧ ص١٩٣ ـ ١٩٤ وراجع تنزيه الأنبياء ص١٢٧ ـ ١٣٠.

(٣) الآية ٢٠ من سورة ص.

الحاصل من مخاطبة واحد لغيره، وتمييز حقه من باطله، وينطبق على القضاء ـ لا يعقل أن يخطئ في نفس ما آتاه الله إيّاه.

أضف إلى ما تقدّم: أن دعوى: كون داود «عليه السلام» قد استعجل في الحكم انسياقا مع عاطفته، أو نحو ذلك ينافي الحكمة التي آتاه الله إياها، لأنها وضع الشيء في موضعه، كما أنه ينافي القضاء العادل بالحق الذي أعطاه الله إيّاه أيضاً..

٢ ـ إنّه يلاحظ: أن أحد الخصمين قد طرح سؤالا لا يتضمن ادعاء ملكية، ولا يتضمن شيئاً خلاف الشرع، حيث ادعى أن أخاه صاحب التسعة والتسعين نعجة قد طلب منه أن يجعلها تحت تكفله، وألحّ عليه في ذلك، ولم يدّع أنّه اغتصبها منه، أو أنه ادّعى ملكيتها، أو أي شيء آخر، ومجرّد طلب تكفّل شيء للاستفادة من منافعه ليس حراما..

٣ ـ إن قول داود «عليه السلام»: **(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)** [١]، لا يدلّ على أنه كان في مقام إصدار حكم. إذ يمكن أن يكون ذلك مجرد إخبار له بالواقع الذي عرفه داود «عليه السلام» عن طريق الوحي أو عن أي طريق آخر..

٤ ـ وأما قوله تعالى: **(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ)** [٢]. فيراد به ـ

---

(١) الآية ٢٥ من سورة ص.

(٢) الآية ٢٤ من سورة ص.

والله أعلم ـ: أنه ظن أن الله سبحانه قد أرسل إليه من يسأله هذا السؤال، وقد أراد سبحانه امتحانه بذلك، كما انه قد ظن أن مبادرته إلى إخبار السائل بما علمه لم تكن هي المطلوب، بل لعل المطلوب هو رسم الحكم بطريقة محاكمة قضائية.

وهكذا يتضح: أنه لا يصح قول هذا البعض: إن داود لم يستطع النجاح في هذه الفتنة، فأخطأ.

٥ ـ وربما يكون المتخاصمان قد تخيّلا أن ما قاله داود «عليه السلام» قد كان حكماً قضائياً منه، من موقع كونه حاكماً وقاضياً، لا إخباراً عن معرفة حصلت له من موقع كونه نبياً، لا سيّما وأنهما قد طلبا منه أن يحكم بينهما، فأخبرهما بالواقع، ولم يستجب لطلبهما بإصدار الحكم..

ولعل هذا هو السبب في عدم اعتراض صاحب النعاج التسعة والتسعين، وعدم دفاعه عن نفسه، ولم يذكّر داود «عليه السلام» بأن له الحق بذلك.

والنتيجة لما تقدّم هي:

ألف: إن من الطبيعي أن يفكر داود «عليه السلام» بأن هذه القضية قد تكون امتحانا له، فطلب من الله سبحانه أن يستر له ما قد يراه الناس تقصيرا، وهو ليس كذلك في الواقع، وأن يعود عليه بالرحمات والألطاف، فكان له ما أراد.

ب: إن داود «عليه السلام» لم يبادر إلى تشكيل محكمة لفصل

القضية قضائيا، بل اكتفى بإخبار الخصمين بحكم المسألة. وأخيرا فالرواية إن كانت موافقة لحكم العقل القطعي فلا مانع من الأخذ بها، وإلا فهي مطروحة أو مؤولة، ولا فرق في ذلك بين كونها صحيحة السند أو لا.

ولا ننسى الإشارة أخيراً إلى تناقض كلامه عن آدم «عليه السلام» في هذا المقام حيث نفى عنه المعصية هنا، مع كلامه المتقدم في صدر الكتاب

والذي قال فيه: إن معصية آدم كمعصية إبليس.

٤١٠ ـ «إستعراض الخيل» شغل سليمان «عليه السلام» ففاتته الصلاة.

٤١١ ـ نقاط الضعف في الأنبياء لا تنافي العصمة.

٤١٢ ـ سليمان ابتعد عن الخط الرسالي قليلا.

٤١٣ ـ الضغط الإلهي أعاد سليمان «عليه السلام» إلى الخط.

٤١٤ ـ سليمان «عليه السلام» يضرب أعناق الخيل وسوقها ليؤلم نفسه فيما تحبه.

يقول البعض عن سليمان «عليه السلام» في تفسير قوله تعالى: **(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)** (١):

«المراد بالخير: الخيل، فيما قد تطلق عليه هذه الكلمة من

---

(١) الآية ٣١ من سورة ص.

المعنى، وبذلك يكون المعنى، أنه استبدل حب الخيل عن ذكر الله حتى شغل عن صلاته **(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)**(١). أي حتى غابت الشمس، وفاتته صلاة العصر بسبب ذلك.. وهذا هو المشهور بين المفسرين، من أن استعراض الخيل أمامه امتدّ بحيث شغله عن صلاته.

وقد أثار بعض المفسرين احتمال تعلق (وحبه لها **(عَنْ ذِكْرِ رَبِّي)**)، بـ **(حُبَّ الْخَيْرِ)** بلحاظ انطلاقه عن أمر الله، ليكون استعراضه لها وحبه لها عملا عباديّا ليتهيّأ بها للجهاد في سبيل الله، وبذلك يكون الشاغل له عن عبادة الله، عملا يختزن في داخله عبادة الله.

ولعل الأساس في هذا التوجيه التفسيري، هو الخروج بعمل سليمان عن كونه مخالفا لموقعه الرسالي، في انشغاله باستعراض الخير عن عبادة الله الواجبة في وقت معين..

ولكن ذلك لا يفيد شيئاً في هذا الجانب، لأن صلاة العصر إذا كانت موقتةً بوقت معين، بحيث يذهب وقتها بغروب الشمس وتواريها بالحجاب، كما يظهر من بعض الروايات، فإن الإنشغال عنها المؤدي إلى تركها، بعمل آخر مرضي لله، موسّع في وقته، غير مبرر شرعاً.

ولهذا فقد يكون من الأقرب إبقاء الآية على ظاهرها الذي يوحي بان سليمان كان في مقام توبيخ نفسه أو الاعتذار إلى الله عما حدث

---

(١) الآية ٣٢ من سورة ص.

له، مما لا يتناسب مع التوجيه المذكور الذي قد لا يكون له معنى، إلا أن يقال، إن ذلك بلحاظ أهمية الصلاة وبذلك يكون قد قدم المهم على الأهم في الوقت الذي يتسع لها جميعا، مع كون تقديم الصلاة أفضل، بلحاظ الوقت..

كيف نفهم حدود العصمة؟!:

وقد نلاحظ في هذا المجال، أن مسألة حدود العصمة، فيما يراد من خلاله تأكيد القيمة الأخلاقية المنفتحة على الله في القيام بما يحقق رضاه في أفق محبته.. لا يكفي فيها التركيز على ترك المعصية، بل لا بد فيها من الإنفتاح على العمق الروحي الذي يتناسب مع قيمة النبوّة في جانب القدوة الرسالية منها..

..وقد ينبغي دراسة الأسس التي يحاول الكلاميون الذين يتبنّون مسألة عصمة الأنبياء بالشكل المطلق، لنتعرف ماذا يمكن لنا أن نواجه به الظواهر القرآنية التي تمنح الجانب الإنساني قيمةً واقعية في تقييم شخصية النبي، بالمستوى الذي لا يبتعد عن الإخلاص في الصدق الواعي في خط الرسالة، مع إفساح المجال لبعض نقاط الضعف الإنساني أن تنفذ إلى حياته، بشكل جزئيٍّ طبيعيّ..

(رُدُّوهَا عَلَيَّ) أي الخيل ـ على ما هو الظاهر ـ في عملية استعادة للإستعراض ولكن بروحية أخرى **(فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ**

وَالْأَعْنَاقِ) (١). قيل في معناه: إنه شرع يمسح بيده مسحا بسوقها وأعناقها ويجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة.

وقيل: المراد بمسح أعناق الخيل وسوقها ضربها بالسيف وقطعها، والمسح القطع، فهو، غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردّها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعاً».

ويتابع البعض كلامه فيقول:

«ويعلق صاحب الميزان على هذا الوجه بأن هذا الفعل مما تتنزه عنه ساحة الأنبياء عليهم السلام فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم» (٢).

«ويذكر في موضع آخر (٣): أن الروايات التي تؤكد على هذه القصة بهذا الشكل تنتهي إلى كعب الأحبار، بالإضافة إلى الإغراق في التفاصيل التي تدخل في دائرة الأعاجيب.

أمّا تعليقنا على ذلك، فان الظاهر من الآية قد يؤكد فكرة ضرب أعناقها وسوقها، لأن مسألة تسبيلها في سبيل الله لا يتوقف على ردها عليه وكما أنه لا يفسر مسح أعناقها وسوقها، فان من المتعارف مسح

---

(١) الآية ٣٣ من سورة ص.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ج١٧ ص٢٠٤.

(٣) نفس المصدر ص٢٠٧.

الخيل على نواصيها كما أن هذه الروايات تلتقي مع ظهور الآية في ردّ الفعل الذي قام به سليمان إزاء انشغاله بها عن الصلاة، مما جعله يفكر بالخلاص منها بقتلها، من غير ضرورة لأن يكون ذلك على سبيل الإنتقام منها، أو إتلافها كمالٍ محترم لا يجوز إتلافه بل قد يكون ذلك بمثابة ضغط على نفسه التي أحبت الخيل بهذا المستوى الأمر الذي يريد إيلامها فيما تحبه بهذه الطريقة، مع ملاحظة أن ذلك حلال في شريعته لأن الخيل كانت تذبح كالأنعام، للطعام، والله العالم.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا) إن هذه الآية توحي بوجود فتنة واختبار في حياة سليمان، لتوجيه بعض أوضاعه التي يريد الله له أن يركزها على أساس من الإستقامة في الفكر والعمل، فيما يبتلي الله به عباده ورسله من أجل أن يربيهم على الثبات في مواقع الإهتزاز من خلال حركة التجربة في الواقع العملي في حياتهم التي يراد لها أن تطل على حياة الآخرين من موقع القيادة الرسالية.. وربما توحي الآية من خلال قوله: **(ثُمَّ أَنَابَ)**(١)، بأنه ابتعد عن الخط قليلاً، فيما هو القرب السلوكي من الله، ثم عاد إليه بعد أن رأى الضغط عليه، فيما ابتلاه به من ناحية فعلية»(٢).

(١) الآية ٣٤ من سورة ص.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٩ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٤.

عرض الآيات:

قال الله تعالى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)(١).

وقفة قصيرة:

إننا بالنسبة إلى الآيات الشريفة، نذكر القارئ بما يلي:

١ ـ قال السيد المرتضى: ظاهر الآية لا يدل على إضافة قبيح إلى النبي، والرواية إذا كانت مخالفة لما تقتضيه الأدلة لا يلتفت إليها لو كانت قوية ظاهرة فكيف إذا كانت ضعيفة واهية(٢).

٢ ـ وإذا رجعنا إلى الآيات الكريمة نفسها نجدها تصرح بأ عرض الخيل على سليمان «عليه السلام» قد كان بالعشي، ولا دلالة فيها على أن العرض قد حصل في حين كانت الشمس ظاهرة..

(١) الآيات ٣٠ ـ ٤٠ من سورة ص.

(٢) تنزيه الأنبياء ص١٣٢ والبحار ج ١٤ ص١٠٢.

٣ ـ إن ضمير ردّوها يرجع إلى الصافنات (وهي الخيل) وكذلك ضمير توارت بالحجاب، فما معنى إرجاع الضمير إلى الشمس، وهي لم تذكر في الكلام..

٤ ـ إن عبارة: **(إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ)** قد أريد به بيان نوع الحب الذي أحبّه، فهو لم يحب حب الشهوات، أو حب الدنيا الذي هو باطل وغير مشروع، بل كان حبه من نوع حب الخير، إذن، فليست كلمة **(حُبَّ الْخَيْرِ)** مفعولاً به (لأحببت).

وقوله: **(عَنْ ذِكْرِ رَبِّي)** يان لمنشأ ذلك الحب، وأنه حب ناشئ عن ذكر الله سبحانه..

٥ ـ إن قول سليمان «عليه السلام»: **(إِنِّي أَحْبَبْتُ)** الآية.. قد جاء تفريعاً بالفاء على قوله:**(عُرِضَ)**.. أي أن الخيل عرضت عليه، فقال هذا القول، ولعله ليدفع أي تصور خاطئ عنه يريد أن يتهمه بأن استعراضه للخيل قد كان من منطلق حب الهوى وحب الدنيا ولذّاتها، فأوضح لهم سليمان «عليه السلام»: أن الأمر ليس كذلك، بل هو من منطلق حب آخر، هو حب الخير، وتقوية الدين، لأن الخيل من أهم وسائل الجهاد، ومن أسباب القوة للمؤمنين على أعدائهم.

٦ ـ وحين انتهى العرض، أمر الموكلين بالخيل: بأن يردّوها عليه، فطفق يمسح سوقها وأعناقها إيناسا لها، وتحببا وإعجاباً بها.

٧ ـ وقد ظهر مما تقدّم: أنه ليس في الآيات ما يشير إلى قتل الخيل.

٨ ـ إن تعلق نفس سليمان بالخيل، لا يخوله أن يقطع قوائمها ورؤوسها، فهل يصح أن يكون هو المذنب، والخيل هي التي تعاقب؟!!

٩ ـ قال السيد المرتضى: إن الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه والثناء عليه، فقال: **(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** (١)، وليس يجوز أن يثني عليه بهذا الثناء، ثم يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه، وأنه تلهّى بعرض الخيل عن فعل المفروض عليه من الصلاة (٢).

١٠ ـ هل يمكن لنبي معصوم أن ينسى واجباً مكلفاً به إذا كان أهم من العمل الذي يتصدى له؟! وإذا لم يكن أهم فلماذا يقطع أرجل الخيل ورؤوسها؟!

١١ ـ لو كان المقصود: أنه آثر حب الخيل وقدّمه على ذكر ربه، فالمناسب أن يأتي بكلمة «على» لا بكلمة «عن».

٤١٥ ـ الولاية التكوينية لسليمان: «خدمات غير عادية».

٤١٦ ـ سليمان احتاج هذه الخدمات لمشاريعه العمرانية وتنقلاته، وحاجاته الإنسانية والاجتماعية.

ونقول:

يقول البعض عما أكرم الله به نبيه سليمان بن داود «عليه

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ص.

(٢) تنزيه الأنبياء ص١٣٢ والبحار ج١٤ ص١٠٢.

السلام»:

«..وهذه إطلالة سريعة على النبي سليمان الذي جعل الله له ميزة معينة في الخدمات غير العادية التي هيأها الله له فيما كان يحتاجه لتنقلاته أو مشاريعه العمرانية، أو في حاجاته الإنسانية والاجتماعية..».

وقفة قصيرة:

نلاحظ هنا أمرين:

أحدهما: أنه سمى الولاية التكوينية لنبي الله سليمان «عليه السلام» بـ «الخدمات غير العادية»..

ثانيهما: أنه جعل ذلك من باب الخدمات التي يحتاجها سليمان «عليه السلام» في تنقلاته وفي مشاريعه العمرانية الخ..

والسؤال هو: هل كان لدى سليمان «عليه السلام» حاجات إنسانية اجتماعية، ولم يكن لدى غيره من الأنبياء حاجات كهذه؟!

وهل كان سليمان «عليه السلام» بحاجة إلى تنقلات، ولم يكن غيره من الأنبياء بحاجة إلى ذلك؟!

وهل كان لدى سليمان «عليه السلام» مشاريع عمرانية، ولم يكن لدى أي من الأنبياء حتى نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» مثل هذه المشاريع؟!

وإذا كانت بشرية سليمان «عليه السلام» لم تمنعه من الحصول

على هذه الخدمات غير العادية، فهل إن بشرية نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» قد منعته منها؟!

وما هو الفرق بين بشرية هذا وذاك يا ترى؟!

هذا.. وأين التحدي في كل هذه الخدمات غير العادية المعجزة؟! فإذا كانت المعجزة لا تحصل في غير موارد التحدي ـ كما صرح به البعض ـ فلماذا حصلت كل هذه المعجزات لسليمان ولداود «عليهما السلام»؟!

٤١٧ ـ معركة أو (إشكال) بين الله تعالى والنبي زكريا.

٤١٨ ـ زكريا يعتقد باستحالة أن يولد له.

٤١٩ ـ فوجئ زكريا، لأنه لم يحسب أن يتم الأمر بهذه السهولة.

٤٢٠ ـ ربما يتصور أن دعاءه مجرد تمنيات.

٤٢١ ـ زكريا ينطلق في سؤاله ربه بما يشبه الصراخ العنيف.

٤٢٢ ـ زكريا يعتقد: أن الله لا يتدخل في الأمور بشكل غير عادي.

٤٢٣ ـ زكريا لا يطمئن إلى أن ما يلقى إليه هو الوحي إلا بآية ومعجزة.

٤٢٤ ـ زكريا يتفاجأ بالقدرة الإلهية في مخالفة السنن.

يقول البعض:

«..(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ

سَمِيًّا) (١) ، فقد أراد الله: أن لا يخيّب أملك فيه ورجاءك في رحمته فرزقك ولداً ذكراً سوياً، ومنحه اسماً لم يحمّله أحداً من قبله.. فماذا تريد بعد ذلك؟! وقد أكرمك الله بكرامته التي يكرم بها عباده الصالحين، وأنبياءه المرسلين..

زكريا يتساءل متعجباً:

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) (٢) ، فقد غيرني الزمان إلى الحالة التي لم يبق لي معها شيء من الحيوية تماماً، كالعود اليابس الذي لا خضرة فيه ولا حياة، فكيف أن أهب الحياة لغيري في مثل هذه الظروف المستحيلة؟! وكأن زكريا قد فوجئ بأمر لم يكن منتظراً، لأنه لم يحسب أن المسألة تتم بمثل هذه السهولة، وأن الدعاء يستجاب بهذه السرعة، وأن ما كان مستحيلاً في نظره أصبح واقعاً في حياته.. وربما كان يتصور: أن دعاءه بالولد يدخل في نطاق التمنيات التي يتحدث بها الإنسان إلى ربه، من دون أن يكون له طمع كبير في حصولها، لا لأنه يشك في قدرة الله على ذلك، بل لأنه لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور بشكل غير عادى لمصلحة شخص معين، بعد أن جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة.. وهذا

---

(١) الآية ٧ من سورة مريم.

(٢) الآية ٨ من سورة مريم.

هو ما جعل السؤال ينطلق منه فيما يشبه الصراخ العنيف، فيما توحي به الآية **(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)**[(١)].

وهذا هو ما سمعه من الصوت الخفي الذي كان يتحدث إليه من دون أن يرى أحداً أمامه.. فليس هو الله الذي كان يكلمه، بل هو شخص آخر غير الله، قد يكون ملكاً، أو يكون أي شيء آخر **(هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)**، فلن يصعب على الله أن يبدع الحيوية فيك وفي زوجتك لتستطيعا إنجاب ولد، بعد هذا العمر الطويل **(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)**[(٢)]، فكيف تواجه المسألة بما يشبه المفاجأة؟!

وربما أراد زكريا أن يعيش الطمأنينة القلبية التي توحي إليه: بأن هذا الوحي الذي يلقى إليه بالواسطة، فيما يسمع من صوت، لا يرى صاحبه، هو وحي الله، فأراد أن يستوثق لقناعته، فطلب آية لا يستطيع غير الله أن يحققها، لأنها تتصل بوحدانية القدرة لديه.

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) ترتاح إليها نفسي، ويطمئن لها قلبي، فأعرف أن هذه البشارة، المعجزة، هي منك، وحدك، لا من غيرك لتكون المعجزة في حياتي هي الدليل على المعجزة القادمة و **(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)**[(٣)]، وذلك بأن يحتبس لسانك،

---

(١) الآية ٩ من سورة مريم.

(٢) الآية ٩ من سورة مريم.

(٣) الآية ١٠ من سورة مريم.

فلا تقدر على النطق في هذه المدة، من دون علة أو صدمة، ولكن بقدرة الله، فتلك هي الآية المطلوبة في الدلالة على أن كل ما بك وما ينتظرك فهو من الله» (١).

وقفة قصيرة:

إن هذا البعض يطرح أموراً لم نعرف ما هي المبررات لطرحه لها بهذه الطريقة، فنلاحظ ما يلي:

١ ـ إنه يذكر: أن زكريا «عليه السلام» لم يطمئن إلى أن ذلك الذي يكلمه هو ملك يوحى إليه من عند الله، حتى طلب معجزة تركّز عنده القناعة، وترتاح إليها نفسه، فكان له ما أراد..

وهذا الأمر يطرح أموراً:

أولها: إن ذلك يجعل كثيراً من موارد الوحي المشابه تتطلب إظهار معجزة تبعث الطمأنينة في نفس الموحى إليه في أن يكون الذي يكلمه هو جبرئيل.

الثاني: إننا لم نعرف من أين عرف ذلك البعض: أن طلب الآية قد كان لأجل الحصول على الطمأنينة لزكريا «عليه السلام» بحقيقة الوحي؟!

فلعل الآية كانت لأجل أمر، أو أمور أخرى غير ذلك، مثل: أن يقنع قومه بالحقيقة التي سيفاجئهم بها.

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٥ ص ١٦ ـ ١٨

الثالث: من أين عرف ذلك البعض: أن زكريا «عليه السلام» لم يكن يعرف طبيعة الذي كان يكلمه، هل كان ملكاً أو غيرها؟! ومن أين عرف ذلك البعض أيضاً: أنه كان على شكل صوت لا يرى صاحبه؟! فليس في الآية ما يدل على ذلك.

ومن الممكن أن يكون ذلك الوحي قد جاء به الملك الذي يعرفه، ولم يزل يأتيه طيلة عشرات السنين التي مضت من نبوته، حيث كان قد بلغ **(مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا)** (١)، حسب نص الآيات القرآنية التي هي مورد البحث.

على أن قوله في الآية: **(كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)** (٢). ليس بالضرورة أن يقوله غير الله، فلعل ربه هو الذي كلمه بهذه الطريقة.

٢ ـ من أين عرف ذلك البعض: أن السؤال قد انطلق من زكريا بما يشبه الصراخ العنيف.. فيما توحي الآية!! حتى إن المرء ليخال: أن ثمة مشادة أو معركة كلامية يفتعلها زكريا «عليه السلام» مع أنه في مقام يتكلم فيه مع ربه، والمقام مقام بشارة؟!

ولا ندري كيف انتهى هذا الإشكال دون عزل زكريا عن منصبه؟!

وكيف توحي الآية بذلك؟! وأي كلماتها يوحي بالصراخ العنيف؟!

---

(١) الآية ٨ من سورة مريم.

(٢) الآية ٩ من سورة مريم.

٣ ـ من أين عرف: أن زكريا «عليه السلام» كان لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور بشكل غير عادي لمصلحة شخص معين؟! فلعله كان يعتقد: أنه تعالى يفعل ذلك، لكنه أراد بسؤاله أن يعرف إن كانت حالته ستكون هي الأخرى من بين مفردات ذلك أم لا..

ومن الواضح: أن زكريا «عليه السلام» كان يعرف أن ولادة إسماعيل «عليه السلام» كانت بعد شيخوخة أبيه إبراهيم.

وكان يعرف أيضاً: أن النار كانت برداً وسلاماً على إبراهيم، حينما ألقي إبراهيم فيها.

ويعرف أيضاً: ما جرى لمريم «عليها السلام»، وهي ترى المعجزات حين حملها بعيسى «عليه السلام» وولادتها له، كتساقط الرطب الجنيّ عليها في غير أوانه.. وأوضح من هذا كله: أنه «عليه السلام» كان كلما دخل على مريم المحراب **(وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً..)** (١).

..وهو نفسه يعرف قصة يونس والحوت، ويعرف ما جرى لأهل الكهف، وغير ذلك مما لا يكاد يحصى..

٤ ـ وأما قوله: إنه كان يعتقد باستحالة أن يولد له، ثم قوله: إنه

---

(١) الآيتان ٣٨ و ٣٨ من سورة عمران.

ربما كان يتصور أن دعاءه بالولد كان يدخل في نطاق التمنيات.. من دون أن يكون له طمع كبير في حصولها. ثم قوله: إن زكريا كان يعتقد: أن الله قد جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة.

إن ذلك كله يرد عليه: أن من يعتقد ذلك لا يمكن أن يكون له أدنى طمع في استجابة دعائه. فما معنى ذلك الدعاء إذن؟! وما هو المبرر لتلك التمنيات التي تصبح مجرد خيالات لا مورد لها من نبي يفترض فيه أن يفكر فيما ينفع ويجدي؟!

٥ ـ لا نعرف المبرر لأن يكون زكريا «عليه السلام»: «لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور بشكل غير عادي لمصلحة شخص معين، بعد أن جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة».

ومن قال: إن ما حصل له كان منافياً للسنن الكونية؟!

فهل كان زكريا يجهل كل تلك التدخلات الغيبية في الشؤون العامة والخاصة التي لا تكاد تحصى، بدءاً من قضية الطوفان ومروراً بما جرى على إبراهيم «عليه السلام»، وموسى «عليه السلام»، وعيسى «عليه السلام»، ونوح «عليه السلام»، ويونس «عليه السلام»، ولوط «عليه السلام»، وصالح «عليه السلام»، وسليمان «عليه السلام»، وداود «عليه السلام».. وغير ذلك مما ذكره الكتاب العزيز؟!

أم أنه «عليه السلام» كان ـ والعياذ بالله ـ يذهب مذهب اليهود والضالين الذين قال الله عنهم:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)؟! (١) .

٤٢٥ ـ يحيى ليس نبياً.

يقول البعض:

«أولئك الذين أنعم الله عليهم فكيف جزاء من بعدهم:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) (٢) .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وهم هؤلاء الذين تقدمت الإشارة إليهم، فيما قصه الله من أمرهم، بالإجمال أو التفصيل، وهم زكريا

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) الآيات ٥٨ ـ ٦٣ من سورة مريم.

ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس الذين انعم الله عليهم بالإيمان الخالص التوحيدي الذي ينفتح على الله بروحية العبد الطائع الذي أخلص لله في العقيدة، وفي الطاعة واعطى من فكره وعمله الرضا لله، فلم يغضب عليه لتمرده ولا لضلاله ومن النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح من البقية الصالحة من المؤمنين الخالصين الذين آمنوا بنوح النبي واتبعوه من ذرية ابراهيم واسرائيل الذين امتدت النبوة فيهم وتحولت إلى خط متحرك في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله **(وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا)** من الذين هداهم الله بما أفاض عليهم من نور البصيرة، وانفتاح العقل، وصفاء الروح، ومسؤولية الحركة، واستقامة الطريق، ووضوح الهدف، وتقوى الفكر والعمل.

وقد يكون المراد من كل هؤلاء هم النبيون الذين أنعم الله كما قد يلوح من عنوان الآية التي حددت المشار إليهم بالنبيين، ولكننا عندما نلاحظ ذكر اسم مريم، ويحيى، وهماً ليسا من الأنبياء فقد نستوحي من ذلك ان المسألة اشمل من ذلك وتكون الإشارة إلى هؤلاء على أساس انهم يمثلون النموذج الأكمل للمهتدين الذين انعم الله عليهم بالإيمان والتقوى، واجتباهم لرسالته ولدينه **(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)** فيما يمثله السجود من خضوع لله في الشعور العميق بالعبودية، وفيما يعبر عنه البكاء من إحساس بالروحية الفياضة الخاشعة إمام خوف الله، ومحبته في انفعال إيماني

عميق بالمضمون الروحي لآيات الله، والإشراق الفكري لمعانيها.. وهكذا كان هؤلاء الرواد طليعة البشرية» (١).

وقفة قصيرة:

ومن الواضح: أن يحيى «عليه السلام» كان من أنبياء الله المرسلين، كما صرح به القرآن، حيث يقول لزكريا: (**أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**) (٢). وراجع الآيات التي نزلت في سورة الأنعام (٨٣ ـ ٩٠) حيث عدت يحيى «عليه السلام» في جملة الأنبياء.

هذا البعض يرى: أن يحيى «عليه السلام» لم يكن نبياً. وذلك مخالف لصريح القرآن، ولإجماع المسلمين كافة.

ولا ندري السبب في حكمه هذا، وقد كان يحيى «عليه السلام» معاصراً لعيسى «عليه السلام»..

٤٢٦ ـ إنكار نبوة عيسى وهو في المهد صبياً.

٤٢٧ ـ رد كلام الأئمة في الاستدلال بالآية على إمامة الجواد «عليه السلام».

يقول البعض:

---

(١) من حي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٥ص٦٠ ـ ٦١.

(٢) الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

«..**(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)** (١). وهكذا أراد أن يتحدث إليهم عن صفته المستقبلية فيما يريد الله أن يمارس من دور أو يقوم به من مسؤولية، فهو مهما أحاط به من أسرار في خلقه وفي قدراته لا يبتعد عن عبوديته لله» (٢).

وقفة قصيرة:

إن من الواضح أن كلمة: **(آتَانِيَ الْكِتَابَ)** تدل على أن ذلك قد حصل في الماضي. أي أن الله سبحانه قد أعطاه ذلك في وقت سابق على موقفه هذا الذي يكلمهم فيه.

وقد استدل الأئمة «عليهم السلام» بهذه الآية بالذات على إمامة الإمام الجواد «عليه السلام» في صغره وفقا لما هو ظاهرها الذي هو حجة فراجع (٣).

كما أنه لا شك في صلاحيتها للاستدلال على إمامة الإمامين الهادي والمهدي «عليهما السلام»، فتأمل وتنبّه.

أضف إلى ذلك: أن كلمة: جعلني، وآتاني إذا كانت تتحدث عن

---

(١) الآية ٣٠ من سورة مريم.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٥ص٣٧.

(٣) راجع الكافي ج١ ص ٣٢٢ و ٤٩٤ و ٣٨٤ و ٣٨٢ و ٣٨٣ وبحار الانوار ج ٥٠ ص ٢٣ و ٢٤ و ٣٤ وراجع ص ٢١ و ٣٥.

المستقبل، فإن قوله: **(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا)**(١) أيضاً هي إخبار عن المستقبل، وهي تشعر بنفي البركة الفعلية عنه، مع أن كونه مباركا بالفعل وفي كل لحظات حياته، مما لا شك فيه ولا شبهة تعتريه، فلماذا هذا الإشعار بأمر لا حقيقة له؟!

فما معنى حمل الآية: على أن عيسى «عليه السلام» أراد أن يخبرهم عن أنه سيحصل على درجة النبوة في المستقبل. وأن الله سيؤتيه الكتاب، وسيجعله نبياً. وقد كان بالإمكان أن يقول: سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبياً، وسيجعلني مباركاً. مع عدم وجود قرينة حالية ولا مقالية على إرادة زمن الاستقبال في الآية؟!

بل في صحيحة يزيد الكناسي قال:

«سألت أبا جعفر «عليه السلام» أكان عيسى بن مريم «عليها السلام» حين تكلم في المهد حجّة لله على أهل زمانه؟!

فقال: كان يومئذ نبياً حجّة لله غير مرسل. أما تسمع لقوله حين قال: **إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)**(٢)»(٣) ..

---

(١) الآية ٣١ من سورة مريم.

(٢) الآيتان ٣٠ و ٣١ من سورة مريم.

(٣) الكافي ج ١ ص ٣٨٢ و ٣٨٣.

القسم الثاني

النبي الأكرم محمد ‘

الفصل الأول

ثقافة!! ومعارف نبينا الأعظم ‘

٤٢٨ ـ النبي لا يعرف اللغات.

٤٢٩ ـ النبوة لا تقتضي التفوق المطلق في كل شيء.

٤٣٠ ـ لا مانع من التفوق كميزة شخصية لا كميزة نبوية قيمة.

٤٣١ ـ التفوق الشخصي في أكثر الصفات لا في جميعها.

يقول البعض:

«وتتحدث بعض الآيات عن موضوع العلم باللغات، لتشير إلى أن ذلك وارد بالنسبة إلى النبي، وذلك في قضية اتهام الكفار للنبي، بأن هناك إنساناً يقوم بتعليمه، فيجيء الرد القرآني عليها حاسماً، على أساس أن هذا الشخص الذي ينسبون إليه تعليم النبي من الأعجميين، بينما نجد القرآن عربياً مبيناً.. فكيف يمكن أن تصح التهمة.. ومن الطبيعي أن هذا الرد لا يصلح لإفحام الكفار إلا إذا كان النبي لا يعلم لغة هذا الأعجمي.. لأنه ـ في هذه الحالة ـ لا يستطيع أن يفهم منه، أو يقوم بمهمة الترجمة لما يمليه عليه ذلك من أحاديث التوراة والإنجيل وغيرهما؟!

قال تعالى: **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي**

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (١).

إننا نتحفظ في ذلك، في إطار الفكرة التي تربط النبوة بالتفوق المطلق في كل شيء، لأن النبوة لا تقتضي ذلك الذي يقررونه كله.. ولكننا لا نمانع في أن يكون للنبي أكثر الصفات المذكورة من ناحية واقعية موضوعية.. كميزة شخصية خاصة، لا كميزة نبوية حتمية في حساب الحكم العقلي القاطع ـ كما يقولون» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إن الآية التي استدل بها لا ربط لها بمسألة معرفة النبي «صلى الله عليه وآله» باللغات؛ لأنها إنما تتحدث عن دعواهم: أن هذا القرآن المعجز لهم في بلاغته الفائقة هو من صنع إنسان بعينه، فهو ليس وحياً من الله سبحانه، ولا هو من إنشاء النبي محمد «صلى الله عليه وآله»..

وكأنهم لا يريدون نسبة ذلك إليه، لأن ذلك يستبطن الإعتراف له بالتفوق عليهم، حين قام بما عجزوا هم عنه، كما أنهم يدعون: إن منشئ القرآن هو رجل أعجمي ـ وربما يقصدون أنه من أهل الكتاب، لأنهم كانوا مبهورين بهم، ويعتبرونهم هم مصدر المعارف الدينية،

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة النحل.

(٢) المعارج: ص ٦٥٦ و ٦٥٧ والحوار في القرآن ص ١٠٥.

وينظرون إليهم نظر التلميذ إلى معلمه، وعلى هذا الأساس فإنهم ينسبون ما جاءهم به من معارف دينية، وتفصيلات إيمانية وغيرها إليهم، على اعتبار أنه لابد أن يكون قد أخذه من واحد من هؤلاء.

فجاء الرد القرآني الإلهي على هذه الدعوى الزائفة ليقول: إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من إنشاء بشر، بل البشر يعجزون عنه، فكيف إذا كان هؤلاء البشر لا يعرفون اللغة العربية، وهذا القرآن لسان عربي مبين؟!.

ولم تتحدث الآية عن أمر الترجمة لما يمليه ذلك الأعجمي على النبي «صلى الله عليه وآله» من أحاديث التوراة والإنجيل.

٢ ـ ما هو المبرر لحكمه بأن النبوة لا تقتضي التفوق المطلق على سائر البشر من غير الأنبياء؟!، فإن النبوة إذا كانت اصطفاءً إلهياً، واجتباءً ربانياً، فما هو معنى أن يختار الله سبحانه ـ المفضول ويترك الفاضل؟! كما قرره هذا البعض ـ حسبما نقلناه عنه في هذا الكتاب ـ وكيف رجح ذاك على هذا؟!. ما دام أن من يرى لنفسه امتيازاً على غيره في أي مجال كان، ولو في مجال اللغات، سيجد في نفسه حالة من الترفع والإباء عن الإنقياد وإخلاص الطاعة لذلك الغير الأقل منه، ولن يكون ذلك السخي بكل شيء، حتى بروحه وولده امتثالا لأوامره.

بل سيجد نفسه غالياً ونفيساً لا يدرك الآخرون قيمته، ولذلك يفرطون فيه خصوصاً وأن ذلك النبي سيكون معذوراً بجهله، الذي اذا

فتح بابه فإن احتمالاته سوف ترد في مختلف الشؤون والحالات..

نقول هذا.. بغض النظر عما يستند إليه علماؤنا من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة، ومنها الروايات الكثيرة، والمتنوعة بدرجة كبيرة، مما دل على أكملية الأنبياء والأوصياء على البشر جميعاً في جميع الحالات والشؤون، وعلى تفوقهم عليهم في مختلف العلوم والفنون، حتى أن الله سبحانه قد علم أنبياءه حتى منطق الطير، والحيوان، وسخر لهم الريح، وعفاريت الجان.

ولهذا البحث مجال آخر..

٣ ـ إن الآية إنما تنفي علم النبي باللغات من خلال تعلمه إياها من البشر.. فلو أنه «صلى الله عليه وآله» قد علم اللغات بواسطة التعليم الإلهي، فإن ذلك يكون دليلا على ارتباطه بالغيب.. وكفى في ذلك دليلا على أنهم مبطلون في ما يوجهونه إليه من اتهامات.

وبنفس هذا التقرير نجيب على السؤال الذي يطرح عن أمّية النبي «صلى الله عليه وآله»، حيث نقول:

إن المقصود: هو أن الناس يرون أمّية رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإذا جاء وحي معجز، وعلم غيبي، واطلاع عظيم على أسرار الخلق والخليقة ومعرفة باللغات وعلم مفاجئ بالقراءة والكتابة فإن ذلك لابد أن يبهرهم، ويقهر عقولهم، ويضطرهم للبخوع والتصديق بنبوته، وليس المراد أنه لابد أن يبقى أمياً عاجزاً عن القراءة والكتابة إلى آخر حياته، كما ربما يتخيل البعض.

٤ ـ يضاف إلى جميع ذلك: أن العرب هم الذين ادعوا: أن أهل الكتاب قد علّموا النبي هذا القرآن، وإذا كان الذي قصدوه ذا لسان أعجمي، فإن الرد يكون عليهم، بأن هذا القرآن لسان عربي مبين، فكيف يحسن ذلك الأعجمي الترجمة بهذا المستوى من الإعجاز، ويعجز العربي نفسه عن إنشاء مثل هذا القرآن؟!

٤٣٢ ـ مهمة الأنبياء هي ـ فقط ـ التبشير والإنذار.

٤٣٣ ـ الله يعلم الأنبياء ما يحتاجونه في نبوتهم، لا أزيد من ذلك.

٤٣٤ ـ لا دليل على لزوم كون النبي «صلى الله عليه وآله» أعلم الأمة في كل شيء.

٤٣٥ ـ قد يعلم الله نبيه ما يحتاجه في مهمته الرسالية ـ وقد لا يعلمه ـ.

٤٣٦ ـ ليس من الضروري أن يعلم النبي علم الذرة والكيمياء.

٤٣٧ ـ علم الذرة والكيمياء والفيزياء، لا صلة لها برسالات الأنبياء.

سئل البعض:

النبي أو الإمام إما أن يكون هو الأعلم أو لا يكون، فإذا لم يكن الأعلم، فهناك من يستحق هذا المنصب غيره لأنه أعلم وأفضل منه.

وإن كان هو الأعلم، فبناء على ذلك يجب أن يكون أعلم أمته، وأعلم السابقين واللاحقين، وذلك طبعا بلطف من الله، وهذا يعني أيضاً أن يكون مستوعباً لآخر العلوم والمكتشفات، وبالتالي يكون لديه

علم الغيب، فكيف يكون ذلك؟!

فأجاب:

«نحن نتكلم استناداً إلى القرآن، فالله أرسل الأنبياء مبشرين، ومنذرين **(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)** (١)، **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)** (٢)، **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)** (٣)، والله يعلم نبيه، ويعلم أولياءه من الغيب، ما يحتاجونه في نبوتهم، وليس من الضروري أن يعلموا الغيب كله، كما يقول السيد المرتضى.. فليس من الضروري: أن يعلم النبي علم الذرة، وعلم الكيمياء، وعلم الفيزياء، لأنها ليست ذات صلة برسالتهم، أما وجوب ان يكون النبي أعلم الأمة، في كل شيء حتى ما لا علاقة له بمهمته الرسالية، ولكن الله قد يعلمه من ذلك ما يحتاجه فيه أو إذا أراد علم، فليس لدينا دليل على هذا» (٤).

وقفة قصيرة:

ونلاحظ هنا ما يلي:

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء.

(٣) الآيتان ٤٥ و ٤٦ من سورة الأحزاب.

(٤) الندوة: ج ١ ـ ص ٣٦٠.

١ ـ اذا كان الله سبحانه قد أرسل أنبياءه مبشرين ومنذرين، فلا يعني ذلك أن مهمتهم محصورة في ذلك.. وما ورد من ذلك في بعض الآيات القرآنية لابد أن يتكامل وينضم إلى ما ورد في الآيات الأخرى، كقوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**) (١) .

وفي هذا الكتاب تبيان كل شيء.

وقوله تعالى: (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**) (٢) .

وقال سبحانه: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**) (٣) .

والمراد بكافة للناس، أي من يكف الناس عن تجاوز الحدود..

وقال: (**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**) (٤) .

وقال: (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ**) (٥) .

---

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الحديد.

(٣) الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(٤) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٥) الاية ١ من سورة الأنفال.

وقال سبحانه: **(كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)** (١).

وكل ذلك يدل على أن مهمة الأنبياء لا تقتصر على التبشير والإنذار، بل فيها سلطة، وتحتاج إلى نصرة بالغيب. وسيكون فيها غلبة من موقع العزة والقوة.. كما أن جعل الأنفال والخمس لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، واعتباره كافة ومانعاً للناس عن تجاوز الحدود، وإعطاءه مقام الشفاعة، وإعطاءه مقام الشهادة على الخلق.. إن كل ذلك وسواه مما يضيق المقام عن تعداده. يعني: أن النبي ليس مجرد بشير ونذير، وشهادته على الخلق تستدعي أن يملك قدرات يستطيع من خلالها أن يطلع على أعمال الخلائق الجوارحية والجوانحية، ومنها: عقائدهم، ونواياهم، وأحاسيسهم، ومشاعرهم، من حب، وبغض، وحقد، وحسد، ورأفة، وقسوة قلب، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأمر والنهي.. وذلك ليستطيع أن يشهد عليهم، **(رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ)** (٢)، **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)** (٣) وكذلك الإمام، وكذلك السيدة الزهراء «عليها السلام» باعتراف هذا البعض، ولأجل ذلك، فإننا لا نستغرب إذا سمعنا، وقرأنا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يرى من خلفه، كما يرى

---

(١) الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٢) الآية ١٥ من سورة المزمل.

(٣) الآية ٤٥ من سورة الأحزاب، والآية ٨ من سورة الفتح.

من أمامه، وأنه تنام عيناه، ولا ينام قلبه.. وأنه يرفع للإمام عمود من نور فيرى أعمال الخلائق، وأنها تعرض عليه دورياً..

وأنه «صلى الله عليه وآله» كان يكلم النمل، والشجر والحجر، وأنواع الحيوانات، وكل قوم بلغتهم.. وإلى آخر ما هنالك مما يفوق حد الحصر والإحصاء.

ولو كانت القضية تنتهي عند حدود التبشير والإنذار اللذين قد يقوم بهما حتى غير النبي. أو حتى لو كان الأمر ينتهي عند حدود الشهادة، لم يكن ثمة حاجة إلى أن يخلق الله أرواح النبي والأئمة قبل خلق الخلق بألفي عام، وأن يجعلهم أنوارا معلقين بساق العرش، فإن هذا وسواه كثير مروي في كتب الفريقين من سنة وشيعة.

ولم يكن ثمة حاجة إلى المعراج.. ولا كان لدى وصي سليمان علم من الكتاب يأتي به بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس..

وكذلك فإن سليمان وداود «عليهما السلام» لم يحتاجا إلى علم منطق الطير، ولا إلى أن يلين الله الحديد لداود، ولا إلى تسخير الريح وغيرها لسليمان..

فإن التبليغ والإنذار، وحتى حكومة الناس بالعدل لا تحتاج إلى شيء مما ذكرناه.. لو كانت مهمة الأنبياء محصورة بذلك ومقصورة عليه..

٢ ـ إن ما أوكله الله إلى أنبيائه لا يعرف عن طريق العقل فلا بد من النقل فيرد السؤال: ما هي الآية أو الروايات المفيدة للقطع ـ حسب

ما قرره ذلك البعض ـ التي دلت هذا البعض على أن النبي والإمام لا يحتاجان إلى علم الذرة والكيمياء، والفيزياء؟! أو أن ذلك ليس ضرورياً لهما في مهماتهما التي أوكلها الله إليهما؟!، وفي معارفهما؟! وفي ما يرتبط بتكوين شخصية النبي والإمام؟!، وفي مقام إعدادهما لهذا المقام؟!.

٣ ـ ما الدليل الذي أقامه هذا البعض على: أنه لا يجب أن يكون النبي والإمام أعلم الأمة في كل شيء.. فإن النفي عنده يحتاج إلى دليل يفيد اليقين بالنفي ولا يكفي مطلق الحجة.

٤ ـ إن غاية ما عند هذا البعض هو قوله: «ليس لدينا دليل على هذا» فالذي ليس لديه دليل على الإثبات هل يكون عدم دليله على الإثبات دليلا على النفي؟!..

٥ ـ إن هذا البعض يدعي: أن علوم الذرة والكيمياء والفيزياء لا صلة لها برسالتهم..

ومن الواضح: أن نفي الصلة بين الرسالات وبين العلوم المذكورة يحتاج إلى اطلاع على حقائق الكون، ومعرفة الغيوب بصورة مباشرة وذلك غير متيسر لنا نحن البشر على الأقل فهل هو متيسر لهذا البعض؟!

وعلى كل حال، فإن السؤال يبقى هو السؤال:

ما هو الدليل على نفي هذه الصلة، فإن هذا البعض نفسه يقول: إن «النفي يحتاج إلى دليل كما الإثبات يحتاج إلى دليل»؟!

٤٣٨ ـ النبي لم يكن ملماً بتاريخ الأنبياء قبل النبوة.

٤٣٩ ـ قلة وعي النبي للمشاكل التي تواجهه هي بسبب جهله بتاريخ الأنبياء.

٤٤٠ ـ لو كان ملماً بتاريخهم لتصرف على سنة الله في رسله ورسالاته.

٤٤١ ـ لو كان ملماً لعرف كيف يخطط على ضوء تجارب الأنبياء.

٤٤٢ ـ الله أراد لكل مرحلة أن تستفيد من التاريخ الرسالي للمرحلة السابقة.

٤٤٣ ـ الإستفادة لكل مرحلة لا تتحقق الا بالوحي الإلهي الذي يقص عليه أنباء الرسل.

٤٤٤ ـ الله لم يكن قد زوّد رسوله بكل تعليماته وتشريعاته وتوجيهاته.

٤٤٥ ـ القرآن يؤكد جهل النبي بالأديان السماوية قبله.

٤٤٦ ـ النبي كان له مستوى ثقافي عال.

٤٤٧ ـ المستوى الثقافي للنبي هو من خلال تجاربه.

٤٤٨ ـ المستوى الثقافي للنبي هو من خلال تأملاته.

٤٤٩ ـ المستوى الثقافي للنبي هو من خلال ملكاته الفكرية والروحية.

ويقول البعض في تفسير قوله تعالى: **(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)** (١).

وقوله: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)** (٢). ـ يقول ـ ما يلي:

«وربما كان المراد به التقوية للروح النبوية في حركة التفاصيل ليواجه المواقف من خلالها بالصلابة الثابتة التي لا تهتز أمام التحديات من خلال الحديث عن تاريخ الأنبياء الذي لم يكن ملما به قبل نزول القرآن ليزداد بذلك وعيا للمشاكل التي تعيش في حركة الرسالة في الواقع، وليتصرف ـ من خلال ذلك ـ على سنة الله ورسله ورسالته ليعرف كيف يخطط الخطة في اتجاه الوصول إلى الهدف على ضوء تجارب الأنبياء في واقع النبوات، لأن الله أراد للتاريخ الرسالي أن تقدم كل مرحلة تجربتها للمرحلة الأخرى، وأن يوحي كل نبي من خلال تاريخه بنتاج حركته للنبي الآخر، ولن يكون ذلك إلا بالوحي الإلهي الذي يقص عليه أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده.

أما في الآية الثانية، فإنها تتحدث عن جزئيات التحديات في التطورات السلبية أو الإيجابية التي تعيشها الرسالة، ويواجهها الرسل في التجربة الرسالية في الحرب والسلم، لتمنح كل موقف حكمه،

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود.

(٢) الآية ٣٢ من سورة الفرقان.

ولكل مشكلة حلها، ولكل معركة سلاحها، ولكل تجربة درسها، لأن الله كان ينزل آياته تبعاً لحاجة الواقع الذي يبحث عن الأجوبة في أكثر من علامات الاستفهام، ولم يكن قد زود رسوله بكل تعليماته، وكل تشريعاته وتوجيهاته له وللمسلمين، ولذلك كان النبي «صلى الله عليه وآله» يردد كلمته المأثورة ـ عند إلحاح المسلمين عليه في إصدار الموقف الحاسم ـ (إني أنتظر أمر ربي) لأن ذلك هو الذي يعمق في نفوس المسلمين أن النبي لم يصدر فيما يبلغه أو يعالجه من موقف ذاتي، بل من وحي إلهي، حتى لا تختلط لديهم شخصية الذات في تصورهم للجانب الذاتي للرسل مما قد يملكون الحرية في قبوله أو رفضه ـ كما يتخيلون ـ وشخصية الرسول في حديثه عن الله مما لا بد لهم أن يقبلوه من دون مناقشة على اساس الخط الشرعي الإسلامي الذي جاء في قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (١) .

ولذلك كانوا يسألونه ـ حسب رواية السيرة ـ عن كل ما يصدره: هل هو رأي ارتأيته أو هو وحي من الله ليحددوا موقفهم منه على أساس تحديد ذلك، لكننا نرى: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكن له شخصيتان في حركته الرسالية في الشؤون الخاصة والعامة، لأنه

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

كان يمثل التجسيد الحي للرسالة فهو القرآن الناطق الذي يتمثل القرآن الصامت في كل سيرته قولاً أو تقريراً:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (١)، و **(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)** (٢).

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (٣).

فهو القدوة والأسوة في كل شيء، فكيف يكون له شخصيتان في سلوكه العملي مع الناس، لتختلف فيه شخصية الإنسان عن شخصية الرسول؟! أما تثبيت الله للذين آمنوا، فإنه يحصل من خلال القرآن الذي يعمق فيهم الإيمان بالله، ويفتح لهم آفاق المعرفة بالله، وبخلقه وبمنهجه ورسالته وشريعته..» (٤).

ويقول في مورد آخر:

«وعلى ضوء ذلك كله لا بد لنا من استيحاء القرآن في سيرة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» لنبدأ من ثقافته قبل النبوة، هل

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ من سورة النجم.

(٢) الآية ٦٥ من سورة النساء.

(٣) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٤) المعارج: ص ٥٥٨ و ٥٥٩.

درس الانجيل في تلك المرحلة؟ وهل كان مطلعاً على التفاصيل التاريخية للأنبياء، وهل كان يقرأ أو يكتب؟!

إن الصورة القرآنية تؤكد أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكن ملماً بذلك كله، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (١) » (٢).

ويسأل هذا البعض أيضاً:

ما المستوى الثقافي الذي كان عليه النبي «صلى الله عليه وآله» قبل نبوته؟!

فيجيب:

««لا بد لنا من استيحاء القرآن في سيرة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» لنبدأ من ثقافته قبل نبوته، فالصورة القرآنية تؤكد أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكون (كذا) ملماً بالاديان السماوية التي جاءت من قبله، وانه لم (كذا) يجيد القراءة أو الكتابة فقد جاء في القرآن الكريم:

(وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.

(٢) المعارج: (مجلة) ص ٥٤٥.

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (١).

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢).

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (٣).

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (٤).

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) (٥).

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (٦).

وهكذا جاء القرآن ليؤكد أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم (كذا)

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٤٤ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف.

(٥) الآية ٨٦ من سورة القصص.

(٦) الآية ١٦ من سورة يونس.

يمارس القراءة والكتابة: **(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)** (١) .

وقد كان ذلك كحجة على النبوة في عمقها الغيبي لأن هذه الشمولية الثقافية لا يمكن أن تكون منطلقة من الجهد البشري من إنسان لم تكن له أية تجربة ثقافية من خلال اطلاعه على مصادر المعرفة الكتابية أو غيرها.

ولكن ليس معنى ذلك أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان لا يملك المستوى الثقافي العالي من خلال تأملاته وتجاربه والألطاف الإلهية عليه في ملكاته الفكرية والروحية من خلال إعداد الله له للمهمة الكبرى في الرسالة الإسلامية» (٢) .

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ ان الصورة القرآنية تؤكد أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يعرف ملة أبيه إبراهيم شيخ الأنبياء «عليه السلام»، وكان متبعاً لها وملتزماً بها قال تعالى: **(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** (٣) .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

(٢) المعارج: ٦٠٤ و ٦٠٥.

(٣) الآية ١٢٣ من سورة النحل.

٢ ـ إن الآيات التي استشهد بها على أقواله لا تدل على ما يرمي إليه، وذلك لأن بعضها ـ كآية سورة النساء، وفيها: **(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ)**. يدل على أن ما عند رسول الله «صلى الله عليه وآله» من معارف إيمانية ومن حكمة وكتاب إلهي هو من الله سبحانه، وقد علم الله سبحانه نبيه بالإضافة إلى ذلك أموراً لم يكن «صلى الله عليه وآله» عالماً بها..

وذلك لا يعني: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكن ملماً بالأديان قبل أن يبعثه الله رسولاً، إذ إن قوله تعالى: **(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ)**(١)، لم تبين لنا متى علمه ذلك، كما أنها لم تحدد الأمور التي علمه إياها، فهل علمه الأديان السماوية التي سبقته؟!، أو أنه علمه التفاصيل التاريخية لحياة الأنبياء؟!، أو علمه أسرار الخلق والخليقة، وألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب.. وهي التي علمها «صلى الله عليه وآله» لأمير المؤمنين علي «عليه الصلاة والسلام»؟!.

إن ذلك لم يتضح من الآية.. فكيف اتضح لذلك البعض أن المقصود هو هذا دون ذاك؟!

على أن قوله «صلى الله عليه وآله»: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين». وكونهم أنواراً بعرشه محدقين أو معلقين بساق العرش قبل

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.

خلق الخلق بألفي عام يشهد بأن علمهم سابق حتى على خلق الخلق فلماذا العجب إذن إذا حدثت فاطمة أمها وهي في بطنها وما إلى ذلك؟!..

٣ ـ وأما آية سورة الشورى، فإن قوله: **(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)** (١) لا يريد به نفي ذلك عنه قبل بعثته كرسول، وإلّا لزم أن يكون «صلى الله عليه وآله» ـ والعياذ بالله ـ كافراً قبل البعثة، لأنه نفى عنه صفة الإيمان أيضاً.. وذلك لا يمكن أن يصح. مما يعني: أن المراد بالآية أنه «صلى الله عليه وآله» إنما تلقى الوحي بواسطة الروح من قبل الله سبحانه. فقولهم: **(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا)** (٢)، وقولهم: **(إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ)** (٣)، ونحو ذلك، باطل لا يصح.

فالمراد بالآية: أنك يا محمد لولا وحينا لك بواسطة الروح، وهو جبرئيل لم تكن تدري ما الكتاب. ولولا هدايتنا لك بالفطرة، وبحكم العقل الصر يح لم تكن تدري ما الإيمان.

ويبقى سؤال: متى كان هذا الوحي له «صلى الله عليه وآله»؟!

ويأتي الجواب: أن الروايات قد دلت: على أنه «صلى الله عليه وآله» قد كان نبياً قبل أن يكون رسولاً، بل دلت الروايات: على أن

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ١٠٣ من سورة النحل.

نبوته قد بدأت من حين ولادته «صلى الله عليه وآله».

٤ ـ وأما آية سورة آل عمران: **(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ)**(١)، فهي واضحة الدلالة على أن المراد: أن الوحي هو الذي أعلمك يا محمد بأنهم قد ألقوا أقلامهم أيهم يكفل مريم إلخ.. ولولا الوحي فإنك لا تستطيع معرفة ذلك، أما متى كان هذا الوحي فقد أشرنا إلى أن الروايات هي التي تحدِّد ذلك فقد يكون منذ الولادة حيث بدأت النبوة، وقد يكون بعدها.

٥ ـ وكذلك الحال بالنسبة لآية سورة يوسف، وهو قوله تعالى: **(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)**(٢). فإنها دالة على أن معرفته «صلى الله عليه وآله» بتلك الأخبار الغيبية إنما كانت عن طريق الإنباء والوحي، لكنها لا تعيِّن لنا متى كان ذلك، فلعله كان قبل سنوات من البعثة، لكنه لم يؤمر بإبلاغه إلى أن يحين وقته، وقد حان وقته الآن.

٦ ـ ونفس هذا الكلام يجري بالنسبة لآية سورة القصص: أعني قوله تعالى: **(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)**(٣)، فإن المراد بها: أن إنزال القرآن عليه كان رحمة من الله،

---

(١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة يوسف.

(٣) الآية ٨٦ من سورة القصص.

فرجاؤه إنما هو سبيل رجاء الرحمة الإلهية.

ولا دليل يثبت أن حدوث هذا الرجاء كان حين البعثة، فلعل رجاءه هذا قد بدأ في أول لحظات حياته، ومنذ امتلك الشعور والإدراك.

٧ ـ أما آية سورة يونس: **(قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ)**(١). فإنها تدل: على أنه إنما أذن الله سبحانه له في تلاوة القرآن عليهم بعد مضي وقت طويل قبل ذلك..، ولكن ذلك لا يعني: أن القرآن قد نزل عليه في أول يوم بعثته إليهم كرسول، فلعله نزل عليه قبل سنين كثيرة، لكن الله لم يأذن له بتلاوته عليهم إلا في هذا الوقت..

٨ ـ وأما آية سورة العنكبوت: **((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)**(٢). فلا تدل على أنه لم يكن يعرف القراءة، بل هي تتحدث عن التلاوة التي هي إلقاء الكلام ولو عن ظهر قلب.

فالمقصود: أنه لم يتل أياً من كتب السابقين.. كالتوراة والإنجيل ونحوهما قبل أن ينزل القرآن عليه، فالقرآن هو أول كتاب تلاه وألقاه.

بل هي لا تدل أيضاً على أنه لم يكن يعرف الكتابة، لأنها إنما تتحدث عن أنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن يخط الكتب السالفة

---

(١) الآية ١٦ من سورة يونس.

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

بيمينه.. فكيف يتهمونه بأمر ما رأوه قد مارسه، ولا يوجد أي دليل على أنه اطلع على أي كتاب سابق.. لا من خلال تلاوته له، ولا من خلال كتابته لمضامينه، فما هو المبرر لاتهامه بأنه قد استفاد من تلك الكتب إلا مجرد الحدس والتخمين، والرجم بالغيب.

الأمر الذي من شأنه أن يسقط اتهاماتهم عن أية قيمة، لعدم وجود أساس معقول لها.

فاتضح مما تقدم: أن ما ذكره في معنى الآيات ليس هو المعنى النهائي، الذي لا محيص عنه فيها، بل إن هناك معاني محتملة، وقريبة لها، فلا مبرر للإستدلال بها.

هذا.. وقد أشرنا فيما سبق أن أمّية النبي لا تعني نقصاً فيه، بل هي غاية الكمال، لأنها تعني أن هذا الذي لم يقرأ ولم يكتب ها هو في لحظة واحدة يصبح عارفاً أدق المعرفة وأشملها لعلوم ولأمور لم تمر عليه من قبل.. حتى إن لم يكن يقرأ فصار يقرأ ولم يكتب فصار يكتب مع عدم تعلمه لهذه الأمور من قبل.. مما يدل على أن قد حدث له حدث فريد، وهو اتصاله بالغيب وصدقه فيما يدعيه من الوحي الإلهي، فعدم معرفته بالقرآءة والكتابة وعدم تلقيه معارفه عن طريقها غاية الكمال له.. لأنه قد أصبح يملك أدق المعارف والعلوم وأوسعها من دون الإستعانة بكتابة أو قرآءة وهذا غاية الكرامة والفضل، ولكن جهلنا نحن بالقرآءة والكتابة يعد نقصاً فينا لأننا نحرم والحالة هذه من نيل المعارف ونبقى في دائرة الجهل.

٩ ـ إن العبارة الأخيرة لهذا البعض تشير إلى أن مصدر معارفه «صلى الله عليه وآله» قبل النبوة هو تأملاته، والألطاف الإلهية عليه في ملكاته الفكرية والروحية.

ومن الواضح: أن ذلك لا يكفي في اعتباره «صلى الله عليه وآله» مثقفاً، فضلاً عن أن يملك المستوى الثقافي العالي على حد تعبير هذا البعض رغم تحفظنا الشديد على مثل هذه التعابير بالنسبة للأنبياء «عليهم السلام» فإن التأمل، والملكات الفكرية والروحية للنبي لا تجعله عالماً بما جرى للسابقين، ولا مطلعاً على شيء من التفاصيل التاريخية لمن سبقه من الأنبياء، كما أن ذلك لا يجعله ملماً بالأحكام والشرائع والحقائق الدينية وغيرها وبالآيات السماوية التي جاءت أو نزلت من قبله..

بل يكون علماء أهل الكتاب والحالة هذه، وكذلك غيرهم أعلم منه في ذلك، لأنهم يملكون ولو مقداراً ضئيلاً من تلك المعارف مهما كان مشوباً بغيره من الأباطيل.

١٠ ـ ولو سلمنا: أن التأملات والملكات الفكرية تجعله عالماً، فإن علم الأنبياء يصبح منوطاً بمراتبهم المعنوية، فهي التي تؤهلهم لخوارق العادات، حتى مثل الإتيان بعرش بلقيس، بإذن الله.. وما إلى ذلك مع أن النص القرآني يقول: **(عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)**(١). مما

(١) الآية ٤٠ من سورة النمل.

يشير إلى أن هذا العلم الذي حصل عليه من الكتاب، لا من التأمل، هو الذي مكّنه من الإتيان بالعرش من اليمن إلى بيت المقدس.

١١ ـ لا ندري لماذا فقد النبي «صلى الله عليه وآله» هذه المعرفة.. وقد كان حرياً بأن يكون عالماً بالشيء الكثير من ذلك، ولو من خلال معاشرته لجدّه عبدالمطلب، وعمه أبي طالب، وسواهما من الناس الذين عرفوا شيئاً من تواريخ الأنبياء السابقين، وما عرفوه وألموا به من تعاليم الأديان السماوية؟!

٤٥٠ ـ قبل البعثة لا تجربة ثقافية للنبي «صلى الله عليه وآله».

٤٥١ ـ عناوين الشكّ في شخصية النبي «صلى الله عليه وآله».

يقول البعض:

«عندما ندرس حياة النبي تبدو لنا هذه الحياة بسيطة، ليست فيها أية حالة ثقافية، وإن القرآن كان أميناً في نقل الأفكار المضادة تماماً كما هو أمين في نقل الأفكار المناصرة، لقد استطاع القرآن أن يحدثنا بأمانة عن عناوين الشك في شخصية النبي الذي لم يستطع أن يحصل تجربة ثقافية كافية قبل النبوة أو اية معلومات تاريخية يستطيع من خلالها التأثر بما قبله من الأنبياء»(١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

---

(١) أسئلة وردود من القلب ص٦٣.

إن النبي قد كان نبياً منذ صغره، ولقد قرن الله به «صلى الله عليه وآله» من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره (١).

وعلى هذا الأساس، فإنه لولا هذا الوحي الإلهي، وهذا الملك المسدد له، فإنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، قال تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** (٢). وذلك هو معنى قوله تعالى: **(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى)** (٣).

إذن.. فما معنى وجود عناوين للشك في شخصية النبي «صلى الله عليه وآله»، استطاع القرآن أن يحدّثنا عنها بأمانة؟!!

وإذا كان الله قد قرن به ملكا يسدده منذ أن كان فطيماً، ويسلك به سبيل المكارم، فما معنى عدم حصوله على تجربة ثقافية كافية قبل نبوّته؟!

٤٥٢ ـ عتاب يكشف عن الخطأ غير المقصود للتصرف.

٤٥٣ ـ المصلحة الغالبة كانت في عدم الإذن لهم.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ وهي الخطبة القاصعة.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٨ من سورة الضحى.

٤٥٤ ـ النبي يخالف الأولى في التصرف.

٤٥٥ ـ وسائل النبي في تعامله تخطئ وتصيب كوسائل القضاء.

٤٥٦ ـ النبي يخطئ في رصد الأشياء الخفية.

٤٥٧ ـ عدم وضوح وسائل المعرفة توقع النبي في الخطأ.

٤٥٨ ـ الغيب محجوب عن النبي، إلا فيما يوحى إليه.

٤٥٩ ـ القرآن يتحدث كثيراً عن مخالفة الأولى للانبياء.

٤٦٠ ـ الأنبياء يخالفون الأولى بسبب غموض ظواهر الأشياء.

يقول البعض في تفسير قوله تعالى: **(عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)** (١):

«لأن مثل هذه الكلمة تستعمل في مقام العتاب الخفيف الذي يكشف عن طبيعة الخطأ الغير مقصود (٢) للتصرف، كما أن الحادثة لا تحمل في داخلها أية حالة من حالات الذنب، فالنبي يملك أمر الحرب، فيأذن لمن يشاء بالخروج أو لا يأذن، فليس للمسألة واقع خارج نطاق إرادته، وليست هناك أوامر إلهية في مسألة خروج هؤلاء، وعدم خروجهم، ليكون تصرفه «عليه السلام» مخالفة لها، بل كل ما هناك أن الله أراد أن يضع القضية في نصابها الصحيح من

---

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة.

قد ذكرنا شطراً من كلام هذا البعض في موضع آخر من هذا الكتاب، فراجع.

(٢) الصحيح: غير المقصود.

المصلحة الغالبة في ترك الإذن لهم ليفتضح أمرهم ويتبين زيفهم بشكل واضح، فيتعرف المسلمون على حقيقتهم، فيرفضوهم من موقع الحقيقة الداخلية التي تنكشف من خلال تصرفاتهم، فالمسألة تدخل في دائرة مخالفة ما هو الأولى في التصرف، وليس في ذلك انتقاص من عصمته وانسجامه مع الخط الذي يريد الله له أن يسير فيه.

فقد ترك الله للنبي «صلى الله عليه وآله» مساحة يملك فيها حرية الحركة من خلال ما يدبِّر به أمر الأمة بالوسائل العادية المألوفة التي قد تخطئ في بعض مجالاتها، لا بالوسائل الغيبية التي لا يملكها بطريقة ذاتية، لم يكشفها الله له بشكل مطلق، تماماً كما هي الحال في ممارسته القضاء بين الناس حيث قال: «إنما أقضي بينكم بالأيمان والبينات» (١).

معنى خطأ النبي:

«وليست هناك مشكلة أن يقع الخطأ، في ما هو الواقع في رصد الأشياء الخفية من خلال غموض الموضوع لعدم وضوح وسائل المعرفة لديه، ما دام الغيب محجوباً عنه، إلا في ما أوحى به الله إليه من أسرار علمه، وهذا ما أراد القرآن تأكيده في أكثر من آية في توضيحه لكثير من حقائق الأمور بعد وقوعها وتحركها في دائرة خلاف الأولى، في ما كان وجه الصلاح غامضاً فيه من جهة ظواهر

---

(١) الكافي (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج ٧ ص ٤١٤ رواية ١.

الأشياء، كما في هذه المسألة التي أراد الله أن يوحي من خلالها بالحقيقة إلى نبيه، الذي أذن لهم في عدم الخروج انطلاقاً من سمو أخلاقه، وسعة صدره، ومواجهته الحالة بالرفق واللين، من خلال ما حدثنا الله به عن أسلوبه في الحياة، ولكن القوم لم يكونوا بالموقع الذي يستحقون فيه ذلك، وهكذا كان خطابه لنبيه بأسلوب العتاب المحبب: **(لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)** (١) في ترك الخروج، فقد اعتبروا ذلك حجة لهم أمام المسلمين الآخرين في تأكيد صدقهم في الإيمان، وانسجامهم مع خط الطاعة لله وللرسول» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إن ما ذكره هذا البعض هنا عن خطأ النبي الكريم «صلى الله عليه وآله»، مردود عليه، ومنبوذ إليه، فإن الخطأ ممنوع على النبي حتى لو لم يكن هناك أمر ونهي إلهي صريح..

ويزيد الإصرار على رفض هذه المقولات: أنه قد قرر أن النبي لم يكن يعرف المصلحة والمفسدة فيما أقدم عليه، فكانت النتيجة: أن أقدم النبي «صلى الله عليه وآله» على ترك الأولى، فتركه للأولى

---

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة.

قد ذكرنا شطراً من كلام هذا البعض في موضع آخر من هذا الكتاب، فراجع.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج١١ ـ ص١٢٤ و ١٢٥.

ناشئ والعياذ بالله عن جهله به، إلى آخر ما ذكره..

٢ ـ إن الكثيرين حين لا يهتدون إلى معرفة الوجه في تعابير الآيات القرآنية في العديد من الموارد التي تتحدث عن بعض مواقف الأنبياء وحركتهم وتصرفاتهم، يلجأون إلى القول: بأن هذا التصرف المنسوب للنبي أو الولي هو من قبيل مخالفة الأولى في مقام التصرف، ومخالفة الأولى لا تنافي العصمة..

مع أن هذا الكلام غير سديد، فإن مخالفة الأولى إن كانت ناشئة عن الجهل بوجوه الحسن والقبح، وبما ينبغي أن يكون عليه.. فنحن نجل الأنبياء عن أن يكونوا غير قادرين على التمييز بين الأمور التي لا يحتاج التمييز ومعرفة الراجح منها إلى أكثر من التدبر في جهات الحسن الظاهرة في هذا العمل أو ذاك، والموازنة بينهما..

وإن كان النبي والوصي يدرك رجحان هذا على ذاك، ولكنه يتبع هواه في الأخذ بالمرجوح منهما، فالمصيبة تكون أفدح، وأعظم، والخطب أمرّ، وأدهى.

وإن كان يأخذ بالمرجوح من دون سبب سوى الإستهتار، وعدم المبالاة.. فإن ذلك أيضاً مرفوض في حق الأنبياء، والأولياء، فلا يقبل في حقهم أن يكونوا يرجحون غير الراجح، أو يرفضون الأخذ بما هو أولى بالأخذ، فإن ذلك يكشف عن عدم وجود توازن في شخصية هذا الإنسان المعصوم، وعن أنه يفقد الضوابط والمعايير التي يفيده الإلتزام بها ومراعاتها في هذه الحياة..

وما أعظمها من كارثة، وما أخطره من نقص: أن يكون الإنسان غير قادر على اختيار الأفضل والأمثل..

ومن يكون هذا حاله كيف يصح أن يختاره الله ليكون الأسوة والقدوة، والمربي، والحافظ.. فقد يتخلى عما هو الأولى في أشد المواقف حساسية، وأعظمها خطراً، كما يذكرونه بالنسبة لآدم «عليه السلام».

وبعبارة أخرى: إن اختياره للمرجوح لا ينسجم مع حكمته، وعقله، ومع توازن شخصيته، كما أن الله سبحانه لا يمكن أن يختاره نبياً، ولا ولياً خصوصاً إذا كان ثمة من يختار الراجح والأولى ويترك المرجوح، فإن اختيار ذاك على هذا ينافي الحكمة، والتدبير، والرحمة بالبلاد وبالعباد.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

ومهما يكن من أمر، فإن العلماء إذا غفلوا عن هذا الأمر، وتحدثوا عن إمكانية مخالفة النبي للأولى، فإنهم بمجرد أن نلفت نظرهم إلى هذه المحاذير سوف يبادرون إلى التخلي عن قولهم ذاك لصالح القاعدة التي يلتزمون بها.

ولكن هذا البعض بملاحظة هذا الكم الهائل من المقولات قد اتخذ له منهجاً آخر، وتكوّنت لديه نظرة أخرى للأنبياء، وقد جاءت مقولاته هذه منسجمة مع هذه النظرة وذلك المنهج، فلا يصح قياس أمره عليهم، وما ذكرناه عنه في هذا الكتاب خير شاهد على ذلك.

٣ ـ إن قياس هذا البعض سلوك الأنبياء، وتعاملهم مع الناس،

ومع الله، ومع أنفسهم، وفي جميع المواقع، على أمر القضاء بين الناس قياس مع الفارق..

فإن الله سبحانه قد شاء: أن يعتمد نبيه، ووليه وسائل معينة في القضاء، لأن الإعتماد على الغيب في القضاء وفقاً للتحليل التاريخي ـ حسب مصطلح البعض ـ من شأنه أن يفسح المجال أمام قضاة السوء، وحكام الجور لأن يدّعوا على الناس ما ليس بحق، وتكون حجتهم هي: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد فعل ذلك، ونحن خلفاؤه، ونجلس في موقعه، ونقوم بمهماته، فإذا كان هو يقتل القاتل، ويقيم الحد على السارق، استناداً إلى علمه، ومن دون حاجة إلى شهود فنحن أيضاً نفعل ذلك..

فيأخذون الناس بهذا الأمر، ويقتلون من يشاؤون، وينكلون بالناس حسبما يشتهون، ويستفيدون من هذا الغطاء الشرعي ـ بحسب ظواهر الأمور ـ لتأكيد سلطانهم، والقضاء على خصومهم ومعارضيهم، وابتزاز الناس في أموالهم، وأعراضهم ومواقفهم، وما إلى ذلك..

وقد يكون هذا مدخلاً للقضاء على كل عناصر الفضل والخير والدين، وإبادة قوى الصدق، والإيمان، والصلاح، والتخلص من كل ما يخافون منه..

٣ ـ أما بالنسبة لمعنى الآية، فإننا قد بيّناه فيما سبق من هذا الكتاب فراجع..

٤٦١ ـ النبي لا يملك أية مقومات ذاتية كبيرة.

٤٦٢ ـ النبي لا يملك أية قدرات شخصية مطلقة.

٤٦٣ ـ الدرس الفكري: أن لا نغرق انفسنا بالأسرار العميقة التي يحاول البعض إحاطة شخصية النبي بها.

٤٦٤ ـ يحيطون النبي بالأسرار للإيحاء بأنه يرتفع فوق مستوى البشر.

٤٦٥ ـ النبي ليس فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية.

٤٦٦ ـ النبي ليس فوق مستوى البشر في قدراته الكبيرة.

٤٦٧ ـ هو فوق البشر بأخلاقه، وخطواته، ومشاريعه المتصلة برسالته.

٤٦٨ ـ علينا أن نشعر أن النبي قريب منا بصفاته البشرية التي هي اساس التمثل والإتباع، والإقتداء.

٤٦٩ ـ الأبحاث السائرة في هذا الإتجاه، إنحراف عن الخط القرآني في دراسة شخصية النبي.

٤٧٠ ـ الله قد يطلع النبي على بعض غيبه، مما قد يحتاجه في نبوته من علم المستقبل، أو خفايا الأمور.

٤٧١ ـ التصور القرآني ينفي فعلية علم النبي للغيب من الناحية الوجودية.

٤٧٢ ـ النبي ليس مجهزاً في تكوينه البشري بالقدرة على علم

الغيب.

٤٧٣ ـ الله يطلع رسله على الغيب بطريقة التعليمات التدريجية.

٤٧٤ ـ ليس علمه بالغيب منطلقاً من قدرة تتحرّك بالفعلية، بحيث يعلم بالغيب كلما أراد من خلالها.

يقول البعض:

«..**(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)** (١) وهكذا أراده أن يقف بينهم عبداً خاشعاً بين يديه، لا يملك أية مقومات ذاتية كبيرة، أو أية قدرات شخصية مطلقة، رسولاً أميناً على الدور الذي أوكله الله إليه، فهو ينتظر أمر الله ووحيه في كل صغيرة أو كبيرة ليتبعه، ويبلغه للناس، وربما كان الحديث عن الإتباع موحياً بالصفة المطيعة المتواضعة التي تجسدها شخصيته، ليكون في ذلك بعض الإيحاء لهم بالطاعة لله، والإستغراق في دور العبد المطيع الذي يتمثل حركة العبد (النبي)، في شخصية العبد المؤمن، وإذا كان التوجيه الإلهي يفرض على الرسول أن يقدم نفسه إلى الناس بهذه الصفة فقد نجد فيه الدرس الفكري الذي يريدنا أن لا نغرق أنفسنا بالأسرار العميقة التي يحاول البعض أن يحيط بها شخصية النبي، للإيحاء بأنه يرتفع فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية، وقدراته الكبيرة، بل بصفته الرسالية من حيث أخلاقه، وخطواته، ومشاريعه المتصلة برسالته.

---

(١) الآية ١٥ من سورة يونس.

وذلك هو السبيل للتعامل مع شخصية الأنبياء، والأولياء، بالأسلوب القريب إلى الوعي الإنساني العادي، في ما يمكن للإنسان أن يعيشه، ويتصوره ويتمثله في نفسه، ليشعر بأن النبي قريب منه بصفاته البشرية المثلى التي يمكن أن تكون أساساً للتمثل، والإتباع، والإقتداء، وفي ضوء ذلك، نجد في الأبحاث السائرة في هذا الإتجاه انحرافاً عن الخط القرآني الذي يرسم للناس في دراستهم لشخصية النبي «صلى الله عليه وآله»، وهنا نقطة، وهي مسألة نفي النبي في حواره مع المشركين علمه بالغيب، فقد جاء في الميزان، قال: المراد بنفي علم الغيب، نفي أن يكون مجهزاً في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيّات الأمور كائنةً ما كانت (١).

وهذا هو التصور القرآني الصحيح الذي يؤكد نفي الفعلية لعلم الغيب من الناحية الوجودية بمعنى أن يكون مجهزاً في تكوينه البشري بالقدرة الخاصة لعلم الغيب بحيث يتحرك نحوه ـ في فعليته ـ بشكل طبيعي، بل المسألة هي أن الله قد يطلعه على بعض غيبه مما يحتاجه في نبوته من أمور المستقبل، ومن خفايا الأمور كما في قصة عيسى «عليه السلام»: **﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾** (٢) ونحو ذلك.

---

(١) تفسير الميزان ج٧ ص٩٧.

(٢) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

ولعل هذا هو الذي أشار إليه أمير المؤمنين علي «عليه السلام» في إخباره بالمغيبات عن سؤاله: هل هذا علم بالغيب؟! في تصورهم للمعنى الذاتي من خلال القدرات الخاصة التي يملكها في ذلك.

فأجاب: «وإنما هو تعلم من ذي علم» (١).

وهذا هو الذي عبر عنه بعض المفسرين «هو علم الغيب بالعرض» أي تعلم من عالم الغيب.

وخلاصة الفكرة: هي أن الله كان يطلع رسله بطريقة التعليمات التدريجية المحدودة على الغيب كما في قوله تعالى: (**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**) (٢). ولم يكن علم الغيب منطلقاً من قدرة تتحرك بالفعلية ليعلم بالغيب كل ما أراد من خلالها بحيث إن الله أعطاه ذلك من خلال القاعدة المنتجة للعلم في نفسه.. والله العالم (٣).

وقفة قصيرة:

إننا نسجل هنا ما يلي:

١ ـ من أين؟! وكيف علم هذا البعض: أن النبي لا يملك مقومات ذاتية كبيرة، أو قدرات مطلقة؟! أو أن الأنبياء ليسوا فوق مستوى البشر في قدراتهم الذاتية وإمكاناتهم؟!

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨.

(٢) الآية ٢٦ من سورة الجن.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج٩ ص١١٤ و ١١٥.

فإن ذلك من الأمور التكوينية، ومن الغيبيات التي لا يعرفها إلا الله سبحانه.. وهو يشترط في معرفة الأمور التكوينية والغيبية وغيرها، قيام الدليل القطعي، الموجب لليقين التام، ولا يكفي فيها مطلق ما هو حجة..

٢ ـ إذا كان النبي «صلى الله عليه وآله» أفضل من البشر، وإذا كان الله سبحانه قد خلقه هو والأئمة قبل خلق الخلق بألفي عام، وجعلهم أنواراً بعرشه محدقين، وإذا كانوا أنواراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة.

وإذا كان النبي شاهداً على الخلق يرى أعمالهم الجوارحية، والجوانحية، ويشهد عليهم بها، وإذا كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وإذا كانت تنام عيناه، ولا ينام قلبه، ثم ما روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: من أنه قال لعلي «عليه السلام»: يا علي ما عرف الله حق معرفته غيري وغيرك. وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري (١). وما إلى ذلك، وهو كثير جداً.

فإن النتيجة تكون هي أن هناك أسراراً عميقة تحيط بهم «عليهم السلام» لا ندرك كنهها، ولا ضير في أن نغرق أنفسنا بها، إذا كان الله ورسوله، والأئمة الأطهار «عليهم السلام» هم الذين أخبرونا عنها في محاولة لشد أنظارنا إليها، وإطلاعنا عليها لحكمة هم يعرفونها.

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٣١٠ والبحار ج ٣٩ ص ٨٤.

٣ ـ إن شعورنا بأن النبي «صلى الله عليه وآله» قريب منا بصفاته البشرية، وكون ذلك هو أساس التمثل، والإتباع، والإقتداء صحيح، ولكنه لا يمنع من اعتقادنا أيضاً بوجود قدرات، وإمكانات غير عادية لدى هذا النبي «صلى الله عليه وآله» في جهات أخرى من شخصيته، وحياته.

بل قد يسهم وعينا لهذه الحقيقة في الحرص على الإتباع له، والتأسي به.. في الجهات العملية، في دائرة السلوك، والأخلاق، والمواقف الرسالية، والإلتزام العقيدي، والإيماني، وغير ذلك..

٤ ـ إن الخط القرآني في دراسة شخصية النبي يرتفع بهذه الشخصية إلى مراتب لا تبلغها أوهام البشر، حين يأخذ نبيه في رحلة المعراج إلى السماوات العلى، حتى بلغ «عليه الصلاة والسلام» سدرة المنتهى.

وأما الآيات التي يستند اليها هذا البعض في إبعاد الأنبياء عن مواقع الكرامة الإلهية.. فقد فسرها العلماء، وبينوا معانيها.. بطريقة صحيحة، ومنسجمة مع كل المقاييس التي ارتضاها القرآن، وأكدها، والتزم بها الإسلام، وأيدها، وقد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب بعضاً من ذالك.

٥ ـ وأما أن الله سبحانه قد يطلع نبيه على بعض غيبه، مما قد يحتاجه في نبوته، فهو كلام صحيح.. ولكنه لا يمنع أيضاً من أن يطلعه على جميع غيبه، فإن قوله تعالى: **(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى**

غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (١) لم يحدد فيه مقدار الغيب الذي يطلع الله عليه بعض رسله، بل إن سياق الآية ـ على غيبه ـ ظاهر في إمكانية أن يطلع الله بعض رسله على كل غيبه.

فمن أين أتانا هذا البعض بالتخصص بخصوص ما يحتاجه النبي في نبوته؟! ومن أين جاء بكلمة «بعض» في قوله: «بعض غيبه»؟!

٦ ـ وأما أن التصور القرآني ينفي فعلية علم النبي للغيب من الناحية الوجودية، أي أنه ينفي وجود قدرة ذاتية تمكنه من العلم كلما أراد، وساعة يشاء.. فذلك أيضاً غير صحيح، فإن التصور القرآني يعطينا إمكانية أن يعلم الله نبيه بجميع غيبه كما ألمحنا إليه آنفاً.

ولكنه ينفي أن تكون النبوة من حيث هي نبوة تقتضي علم الغيب بصورة ذاتية..

ولا ينفي إمكانية أن يكون الله قد جهز نبيه بقدرة يستطيع بها الإطلاع على الغيب ساعة يشاء، وفي كل ما يريد.. وقد دلت الأخبار الواردة عن المعصومين «عليهم السلام» على ذلك..

٧ ـ من أين علم هذا البعض: أن الله يطلع أنبياءه على الغيب بصورة التعليمات التدريجية، فإن هذا يحتاج إلى دليل يقيني، ولا يكفي فيه مطلق الحجة.. كما يقول هذا البعض نفسه.

إذ لعل الله قد أطلع رسوله على غيبه كما هو مفاد الآية، لكي

---

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الجن.

يرفع بهذا العلم مقامه، ويكرمه به. لكنه منعه من إخبار الناس به، فصار ينتظر أمر ربه في إبلاغ كل حدث يريد إبلاغه للناس.

٨ ـ على أن نفيه وجود قدرة تمكن النبي من علم الغيب يحتاج إلى دليل.. حسبما قرره هذا البعض نفسه، فأين هو دليله القطعي ـ حسب رأيه ـ الذي أقامه على هذا النفي؟!

الفصل الثاني

معجزات رسول الله ‘..
المعراج.. وشق القمر..

٤٧٥ ـ إنكار معجزة شق القمر للرسول «صلى الله عليه وآله».

٤٧٦ ـ لا فائدة من إرسال الآيات في هذا الزمان.

٤٧٧ ـ الحديث المتواتر إذا لم يوثق ببعض رجال سنده يتحول إلى خبر واحد.

٤٧٨ ـ لا يوجد أساس يقيني للالتزام بروايات شق القمر.

٤٧٩ ـ وقوع شق القمر مخالف للظواهر القرآنية.

يقول البعض:

«.. كيف نفهم انشقاق القمر من الآية؟!

أما انشقاق القمر، فقد جاءت الروايات لتؤكد: أن معناه يعبّر عن آية كونية، في نطاق المعجزة المقترحة من قبل المشركين على النبي «صلى الله عليه وآله» لإثبات نبوته، وقيل: إن أهل الحديث، والمفسرين اتفقوا على قبولها، ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: إن معنى قوله: **(وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)**(١) سينشق القمر عند قيام الساعة، وإنما عبَّر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

---

(١) الآية ١ من سورة القمر.

أما تعليقنا على ذلك، فهي: أن المسألة لا بد أن تُناقش من نقطتين:

النقطة الأولى: من زاوية الإستغراق في مضمون النصوص في ذاتها من حيث إمكانها ومعقوليتها، وفي سند النصوص من حيث وثاقتها وصحتها.

النقطة الثانية: من زاوية المقارنة بين هذه النصوص المفسرة للقرآن بذلك، وبين المفاهيم القرآنية العامة في مسألة المعجزة الحسية الكونية وغير الكونية، الخارقة للعادة، سواءً كانت مقترحة أو غير مقترحة، على أساس القاعدة القائلة: بأن علينا عرض الأحاديث على ما جاء به القرآن من حقائق بمقتضى الظهور الواضح، لأن ما خالف كتاب الله فهو باطل أو زخرف.

أما النقطة الأولى: فقد تحتاج إلى عرض بعض هذه الروايات كنموذج للمجموع، ففي رواية أنس بن مالك: قال الإمام أحمد: حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي «صلى الله عليه وآله» آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: **(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)**(١).

ومن رواية جبير بن مطعم، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد

(١) الآية ١ من سورة القمر.

بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» فصار فلقتين، فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

وفي أمالي الشيخ: أبي جعفر محمد بي الحسن الطوسي، بإسناده عن عبيد بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي «عليهم السلام» قال: انشق القمر، بمكة فلقتين، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: اشهدوا اشهدوا.

وقد ذكر في الميزان: أن علماء الشيعة ومحدثيهم تسلموا الخبر بانشقاق القمر لرسول الله «صلى الله عليه وآله» من غير توقف.

ونقل في روح المعاني عن السيد الشريف في شرح المواقف، وعن ابن السبكي في شرح المختصر: أن الحديث متواتر لا يمترى في تواتره.

ولكننا لا نستطيع إحراز التواتر من خلال هذه الأخبار التي لم يكن رواة بعضها موجودين في زمن الإنشقاق المفروض ليكونوا شهوداً عليه، مما يعني: أنهم نقلوه عن أشخاص آخرين لا نعرف وثاقتهم، الأمر الذي قد يجعل منها أخبار آحاد لا تثبت بها مثل هذه الأمور كما قرر في علم الأصول.. وقد يكون التسالم على قبولها ناشئاً من الاجتهاد التفسيري في معنى الآية على أساس أن الآية الثانية تفسر ذلك فيكون الإعتماد على القرآن في توثيق المضمون الخبري لا

على طبيعة الخبر.

فإذا تجاوزنا ذلك، إلى موضوع الإمكان، فلا بد أن نسلم بأنه من الأمور الممكنة في ذاتها، وقد حدثنا القرآن عن انشقاق السماء ونحو ذلك من الحوادث التي تتصل بتبدل الظواهر الكونية وتغيّرها عما هي عليه، فإذا صح الخبر فيها ثبت وقوعها.

أما النقطة الثانية: فقد أثير حولها الإشكال من جهة الآيات الكثيرة التي تنفي صدور الآيات المعجزة لا سيما المقترحة من قبل الناس كما في قوله تعالى: **(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)**(١)، فإن مفاد الآية يوضّح بأن الإرسال بالآيات لا يحقق أية نتيجة في دائرة الإيمان، لأن السابقين الذين أرسلت الآيات إليهم لم يتجاوبوا معها، ولم ينتفعوا بها، بالرغم من كل ما تثيره في نتائجها من تهاويل الخوف باعتبار أن نزول الآية التي لا يعقبها الإيمان يؤدي إلى نزول العذاب.

ويتأكد الإشكال في الآيات المقترحة التي أراد الله من رسوله أن يعرفهم امتناع استجابة الله لهم في طلبهم إياها، وهو القادر على ذلك، لأنه المهيمن على الكون كله، فيما يريد أن يخلقه من ظواهر غير موجودة، أو فيما يريد أن يغيّره من حالٍ إلى حال في الظواهر

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

الموجودة، فان الأمر خاضع لحكمته لا لاقتراحهم..

أمّا النبي الذي تُقدَّم إليه تلك الطلبات فليس قادراً على ذلك، لأن بشريته تمنعه من قدرته على ذلك كما أن صفة الرسالة لا تجعل له دوراً في تغيير الظواهر من حوله.

ولعلّ هذا الجو هو الذي يتمثل للإنسان القارئ للقرآن في ملاحقته لخطوات الرسالة أمام التحديات الموجهة إليها من المشركين.. وفي ضوء ذلك قد نلاحظ اختلاف هذا التفسير مع المفاهيم القرآنية العامة فيكون الحديث المتضمن لها حديثا مخالفا للظواهر القرآنية.

وقد أجاب هؤلاء المفسرون للآية: بما ذكر، بأن الآية التالية لها تؤكد: بأن المقصود من انشقاق القمر، هو ما حدث على يد الرسول «صلى الله عليه وآله» في مكة فيما رواه المفسرون، وذلك لأن الظاهر من قوله تعالى: **(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)** (١). أنها آية واقعة قريبة من زمان النزول، أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا: **(سِحْرٌ مُبِينٌ)** (٢)..

وقد يورد عليهم: بأن الآية الثانية لا تدل على أنها من توابع

---

(١) الآية ٢ من سورة القمر.

(٢) الآية ٦ من سورة الصف.

الفكرة التي تثيرها الآية الأولى.. بل ربما كانت الأولى عنواناً للأجواء التي توحي بيوم القيامة، فيما يراد إثارته من تذكير هؤلاء المشركين وغيرهم به، لتنطلق الآيات بعدها لتتحدث عن سلوكهم المنحرف عن الرسالة الذي يعرّضهم للنتائج الصعبة على مستوى العذاب في نار جهنم..

وبذلك يكون الحديث عن ردهم الآيات بأنها سحر مستمر مماثلاً لكل الآيات التي تتحدث عن تهمة النبي «صلى الله عليه وآله» بأنه ساحر من دون أن تكون مرتبطة بحادثة معينة..

وقد نلاحظ، في هذا المجال: ضرورة التدقيق في كلمة «مستمر» التي تعني انطلاق التهمة قبل الآية لتكون مستمرة بعدها.. مما قد يتنافى مع انطلاق تهمة السحر من خلالها.

وقد أجاب بعض المفسرين عن استلزام نزول الآية للعذاب بعدها في حالة الكفر: بأن ذلك لا يشمل كل الناس الموجودين آنذاك، بل الجماعات المقترحة لها المكذبة بنتائجها، وقد أهلك الله هؤلاء وهم صناديد مكة.

إلى أن قال:

علامات استفهام حول معجزة انشقاق القمر:

«ويتساءل الرافضون لهذا التفسير: إن القمر لو انشق كما يقال، لرآه جميع الناس ولضبطه أهل الأرصاد في الشرق والغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية، ولم يعهد فيما بلغ إلينا من التاريخ

والكتب الباحثة عن الأوضاع السماوية له نظير، والدواعي متوفرة على استماعه ونقله.

وأجيب بما حاصله:

أن من الممكن أولاً: أن يغفل عنه، فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوماً للناس محفوظاً عندهم يرثه خلف عن سلف.

وثانياً: أن الحجاز وما حولها من البلاد العربية لم يكن بها مرصد للأوضاع السماوية، وإنما كان ما كان من المراصد بالهند والمغرب من الروم واليونان وغيرهما، ولم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت ـ وهو على ما في بعض الروايات أول الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة.

على أن بلاد الغرب كانت تختلف بالأفق مع مكة مما يوجب فصلاً زمانياً معتداً به وقد كان القمر، على ما في بعض الروايات، بدراً وانشق في حوالي غروب الشمس حين طلوعه، ولم يبق على الانشقاق إلّا زماناً يسيراً ثم التأم فيقع طلوعه على بلاد الغرب وهو ملتئم ثانياً.

وقد يُجاب عن هذا: بأن من الممكن التسليم بالفكرة التي يثيرها الجواب الثاني..

أما بالنسبة إلى الجواب الأول: فليس هناك مجال للتسليم به، لأن مسألة انشقاق القمر بالطريقة التي تثيرها الروايات تمثل حادثاً خطيراً

لم يعهده الناس في حياتهم، مما يجعل إمكان غفلة البعض عنه لا تبّرر غفلة الأكثر، لا سيما في تلك المناطق التي يلتقي فيها الناس بالقمر في مراقبة دائمة له، باعتباره مصدر الضوء البارز في لياليهم التي لا يملكون فيها إلا الطرق البدائية في مصادر النور.. ولذلك فإن هذا الحدث لو كان لذاع وشاع وملأ الأسماع، كما يقولون، ولاستمر الحديث عنه مدة طويلة.. ولكان يوماً تاريخياً يخلّده الناس فيما يؤقتون به الأمور على طريقتهم المعروفة في حساب التاريخ بالأيام التي تحمل حدثاً كبيراً لا يختلف الناس فيه لضخامة الأثر الذي يتركه في حياتهم.

وفي ضوء ذلك كله، فإننا نتحفظ في المسألة، لأننا لا نجد أساساً يقينياً للالتزام بهذه الروايات، كما لا نجد ظهوراً قرآنياً في تحديد الموضوع بزمان الرسالة»(١).

وقفة قصيرة:

١ ـ إن هذا البعض يقول: إن أخبار وقوع انشقاق القمر في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» متواترة: ونقل لنا عن كتاب «الميزان »: أن علماء الشيعة ومحدثيهم قد تسلموا الخبر بانشقاق القمر لرسول الله «صلى الله عليه وآله» من غير توقف.

ثم إن هذا البعض قد ناقش في تواتر هذه الأخبار: بأن بعض

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ٢١ ص ٣٢٣ ـ ٣٣١.

رواتها لم يكونوا موجودين في زمن الانشقاق، مما يعني: أنهم نقلوها عن أشخاص آخرين، لا نعرف وثاقتهم، فتكون أخبار آحاد، ولا تثبت هذه الأمور بخبر الواحد.

ونقول:

ألف: لا ندري كيف يصبح الحديث المتواتر من أخبار الآحاد، إذا لم تثبت وثاقة بعض رواته؟! فهل يعتبر في الخبر المتواتر وثاقة رواته؟! وهل يعتبر أن يكون جميع الرواة معروفين لدينا أو موجودين في زمن الحادثة؟! حسبما يشير إليه قوله: «لم يكن رواة بعضها موجودين في زمن الإنشقاق المفروض، ليكونوا شهوداً عليه؛ مما يعني: أنهم نقلوه عن أشخاص آخرين، لا نعرف وثاقتهم الأمر الذي قد يجعل منها أخبار آحاد».

وإذا كان رواة بعضها غير موجودين حين حصول الحدث، فإن رواة الباقي المتواتر نقله كانوا موجودين آنئذ.

ومن أين له: أن من شروط التواتر هو وثاقة الرواة؟! وأين قرأ ذلك؟! وما الذي دله على هذا فأنكر ما يثبت به؟!

ب: إن هذا الأمر، أعني انشقاق القمر، ليس من أصول العقائد، التي يتوقف عليها الإسلام والإيمان، ليحتاج ثبوته إلى القطع واليقين، وإنما هو حدث تاريخي خارق للعادة له مساس بالعقيدة، يثبت بما هو حجة شرعية كأي حدث حصل في التاريخ خارق للعادة ينقل لنا عن النبي «صلى الله عليه وآله» قولاً أو فعلاً، أو كرامة إلهية له «صلى

الله عليه وآله».. فإن مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى أكثر من ذلك، لا سيما عند هذا الرجل الذي لا ينفك يدعي: أنه يلتزم بحجية خبر الواحد من باب طريق العقلاء.

نعم، لو كان ذلك من المعجزات التي يتوقف على إثباتها إثبات نبوة النبي مثلاً احتاج ذلك إلى الثبوت القطعي.

وهذا من الأمور البديهية والواضحة لدى العلماء .

٢ ـ إن هذا البعض قد قبل بالمناقشة التي تقول: «لو كان الانشقاق قد وقع لكان اللازم نزول العذاب، لأن هذه معجزة اقترحها المشركون، وقد استجاب الله لاقتراحهم حسب الفرض، فحيث لم يؤمنوا فإن اللازم هو نزول عذاب الاستئصال عليهم، كما هو الحال في الموارد المشابهة».

ونقول:

ألف: قال الله سبحانه:(**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)(١) .

فهذه الآية تعطينا: أن الله لم يكن لينزل عليهم العذاب ونبي الله

(١) الآيات ٣٢ ـ ٣٤ من سورة الأنفال.

الأكرم «صلى الله عليه وآله» موجود فيما بينهم.

ب: إن هذا البعض نفسه قد ذكر ثلاث روايات عن وقوع حادثة شق القمر، ويلاحظ أن اثنتين منها لم تذكرا أن أهل مكة قد اقترحوا على الرسول ذلك، فإذا طرحنا الرواية الثالثة، لأجل ضعف سندها، ولم نحمل المطلق على المقيد، لأجل ذلك، فإن ذلك لا يحتم علينا رفض الروايات المطلقة التي تنسجم مع الظهور القرآني، إذ لعلها كرامة أكرم الله بها نبيه ابتداء منه تعالى بهدف إقامة الحجة على المشركين تماماً كما هو الحال في تسبيح الحصى في يديه، وسجود الشجر له، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكليم الحيوانات له «صلى الله عليه وآله»، وغير ذلك.

ج: ولنفترض أننا حملنا مطلق الروايات على المقيد منها، وقلنا: إن انشقاق القمر قد حصل باقتراح منهم فكما أنه لا يجب على النبي «صلى الله عليه وآله» قبول كل اقتراح فلا يجب أيضاً أن يرد كل اقتراح.

ومع هذا فليس كل آية مقترحة توجب نزول العذاب، بل ما يوجب ذلك هو ما يكون اقتراحا يمثل التحدي له من قبل عامة الناس، بحيث يكون عدم ظهور الآية دليلاً لهم على كذب النبي في مدّعاه ـ والعياذ بالله ـ ويتم حسم القضية بهذه الطريقة من الأساس.

أما إذا كان اقتراحاً من أفراد لا بعنوان التحدي العام له، ولرسالته، فلا يجب أن ينزل العذاب بسبب ذلك.

وكذا لو كان هذا التحدي ليس حاسما كما ذكرنا.

ولم يظهر أن القضية في موضوع شق القمر كانت مستجمعة لهذين الشرطين.

٣ ـ وأما استدلاله على أن العذاب لابد أن ينزل بعد الآية المقترحة بآية **(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)** (١) .

فهو استدلال باطل، وذلك لما يلي:

ألف: إن ما ذكرناه آنفا كافٍ في إبطال هذا الإستدلال.

ب: إن قوله تعالى: **(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)** يدل على أن باب إرسال الآيات لم يغلق، وإنما هو مفتوح حين يريد الله تعالى تخويفهم بإظهار قدرته وهيمنته.

ج: إن قوله في تفسير هذه الآية: إن إرسال الآيات لا فائدة فيه.. لو صح: لاقتضى أن لا يكون سبحانه قد أرسل الآيات في السابق أيضاً، فإنه إذا كانت الآيات بلا فائدة ولا تحقق نتيجة، فكيف يفعل الله سبحانه أمراً لا فائدة فيه، وإن كانت مفيدة في السابق فما الذي منع من فائدتها الآن.

٤ ـ وبعدما ذكرنا يظهر بطلان قوله عن عدم وقوع انشقاق القمر

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الإسراء.

حسبما تقدم نقله من كتابه:

«وفي ضوء ذلك قد نلاحظ اختلاف هذا التفسير مع المفاهيم القرآنية العامة، فيكون الحديث المتضمن لها حديثا مخالفا للظواهر القرآنية».

وكيف انفرد في فهم هذه المخالفة مع أن علماءنا جميعا تسلّموا هذه الاخبار بلا توقف، فيدور الامر بين الطعن فيما فهموه جميعا بلا توقف هذا من جهة، أو الطعن في صحة فهمه هو من جهة أخرى، والأمر موكول إلى القارئ المنصف لا سيما بعد ظهور عدم صحة ما استند اليه في فهم هذا وهو لزوم نزول العذاب في المعجزات المقترحة.

٥ ـ قال فيما تقدم:

«وقد نلاحظ في هذا المجال: ضرورة التدقيق في كلمة مستمر، التي تعني انطلاق التهمة قبل الآية لتكون مستمرة بعدها، مما قد يتنافى مع انطلاق تهمة السحر من خلالها».

وقد اعتبر ذلك مؤيداً لمقولة أن يكون المراد بالآية الأولى التذكير بالأجواء التي توحي بيوم القيامة ويكون قوله تعالى: **(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)** (١). من قبيل قولهم عنه: إنه ساحر دون أن تكون مرتبطة بحادثة معينة.

---

(١) الآية ٢ من سورة القمر.

ونقول:

ألف: إن التدقيق في كلمة مستمر لا يجديه نفعاً، لأن مقصودهم بها: أن هذا الذي يرونه من انشقاق القمر ما هو بزعمهم إلا استمرار لممارساته السحرية التي رأوا العديد من مفرداتها، فهذه الحادثة قد جعلتهم يجددون اتهامهم إياه بهذه التهمة الباطلة. وتكون تهمة السحر له قد انطلقت من هذه الحادثة بالذات، ولكنها تهمة لاحظ من أطلقها مجموعة أحداث أراد أن يبرر بها عودته لإطلاق هذا الاتهام بالذات.

ب: إن من الواضح: أن اعتبار الآيات في سياق واحد أولى من فصلها عن بعضها البعض، لا سيما إذا جاءت الرواية لتؤكد وحدة هذا السياق، وترابط الآيات بعضها مع بعض.

فالإصرار على تجاهل الرواية الواردة عن أهل البيت «عليهم السلام» وعن غيرهم الصالحة للقرينية على وجود هذا الارتباط السياقي أمر لا مبرر له على الاطلاق.

٦ ـ قد دافع عن القول: بأن غفلة الناس عن هذا الأمر الخطير، وهو انشقاق القمر، تدل على عدم حصوله.

ونقول في دفاعه هذا:

إن ما ذكره من دلائل وشواهد لا يصلح لذلك، وذلك لما يلي:

ألف: إن هذا الإنشقاق قد حصل في نصف الكرة الأرضية حيث يوجد الليل دون النصف الآخر حيث يوجد النهار.

ب: في هذا النصف قد لا يلتفت أكثر الناس إلى ما يحصل في

الأجرام السماوية، إذا كان ذلك بعد نصف الليل، حيث الكل نائمون.

ج: لربما يكون في بعض المناطق سحاب يمنع من رؤية القمر.

د: إن الحوادث السماوية إنما تلفت النظر إذا كانت مصحوبة بصوت كالرعد، أو بأثر غير عادي كقلة نور الشمس في الكسوف، إذا كان لمدة طويلة نسبياً.

هـ: هذا كله عدا عن أن السابقين لم يكن لهم اهتمام كبير بالسماء وما يحدث لأجرامها.

و: لم يكن ثمة وسائل إعلام تنقل الخبر من أقصى الأرض إلى أقصاها بسرعة مذهلة لتتوجه الأنظار لما يحدث.

ز: إن التاريخ الموجود بين أيدينا ناقص جداً، فكم كان في تلك المئات والآلاف من السنين الخالية من كوارث، وزلازل، وسيول عظيمة، أهلكت طوائف وأمماً، وليس لها مع ذلك في التاريخ أثر يذكر، بل إن زرا دشت ـ وقد ظهر في دولة عظيمة وله أثر كبير على الشعوب على مدى التاريخ ـ لا يعرف أين ولد وأين مات ودفن، بل يشك البعض في كونه شخصية حقيقية أو وهمية.

٧ ـ وبعد ما تقدم نقول: إنه لا يجب أن يعرف جميع الناس بانشقاق القمر، ولا أن يضبطه التاريخ بشكل دقيق. بل اللازم هو معرفته من قبل من ظهرت هذه المعجزة عنده من أجل إقناعه.

٨ ـ إن إنكاره لمضامين الأحاديث التي أجمع عليها المسلمون سوى من استثناهم هذا البعض، وهم فقط ثلاثة أشخاص: الحسن

البصري، وعطاء، والبلخي ـ إن إنكاره له ـ استناداً إلى هذه الاستبعادات، الاستنسابية مع وجود هذه المعطيات التي قدمناها ليس له ما يبرره.

٩ ـ قول هذا البعض: «إن الأرصاد لم تسجل هذا الأمر ولا اشارت إليه..» لا يفيد شيئاً، لأن هذا الأمر لا حاجة فيه إلى أرصاده، لأن الأرصاد كانت موجودة عند غير العرب، وكانت من القلة بمكان.. وليس ثمة ما يشير إلى أن القائمين عليها كانوا في تلك الساعة في حالة رصد للسماء ولما يجري فيها.

١٠ ـ إن من الواضح: أن إنكار شق القمر سوف يقطع الطريق على الخوض في أمر رد الشمس إلى علي «عليه السلام» الثابت هو الآخر بالرواية الصحيحة سنداً عند السنة فضلاً عن الشيعة، فإن الاستنسابات والاستحسانات، التي أريد لها أن تنفي حادثة شق القمر تصلح لنفي حادثة رد الشمس لأمير المؤمنين أيضاً.. وربما نجد في كلام هذا البعض ما يشير بخصوصه إلى هذا الإنكار أيضاً. ولكننا لا نثير ذلك هنا، لأننا أخذنا على عاتقنا الإقتصار في أقاويله على ما هو مكتوب ومطبوع.

٤٨٠ ـ الكثير من الخيال في خصوصيات الرواية المتواترة.

٤٨١ ـ في الروايات ما لا يستطيع الباحث تفسيره بطريقة معقولة فهو من الخيال.

٤٨٢ ـ الزمن لا يسمح بتغطية جميع الحوادث المذكورة في

الإسراء والمعراج.

٤٨٣ ـ المسألة الإعجازية تبقى في دائرة القدرة البشرية المحدودة للنبي «صلى الله عليه وآله».

٤٨٤ ـ قدرات النبي «صلى الله عليه وآله» تخضع لعامل الزمان والمكان.

٤٨٥ ـ إذا كان الإسراء بالجسد فهو يخضع للقدرات البشرية.

٤٨٦ ـ إذا كان الإسراء بالجسد ففي الروايات خيال وإلا فلا خيال.

ويقول البعض:

قصة الإسراء:

«وقد أجملت الآية الأولى من هذه السورة مسألة الإسراء ولم تفصل شيئاً من حوادثها.. ولكن الروايات المتواترة أفاضت في الحديث عن ذلك، ربما كان في الكثير مما ذكر في خصوصياتها الكثير من الخيال فيما نلاحظه من بعض القضايا التي قد لا يستطيع الباحث تفسيرها بطريقة معقولة. لا سيما فيما أفاض فيه المحدثون عن قصة المعراج، الذي يذكرون انه كان في ليلة الإسراء في الوقت الذي لا يسمح مثل هذا الزمن القصير في تغطية ذلك كله لأن المسألة إذا كانت تحمل الإعجاز في طبيعتها فإنها تبقى في دائرة القدرة المحدودة للنبي في خصوصيات بشريته التي تخضع لعامل الزمان والمكان في حركته الزمانية والمكانية، إذا كان الإسراء بالجسد كما

هو المعروف فيما بينهم» (١).

وقفة قصيرة:

١ ـ لا ندري كيف يحكم هذا البعض على مضمون رواية متواترة أن في الكثير من خصوصياتها الكثير من الخيال ؛ ثم يجعل ذلك ذريعة لردها خصوصاً قصة المعراج. فإن تواتر الرواية يعني قطعية صدورها عن المعصوم، فاذا كانت خصوصياتها متواترة أيضاً فإن تلك الخصوصيات تثبت أيضاً. بل إنها حتى لو لم تكن متواترة، فإن ذلك لا يبرر له وصف تلك الخصوصيات بأنها خيال، كما سيأتي لأن ثبوتها بما هو حجة بخبر الواحد مثلا يكفي في لزوم التسليم بهاوالأخذ بمضمونها. فهل هذا الخيال هو خيال المعصوم؟! أم هو خيالنا نحن في فهم وتقييم كلامه «عليه السلام»، وما بيَّنه لنا من حقائق؟!

٢ ـ إن عدم قدرة البعض على تفسير أو استيعاب بعض القضايا لا يبرر له اعتبارها أموراً خيالية، بل عليه أن يترك المجال لمن يملك القدرة على فهم هذه القضايا من خلال ما يعرفه من ضوابط ومعايير إيمانية وعلمية قادرة على وضع الأمور في نصابها الصحيح.

٣ ـ إن ما أفاض فيه المحدثون من تفاصيل في قضية المعراج، إنما هو من الأمور التوقيفية الممكنة التي يفترض أن يأخذوها من المعصوم المطلع على هذه الأمور التي لا يدركونها بعقولهم، ما دام

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج ١٤ ص ٦.

أنها ترتبط بعالم الغيب.

٤ ـ إن الظاهر هو: أن هذا البعض لم يستطع تفسير ما يذكر من تفاصيل في قضية الإسراء، فضلاً عن قضية المعراج فلجأ إلى الاستبعاد والإنكار.

٥ ـ إنه إذا كان الإنسان يرى في منامه أحداثاً تفصيلية تحتاج إلى مساحة زمنية واسعة ـ نعم يراها ـ في زمن قصير للغاية. فلماذا لا تختصر القدرة الإلهية الزمان الحقيقي في نطاق تجسيد الحدث الزماني للأجسام التي تحتاج إلى الزمان والمكان. فإن سيطرة القدرة الإلهية على الحركة في المادة الزمانية مما لا يصح إنكاره؟!

بل إننا نجد هذا الإنسان قد تغلب على كثير من المصاعب، واختصر المسافات إلى درجة كبيرة ومذهلة، فكيف بخالق هذا الوجود كله، الذي جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم «عليه السلام» ومكّن آصف بن برخيا وصي النبي سليمان «عليه السلام» **(الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)**[(١)] أن يأتي بعرش بلقيس، وما إلى ذلك؟!

وليكن الشاهد الحي على إمكانية الاسراء والمعراج، هو حدوث نظائر كثيرة له حين تتدخل القدرة الإلهية.

ومن ذلك طيّ الأرض للإمام علي «عليه السلام»، حينما جاء

(١) الآية ٤٠ من سورة النمل.

من المدينة في الحجاز إلى المدائن قرب بغداد في العراق، ليتولى تجهيز سلمان الفارسي ودفنه.. (١).

وكذا طيّ الأرض للإمام الجواد «عليه السلام» حيث ذهب من المدينة في الحجاز إلى خراسان ليتولى مراسم تجهيز ودفن أبيه الإمام الرضا «عليه السلام».

وكذلك الحال بالنسبة للإمام السجاد «عليه السلام» حينما ذهب من الكوفة إلى كربلاء لدفن الأجساد الطاهرة حيث عاونته قبيلة بني أسد على ذلك.

وليكن من ذلك أيضاً: انتقال عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين، قبل ارتداد الطرف مع أن هذا العرش زماني ومكاني.

وليكن من ذلك أيضاً، قصة التقام الحوت ليونس، وبقائه في بطنه برهة من الزمان، **(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)** (٢).

٦ ـ إذا كانت القضية ترتبط بالإعجاز الإلهي، فلماذا يجب أن تبقى في حدود القدرة البشرية المحدودة للنبي «صلى الله عليه وآله»،

---

(١) ومناقشة البعض في هذا الأمر لا أهمية لها، لأنها تدخل في سياق نظرته العامة لمثل هذه الامور إلى حدٍ ادعى معه لزوم تحصيل التواتر القطعي في هذه الأمور وأمثالها.

(٢) الآيتان ١٤٣ و ١٤٤ من سورة الصافات.

فإن بقاءها كذلك يتنافى مع كونها معجزة إلهية؟!

ومن الذي قال: إن بشرية النبي «صلى الله عليه وآله» تحدد قدرته إلى درجة يمتنع معها حصول مثل هذه الأمور له «صلى الله عليه وآله»، حتى لو كان الإسراء بالجسد؟!

وهل يريد أن يقنعنا أن القول بصحة هذه التفاصيل يلازم القول: بأن الإسراء كان بالروح، كما قالت عائشة وغيرها من بني أمية؟!

وهل يريد أن يقنعنا: بعدم قدرة البشر على فعل الخوارق، مع أن علياً «عليه السلام» قال عن عيسى «عليه السلام»، فيما يرتبط بمشيه على الماء: «لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء»، فهل كان مشيه على الماء بروحه أم بالروح والجسد؟!

الفصل الثالث

إهانات لا تحتمل لرسول الله ‘

بداية:

إننا نورد في هذا الفصل فقرات من مقولات سجلها البعض حول النبي «صلى الله عليه وآله» سيتضح للقارئ العزيز: أن كثيراً منها يمكن أن تدخل في عدد من الفصول الأخرى أيضاً..

ولكننا لم نحاول الإشارة إلى ذلك في تلك الموارد، لأننا نعلم: أن القارئ الكريم يدرك: أن ما يقوله هذا البعض عن نبينا «صلى الله عليه وآله» لا يمكن استثناء سائر الأنبياء منه، فإن ما يجوز على أكرم الخلق وأفضلهم لا بد أن يكون جائزاً على من عداه من أنبياء الله، الذين لم يدركوا مقامه، ولم يصلوا إلى درجته.

كما أن القارئ الكريم قادر على الربط بين الأمور، والإستفادة من المقولة الواحدة في المواقع المختلفة التي تناسبها.

وعليه، فإننا نقدم للقارئ الكريم الأمور التالية:

٤٨٧ ـ لا تفعلوا مثل فعل النبي «صلى الله عليه وآله».

٤٨٨ ـ لا تكن منطلقاتكم منطلقات النبي محمد «صلى الله عليه وآله».

٤٨٩ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» لا يعرف المهم من الأهم.

٤٩٠ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» يقوم بتجربة غير ذات موضوع.

٤٩١ ـ الله يربي رسوله تدريجيا بعد الوقوع في الخطأ.

٤٩٢ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» يحتاج إلى تكامل الوحي، وسعة الأفق، وعمق النظر للأمور.

٤٩٣ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» يستغرق فيما فيه مضيعة للوقت.

٤٩٤ ـ النبي يفوّت الفرص المهمة.

٤٩٥ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» يخطيء في التشخيص.

٤٩٦ ـ النبي «صلى الله عليه وآله» لا يعرف مسؤوليته المباشرة.

ويقول البعض، إن آيات عبس وتولى قد نزلت في النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، وكلماته حول هذا الأمر كثيرة، ونحن نختار منها ما يلي:

يقول البعض:

«لكن الله أراد أن يبين طبيعة المسألة، وأن يخاطب الآخرين: إذا ابتليتم بمثل هذه القضية طبعاً لا تكن منطلقاتكم منطلقات النبي «صلى الله عليه وآله»، فلا تفعلوا مثل ذلك» (١).

---

(١) الموسم العددان ٢١ ـ ٢٢ ص٢٩٥ وراجع ص٨٦.

يقول هذا، مع أن الله سبحانه يقول: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)**(١).

ويقول:

«..**(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)**(٢)، للإيحاء له بأن عدم حصوله على التزكية، بعد إقامة الحجة عليه من قبلك مدة طويلة، لا يمثل مشكلة بالنسبة إليك، لأنك لم تقصر في تقديم الفرص الفكرية بما قدّمته من أساليب الإقناع، مما جعل من التجربة الجديدة تجربة غير ذات موضوع لأنه ـ يعني ذلك الغني ـ يرفض الهداية من خلال ما يظهر من سلوكه، الأمر الذي يجعل من الإستغراق في ذلك مضيعة للوقت، وتفويتا لفرصة مهمة أخرى، وهي تنمية معرفة هذا المؤمن الداعية الذي يمكن أن يتحول إلى عنصر مؤثر في الدعوة الإسلامية»(٣).

وذكر في موضع آخر كيف أن النبي قد أخطأ في تشخيص ما ينبغي عليه، فهو يقول:

«..**(فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)**(٤)، لأنك تحسب أن إيمان هؤلاء الصناديد قد ينفع الإسلام أكثر من نمو إيمان هذا الأعمى الذي يمكن أن يؤجل

---

(١) الآية ١٢ سورة الأحزاب.

(٢) الآيات ٥ ـ ٧ من سورة عبس.

(٣) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٢٤ ص ٦٧.

(٤) الآية ١٠ من سورة عبس.

السؤال لوقت آخر، ولكن المسألة ليست كذلك.. لأن هذا الأعمى وأمثاله، يمثلون مسؤوليتك المباشرة كرسول يعمل على تنمية خط الدعوة بتنمية الدعاة حوله، من أجل أن يؤثروا عليك في بعض الجهد، أو يوسعوا ساحة الدعوة في مواقع جديدة.

وهذا هو ما يريد الله أن يفتح قلبك عليه فيما يريد لك من تكامل الوعي، وسعة الأفق، وعمق النظرة للأمور.

ولا مانع من أن يربي الله رسوله تدريجياً، ويثبت قلبه بطريقة متحركة الخ..» (١).

ويقول عن ابن أم مكتوم:

«فأراد أن ينتهز فرصة وجود النبي مع المسلمين أن يأخذ من علمه فيما أنزله الله عليه من كتاب، وما ألهمه من علم الشريعة والمنهج والحياة.. ولكن النبي لم يستجب له لأن هناك حالة مهمة يعالجها في دوره الرسالي المسؤول في محاولة لتزكية هؤلاء الكفار من وجهاء المشركين، طمعاً في أن يسلموا ليتسع الإسلام في اتباع جماعتهم لهم، لأنهم يقفون كحاجز بين الناس وبين الدعوة، ولذلك أجّل النبي «صلى الله عليه وآله» الحديث مع هذا الأعمى إلى وقت آخر، فيما كانت الفرص الكثيرة تتسع للقاء به أكثر من مرة فتكون له الحرية في إغناء معلوماته بما يجب في جوّ هادئ ملائم، بينما لا

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٢٤ ص ٧٦.

تحصل فرصة اللقاء بهؤلاء دائما، فكانت المسألة دائرة، ـ في وعيه الرسالي ـ بين المهم، في دور هذا الأعمى، وبين الأهم، في دور هؤلاء الصناديد.

ولكن الله يوجه المسألة إلى ما هو الأعمق في قضية الأهمية في مصلحة الرسالة، باعتبار أن هذا الأعمى قد يتحول إلى داعية إسلامي كبير، **(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)** (١)، فيما يمكن أن يستلهمه من آيات القرآن التي يسمعها، مما يُغني له روحه، فتصفو أفكاره، وترقّ مشاعره، وتتسع آفاقه» (٢).

وقفة قصيرة:

ونقول:

إن آيات سورة عبس هي التالية: **(عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)** (٣).

ونحن نشير هنا إلى ما يلي:

١ ـ إن الذي يلاحظ الآيات الشريفة لا يجد فيها أي شيء يدل

---

(١) الآية ٣ من سورة عبس.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج٢٤ ص٧٣.

(٣) الآيات ١ ـ ١٠ من سورة عبس.

على أن المقصود بها هو شخص رسول الله «صلى الله عليه وآله» بل فيها ما يدل على أنها لا تليق به «صلى الله عليه وآله»، فلماذا الإصرار على ذلك من قبل البعض، وبشكل لا يقول به حتى من يدّعي نزولها في النبي «صلى الله عليه وآله» من العامة؟!

٢ ـ إنّ قوله تعالى: **(وَمَا يُدْرِيكَ)** ليس خطاباً لرسول الله، وإنما هو التفات من الغيبة إلى الخطاب، مع العابس نفسه.

٣ ـ إنّ قوله تعالى: **(فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)** لا يدل على أنّه كان يتصدى له لأجل الدين، فلعله كان يتصدّى للأغنياء لأهداف دنيوية، ولعل ذلك العابس يتظاهر بأنّه مهتمّ بنشر هذا الدين، وقد جاء مع أولئك الأغنياء مظهرا حرصه على إيمانهم، فكان يتلهّى بالحديث معهم، مظهرا الضّيق والإشمئزاز من ذلك الفقير.

٤ ـ وقوله تعالى: **(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)** ليس فيه أن الغني سوف يزّكى على يد ذلك العابس، فلعله يتزكى على يد شخص آخر غيره، ممن هم في ذلك المجلس، كالنبي «صلى الله عليه وآله»..

٥ ـ إن الآيات تشعر ـ إن لم نقل تدل ـ: أنّه قد كان من عادة العابس أن يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء، ولم يكن ذلك من عادة النبي «صلى الله عليه وآله».

٦ ـ قد روي عن أهل البيت «عليهم السلام»: أن الآيات قد نزلت

في رجل من بني أمية، وبعض الروايات قد صرحت باسمه (١)،

وروى الطبرسي أيضاً عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أن رسول الله كان إذا رأى ابن أم مكتوم قال: مرحباً مرحباً، لا والله، لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف، حتى كان يكفّ عن النبي «صلى الله عليه وآله» مما يفعل به.

والظاهر: أنه «صلى الله عليه وآله» كان يريد بهذا الفعل التعريض بمن صدر منه ذلك في حق ابن أم مكتوم.. كأنه يقول له: والله أنا لا أعاملك كما عاملك فلان..

هذا بالإضافة إلى أن دعوى نزول الآيات في النبي «صلى الله عليه وآله» إنما وردت في روايات غير الشيعة.

واغترار البعض بها، وقبوله لها وترك ما روي عن أهل البيت «عليهم السلام»، لا يعلم له وجه صحيح، علماً أن بعض مفسري العامة، ومنهم الفخر الرازي في رسالته في عصمة الأنبياء قد طرح هذه الروايات، وعلل ذلك: بأنها أخبار آحاد، ومخالفتها للقواعد العقلية.

٧ ـ إن الإعتذار عن نزول الآية في النبي «صلى الله عليه وآله»: بأن ابن أم مكتوم كان أعمى، وليس في العبوس إساءة له، لأنه لا

---

(١) راجع تفسير القمي ج٢ص٤٠٥ وتفسير البرهان ج٤ص٤٢٧ و ٤٢٨ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٥٠٨ و ٥٠٩ ومجمع البيان ج١٠ص٤٣٧.

يرى، إعتذار غير سديد، لأن الله سبحانه قد طالب العابس بهذا الأمر، واعتبره أمراً يستحق اللوم والعتاب..

وإذا كان ابن أم مكتوم لا يرى العبوس، فإن الحاضرين قد رأوه وأدركوه، واستقر في أنفسهم: أن العابس غير مرتاح من ذلك الأعمى.

٨ ـ إن الإعتذار عن ذلك بوجود وحدة حال بين الأعمى وبين النبي «صلى الله عليه وآله» هو الآخر اعتذار غير سديد، إذ لا يوجد ما يثبت وجود وحدة الحال هذه، وقصة دخوله على بعض زوجات النبي «صلى الله عليه وآله» لا تدل على وجود وحدة حال.. وذلك لعدة أمور:

أولاً: عدم وجود ما يشهد لتكرر ذلك، فالرواية لا تذكر أزيد من أنه جاء واستأذن، فقال النبي «صلى الله عليه وآله» لزوجتيه: قوما وادخلا البيت، فاحتجتا بأنه أعمى، فقال لهما: أفعمياوان أنتما؟! ألستما تبصرانه؟! (١).

ثانياً: إن وقوع مثل هذه الأمور لا يدل على وحدة الحال، فقد كان الكثيرون من الصحابة يدخلون على النبي «صلى الله عليه وآله»، في حين تكون زوجاته عنده، لا سيّما مع عدم تعدد الحجرات التي كانت تسكنها النساء مما قد بني حول المسجد.

---

(١) مجمع البيان ج١٠ص٤٣٧ وتفسير البرهان ج٤ص٤٢٨ وتفسير نور الثقلين ج٥ص٥٠٩.

ثالثاً: إذا كانت هذه الحادثة قد حدثت في مكة وفي أوائل البعثة، فمن أين يثبت لنا وجود وحدة الحال هذه، في تلك الفترة بالذات، فيما بين ابن ام مكتوم وبين النبي «صلى الله عليه وآله»..

رابعاً: إن وجود وحدة الحال المزعومة، لا يبرر تضييع حق ذلك الأعمى، ففي الخبر: لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه [١].

خامساً: إن نفس صدور ذلك من النبي «صلى الله عليه وآله» أمام المشركين يعطي انطباعاً سيئاً عن أخلاق الإسلام، ومنطلقاته في التعامل مع الآخرين.

سادساً: إنه لا معنى للنهي عن أن يفعل الناس مثل فعل النبي «صلى الله عليه وآله»، وقد قال تعالى: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)** [٢].

سابعاً: كيف يمكن أن يقول أحد عن أفضل الرسل: إنه لا يعرف الأهم من المهم، وإنه يستغرق فيما هو مضيعة للوقت، ويفوت الفرص، ويفرط في تنمية المعرفة الإيمانية لدى المؤمنين، وإنه يجهل بحقيقة مسؤولياته، ويخطيء في تشخيص تكليفه، وأي نبي هذا الذي أرسله الله وفيه كل هذه العلل؟!

---

(١) الوسائل كتاب الحج ابواب العشرة باب ١٢٢ حديث١٢.

(٢) الآية ١٢ سورة الأحزاب.

٤٩٧ ـ الخطأ غير المقصود للنبي «صلى الله عليه وآله».

ويتحدث ذلك البعض عن الخطأ غير المقصود لنبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، فيورد احتمالا يقول:

«..(**عَفَا اللهُ عَنْكَ**)(١). وهذا أسلوب في العتاب لا يعنف في المواجهة، بل يرق ليخفف من وقع الخطأ، انطلاقا من عدم الإطلاع على مواقفهم الحقيقية، مما يؤدي إلى تصديقهم فيما يقولون»(٢).

وقفة قصيرة:

إن من المعلوم: أنه ليس ثمة من خطأ على الإطلاق، وأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان مطلعا على حالهم، ولا يصح احتمال الخطأ، وغيره مما ذكره في حق النبي «صلى الله عليه وآله»، بل المتعين أن يقال: إن النبي «صلى الله عليه وآله» كان عالما بحقيقة نواياهم، ولكنه كان يظهر تصديقهم لأن عليه أن يعاملهم وفق الأمارات الظاهرية، لا وفق علمه الخاص بحالهم، كما أشارت إليه الآيات، فإذا كان يعرف ذلك، ثم يعاملهم بمنتهى الإحسان والرفق، فانه يكون غاية في الخلق النبوي الكريم..

وقوله: (**عَفَا اللهُ عَنْكَ**)(٣). تعبير يستعمل عادة في مقام إظهار

---

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة.

(٢) من وحي القرآن ج ١١ ص١٢٩.

(٣) الآية ٤٣ من سورة التوبة.

استحقاق الطرف الذي يجري الحديث عنه إلى العقوبة، ولكن استعمال هذا التعبير لا يعني أن العفو عنه كان خطأ، فهو كقولك: سامحك الله لم عفوت عن فلان، فان العفو عنه حسن، لكن المطلوب هو إبراز استحقاقه للعقوبة، وهنا قد جاء التعبير الإلهي عنهم بذلك من أجل فضحهم، واظهار نواياهم، بل إننا إذا رجعنا إلى ما هو المتعارف عند الناس في مجال التعامل، فإننا نجدهم لا يتسامحون مع هذا النوع من الناس، بل يعاملونهم بصرامة وحزم، حين يدركون خبث باطنهم وسوء نواياهم، ومكرهم، واحتيالهم، ويرون أن معاملتهم بهذا المستوى من الصفح واللين خطيئة وذنب، فيكون قوله: **(عَفَا اللهُ عَنْكَ)**. أيضاً مشيراً إلى ما بلغته معاملة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لهم من نبل وكرامة وصفاء، مع وجود هذا الحجم الهائل من خبثهم، ومن إجرامهم الكبير، ولا ينبغي إغفال حقيقة كون نسبة الخطأ إلى النبي «صلى الله عليه وآله» منافية لعصمته في مذهب الشيعة الإمامية، لأنهم قائلون بعصمة الأنبياء «عليهم السلام» عن الخطأ والخطيئة والسهو والنسيان قبل البعثة وبعدها في التبليغ والإعتقاد والأفعال والأحكام.

٤٩٨ ـ الزهراء «عليها السلام» عوضت النبي «صلى الله عليه وآله» ما فقده من حنان.

٤٩٩ ـ جوع النبي «صلى الله عليه وآله» وهو في القمة إلى الحنان.

إن البعض يقول:

«..وإذا كانت كلمة «أم أبيها» تعني الإحساس القوي باستعادة عاطفة الأم التي فقدها في طفولته فعاش فراغها في مشاعره من خلال ابنته فاطمة..

إلى أن يقول: إن النبي استعاد أمه في ابنته، ومعنى ذلك، أنه عاش الإمتلاء الروحي العاطفي الشعوري الذي يحتاجه في بشريته حتى وهو في قمة الفعلية لأن الرسول بشر، يتألم ويفرح، ويحزن ويتعب، ويتحسس كل الأجواء التي تثبت موقفه وتثبت موقعه، وتطلق آفاقه..» (١).

ونجده يقول أيضاً:

«بدأ النبي حياته وهو يشكو فقد حنان الأم، لأن حنان الأم ليس شيئاً يمكن أن تتكفله مرضعة أو مربية، إنه شيء من عمق الروح، من عمق القلب، لأن الولد جزء من الأم، ولذلك فإن إحساسه كإحساس الإنسان بنفسه، ليس شيئاً خارجاً عن حياته، ولكنه شيء داخل في حياته وكانت هي جزءا من الرسول، والجزء يتفاعل مع الأجزاء الأخرى، ولذلك أعطته أمومتها باحتضانها له، وقالها رسول الله وهو يشعر أن ذاك الفراغ الذي فقده بفقدان أمه استطاع أن يملأه من خلال

---

(١) مقابلة مع إذاعة النور بتاريخ ٢٢ ـ ١١ ـ ١٩٩٧. موجود لدينا في شريط رقم ٥

ابنته، فابنته هي أمه بالروح وابنته بالجسد، ولذلك قال عنها: إنها «أم أبيها»، كم تحمل هذه الكلمة من دلالات الخ..» (١).

ويقول في نص آخر:

«إن كلمة النبي «صلى الله عليه وآله» عن الزهراء «عليها السلام»: إنها «أم أبيها» توحي لنا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» عاش مع ابنته الزهراء «عليها السلام» حنان الأم وعطفها، بحيث عوضته عما فقده من حنان أمه وعاطفتها، حتى إنه «صلى الله عليه وآله»، وهو يتمثلها كيف ترعاه، وتحنو عليه، وتبكي إذا مسّه سوء، كان يحس كما لو أن أمه كانت تفعل ذلك، وتعيش معه، وليس هذا عقدة نقص في شخصيته «صلى الله عليه وآله» وهو «صلى الله عليه وآله» لم يشكُ عقدة نقص على الإطلاق».

إلى أن قال:

«فالنبي «صلى الله عليه وآله» يمثل الكمال كله. وعلى هذا، فإن إحساس البشر بالجوع لا يعني نقصا فيه، وليس هناك فرق بين الجوع إلى الطعام، وبين الجوع إلى الحنان. فنحن نعيش الجوع إلى الحنان كما نعيش الجوع إلى الطعام. فهل هناك نقص في النبي «صلى الله عليه وآله» عندما يحس بالجوع، إن كان جوعا للحنان، أو للطعام؟

---

(١) الندوة ج١ ص ٥٨.

الخ..» (١).

ونقول:

إنه ليس في كلام النبي «صلى الله عليه وآله»، ما يشير إلى وجود هذا الجوع إلى الحنان في داخل نفسه كما ينسبه إليه هذا البعض.

وإذا صح قياس الجوع إلى الحنان على الجوع للطعام، صح أيضاً قياسه على الجوع الجنسي أيضاً. فهل يصح أن يقال: إن عزوبة النبي «صلى الله عليه وآله» التي استمرت سنوات، قد أوجدت عنده جوعاً جنسياً يحتاج إلى تعويض؟! ثم يفسّر تعدد زوجاته «صلى الله عليه وآله» على هذا الأساس؟! وهل أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد بقي جائعاً إلى الحنان ما يقرب من خمسين سنة، حتى أصبح جوعاً «مزمناً» يكتوي «صلى الله عليه وآله» بناره، وفراغا مستمرا، لا يجد ما يدفع غائلته، أو يدفع عنه؟!

إننا نقول:

إنه لا يصح قياس الجوع إلى الحنان على الجوع إلى الطعام. فلو افترضنا أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد احتاج في طفولته إلى العطف، فذلك لا يعني أن تستمر حاجته إليه إلى ما بعد خمسين سنة، ولا أن يكون لديه فراغ عاطفي يحتاج إلى ملء وتعويض، وذلك لأن

---

(١) نشرة بينات عدد ٣٥ بتاريخ ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٩٧.

بعض الأمور تفقد مبرراتها ومواقعها ومقتضياتها، ولا يبقى لها مجال، فتزول وتتلاشى. فمن حرم في طفولته من الرضاعة، فإنه لا يعوض عنها برضاعه بعد خمسين سنة بحيث يحتاج إلى أم يلتقم ثديها، ويرتضع من لبنها.

ولا ندري لماذا يقيس هذا البعض الحاجة إلى الحنان في الطفولة على الحاجة للأكل والشرب، ولا يقيسها على الحاجة إلى الرضاعة، فإنها بها أنسب وإليها أقرب؟! فإن الكلام هو عن حاجات الطفولة، وليس الكلام عن وسائل بقاء الحياة واستمرارها. وهل إذا كان الطفل يحتاج في حال طفولته إلى ثوب يلبسه ولم يحصل له ذلك، فهل يبقى بعد خمسين سنة بحاجة إلى لبس نفس الثوب؟! واستبعاد كلمة عقدة نقص لا يدفع الإشكال ولا يحل العقدة.

فإن القول بوجود فراغ نفسي في الشخصية الإنسانية للنبي «صلى الله عليه وآله»، أمر مرفوض.. تماماً كرفضنا لمقولة معاناته «صلى الله عليه وآله» من عقدة نقص..

ونحن نعتقد: أنه «صلى الله عليه وآله» هو الإنسان الكامل في عقله، وفي مشاعره، وفي تكوينه النفسي والعاطفي.

ونعتقد: أنه «صلى الله عليه وآله» حتى حين تعطف ابنته عليه، فإنها إنما تقوم بمسؤولياتها وتؤدي واجباتها، وتعبر عن رفيع أدبها تجاهه «صلى الله عليه وآله». والزهراء هي الأسوة والقدوة في ذلك كله..

ويمكن تقريب هذا المعنى إذا لاحظنا حال أي إنسان يكرم والديه أو يحترم معلمه، أو يعبد الله تعالى فإنه إذا فعل ذلك وقبل يد والده أو معلمه، أو صلّى لربّه لا يكون قد ملأ فراغاً في نفس والده أو لدى ذلك العالم، كما أن الله ليس بحاجة إلى صلاته، ولا هي تملأ له فراغا، أو تحل له عقدةً تعالى الله وأنبياؤه عن ذلك علوّا كبيراً.

وأما معنى قوله «صلى الله عليه وآله» في حقّها «سلام الله عليها»: إنها أمّ أبيها، فلا يعني: أن أباها كان بحاجة إلى عاطفتها، بل معناه: أنها على صِغَرِ سنّها قد ظهر منها من العطف والحنوّ والتفاعل الروحي والعاطفي معه «صلى الله عليه وآله» كما لو كانت أمّاً تتفاعل مع ولدها، دون أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» بحاجة إلى ذلك، ولا كان يعاني من فراغ ملأته عليه. فلماذا هذا الإصرار على أن ينسب للنبي «صلى الله عليه وآله» فراغاً في تكوينه النفسي وفي شخصيته النبوية؟!

٥٠٠ ـ قد يكون ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول انفتاحاً في الإنجذاب العاطفي إليهم.

٥٠١ ـ ما ألقاه الشيطان يؤدي إلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة.

٥٠٢ ـ ما ألقاه الشيطان يؤثر على صلابة الفكرة في حركة المواجهة.

٥٠٣ ـ ما ألقاه الشيطان يؤدي إلى إضعاف المؤمنين.

٥٠٤ ـ ما ألقاه الشيطان يوجب اهتزاز إيمان المؤمنين.

٥٠٥ ـ أسلوب النبي «صلى الله عليه وآله» (وهو ما ألقاه الشيطان) قد يوحي بغير ما يريده.

٥٠٦ ـ ألقى الشيطان للنبي «صلى الله عليه وآله» أن يحاول احتواء الساحة بالموقف المهادن.

٥٠٧ ـ ألقى الشيطان إليه «صلى الله عليه وآله» أن يجامل عقيدتهم دون اعتراف بها.

٥٠٨ ـ إلقاءات الشيطان هي خطورات ذهنية تبرز في مظاهر السلوك.

٥٠٩ ـ النبي يخطئ في تشخيص تكليفه الشرعي.

٥١٠ ـ يزيل القاءات الشيطان، حتى لا يبقى أثر سلبي على حركة الرسالة في الفكرة والأسلوب.

٥١١ ـ المجتمع المؤمن يتأثر سلباً بإلقاءات الشيطان.

٥١٢ ـ المجتمع المشرك يتأثر إيجاباً بإلقاءات الشيطان.

٥١٣ ـ إلقاء الشيطان يدخل في فكر النبي وقلبه.

٥١٤ ـ الآتي من الشيطان داخل في عمق الأمنية في داخل الذات.

٥١٥ ـ إلقاءات الشيطان تطوف بذهن النبي وتتحرك بسرعة في مظاهر سلوكه.

٥١٦ ـ هذه الأفكار كانت تخطر في أذهان الأنبياء والرسل السابقين أيضاً.

قال الله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)**[(١)].

ويقول البعض في شرح هذه الآية:

«..وقد فسر المفسرون المعترضون على هذه الرواية، الآية بطريقة أخرى. فقد جاء في الميزان: أن معنى الآية: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى..)** وقدّر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به **(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)** وداخل فيها بوسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإظهار الحق والله عليم حكيم..

وقد نلاحظ على هذا التفسير: أنه حاول أن ينظر إلى مسألة إلقاء الشيطان في الأمنية النبوية في الواقع الخارجي لحركة الأمنية في ساحة الصراع بين خط الله وبين خط الشيطان.. مما يجعل الآية

---

(١) الآيتان ٥٢ و ٥٣ من سورة الحج.

جارية على أساس الأجواء التي تتحدث عن إغراء الشيطان للآخرين في إبطال الأمنية في خط الواقع ولم يحاول أن ينظر إليها من الداخل، فيما تختزنه كلمة: فيلقي (**الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**) من معنى إدخال شيء فيها بحيث تكون ظرفاً له وموقعاً من مواقعه، لا حركة خارجية من الآخرين في مواجهتها، ليكون النسخ ـ من خلال ذلك ـ نسخاً في حركة الواقع، لا نسخاً في طبيعة خصوصيات الأمنية.

إن هذا المعنى الذي ذكره صحيح في الإعتبار، ولكنه لا ينسجم مع ظهور الآية في كلماتها، كما نفهمه.. لأنها ظاهرة في وجود شيء ما من الشيطان في طبيعة الأمنية.. وقد لا يكون من الضروري ظاهراً: أن يكون هذا الشيء فعلياً فيما يصدر عنه من قول أو فعلٍ.. أو يكون منافياً للمبادئ التي يبشّر بها، فقد يكون انفتاحاً في الإقبال عليهم والإستماع لهم والإنجذاب العاطفي إليهم والإيحاء لهم بالتفكير فيما يقولونه مما قد يطمعهم فيه، أو يوحي إليهم: بأن موقفه قد أصبح أكثر مرونة.. فيؤدي ذلك إلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة، من حيث تأثيره على صلابة الفكرة في خط المواجهة وتبيان الموقع في ساحة الصراع.. وإضعافه للمؤمنين الذين قد تكون المرونة في الموقف في علاقة النبي بالمشركين، موجباً لتخفيف حالة التوتر النفسي لديهم، فيهتز إيمانهم من خلال ذلك.

قد تكون المسألة متحركة في خط الإيحاء في الأسلوب الذي قد يوحي بغير ما يريده.. مما يدخل في محاولة احتواء الساحة، بالموقف

المهادن لهم، والمجامل لعقيدتهم، من دون إعطاء أي اعتراف بها أو أي انجذاب إليها، وذلك من باب السكوت عنهم، والاكتفاء بالإعلان عن وحدانية الله من الناحية الإيجابية التي ترتبط بعبادته، لا من الناحية السلبية التي ترتبط برفض عبادة غيره، ليكون ذلك بمثابة الهدنة التي تخف فيها حدة الصراع، من أجل إيجاد الجو الملائم لإدارة الحوار معهم في جو هادئ..

قد تكون هذه الأفكار وأمثالها هي التي كانت تخطر في ذهن النبي محمد «صلى الله عليه وآله» في بعض الحالات الصعبة كما كانت تخطر في أذهان الأنبياء والرسل من قبله، عندما تشتد التحديات أمام الدعوة، ويتعرض المؤمنون للزلزال النفسي من خلال الضغوط التي تضغط عليهم بكل قسوة.

ولكن هذه الإيحاءات لا تترك أثرها في الواقع، ولا تملك موقعا مستقراً في عمق الذات، بل هي خطورات ذهنية تطوف بالذهن، وتتحرك ـ بسرعة ـ في مظاهر السلوك، فيتأثر بها المجتمع المؤمن بطريقة سلبية، وينجذب إليها المجتمع الكافر، بطريقة إيجابية.. ولكنها سرعان ما تزول أمام الحاجة إلى الموقف الحاسم الذي يفصل بين الإيمان والشرك بفاصل واضح، لا مجال فيها لأية مهادنة، أو لأي لقاء لأن المسألة تتصل بالأسس لا بالتفاصيل.. ولعل هذا هو المعنى الإيحائي الذي نستوحيه في قوله تعالى: **(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ**

ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (١) .

إن هذه الآيات وأمثالها قد توحي بأن هناك شيئاً ما يخطر بالبال، ولكنه لا يثبت في النفس بل يطفو على سطح بعض الممارسات، ثم ينتهي بشكل حاسم.. من دون أن يسيء إلى فكرة العصمة في الذات، أو العصمة في التبليغ، لأن تأثر الإنسان بما حوله في مسائل الخطورات الذهنية السريعة الطارئة، تماماً، كما هو تأثره بما حوله من الروائح الطيبة أو النتنة، أو بما تثيره الأطعمة اللذيذة القريبة منه، من إفرازات جسدية في حالة الجوع، أو الاشتهاء.. فان العصمة، لا تلغي العنصر الإنساني الذاتي في شخصيته، بل تلغي الحركة المنحرفة في خط العقيدة التي يعتقدها، والفكرة التي يتبناها، والكلمة التي يقولها، والحركة التي يتحرك فيها..

ربما يكون هذا الذي عرضناه تفسيراً للآيات، فيما نستوحيه من معناها، لأنه يتناسب مع طبيعة الأسلوب والكلمات الذي يؤكد أن الشيء الآتي من الشيطان يدخل في عمق الأمنية في داخل الذات، لا أنه يتحرك في دائرة الآخرين الذين يعيشون أجواء الرسالة بحيث يكون الإلقاء حركة في خط الأمنية في خط الآخرين، كما أنه لا يتنافى مع الشخصية النبوية الرسالية في التزامها بالتوحيد وإصرارها عليه،

---

(١) الآيات ٧٣ ـ ٧٥ من سورة الإسراء.

وابتعادها عن كل الإيحاءات والكلمات التي تتنافى معه، حتى بنحو الغفلة والسهو.. والله العالم بحقائق آياته.

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) ويزيله من فكر النبي أو الرسول وقلبه، حتى لا يبقى منه أي أثر سلبي على حركة الرسالة في الفكرة والأسلوب، لأن الله يتعهد رسله بالرعاية في مشاعرهم وأفكارهم، كما يتعهدهم في حياتهم وحركتهم في خط الرسالة، وذلك من خلال رعايته لرسالته من خلالهم **(ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ)** (١)، يثبتها فلا يدع أي مجال للريب فيها، من أية جهة كانت، وذلك من خلال ألطافه التي يغدقها على رسوله، فيمنع ـ بذلك أي تحريف للكلمة، وأي زيادة فيها، لأن ذلك هو السبيل لإحكام الآيات على أساس الثقة الشاملة بموافقتها للوحي الإلهي».

إلى أن يقول:

«..**(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)** من الكفر أو النفاق **(وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)** (٢). الذين تحجرت قلوبهم بالجهل والتخلف حتى لم تعد تنفتح على شيء من الفكر الحق، وتجمدت مشاعرها بالغلظة والقسوة، حتى لم تعد تنبض بالرحمة والخير. وذلك من خلال هذه الأجواء التي تثيرها الأساليب المتنوعة في الطبيعة

(١) الآية ٥٢ من سورة الحج.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الحج.

الإيحائية لحركة النبي في الساحة.. حيث تأخذهم العزة بالإثم من جهة، باعتبار ذلك مظهر قوة لهم فيما يمثله من التنازلات الإيحائية لحسابهم، أو تحركهم في طريق الفتنة» (١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

إن لنا هنا وقفات عديدة نكتفي ببعض منها، روماً للاختصار، كماً وكيفاً، فنقول:

١ ـ إن هذا البعض يصر على أن إلقاء الشيطان قد كان على شكل خطورات ذهنية تبرز في مظاهر سلوك النبي «صلى الله عليه وآله» (٢).

وأن الشيطان قد ألقى في فكر النبي «صلى الله عليه وآله» وفي قلبه، مع أن الله سبحانه يقول:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (٣).

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الأولى) ج١٦ص١٠٨ ـ ١١٣.

(٢) إننا قد نجد بعض المفسرين يفسر إلقاء الشيطان بالمرور بالخاطر، ولكنه مجرد خطور ذهني، وليس خطور مراودة ولا انعكاس فيه على تصرفات النبي «صلى الله عليه وآله»، كما يقول هذا البعض.

(٣) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

ويقول: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)(١).

وقال تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)(٢).

وقد يقال: إن الخطور بالبال ليس من الغواية، فلا تشمله الآية الشريفة، غير أننا نقول:

إن هذا البعض لا يقتصر على مجرد الخطور بل هو يقول: إنه ينعكس على الممارسة ويظهر في سلوك النبي «صلى الله عليه وآله» أيضاً.

٢ ـ إن هذا البعض يقول:

«إن ما ألقاه الشيطان في فكر النبي وقلبه قد انعكس على ممارساته، وتحول إلى سلوك وتجسد انجذابا إليهم، واستماعاً لهم، وقد أدى ذلك إلى إضعاف المؤمنين في ساحة الصراع، وتقوية الكافرين، وإلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة.

كما أنه قد تمثل بالموقف المجامل لعقيدتهم والمهادن لهم ».

ويقول هذا البعض أيضاً:

«إن ذلك يحصل لجميع الأنبياء في المواقف الصعبة التي

---

(١) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص.

(٢) الآية ٩٩ من سورة النحل.

يواجهونها».

ولا ندري كيف نوفق بين أقواله هذه وبين قوله الذي أورده تتمة له: «من دون أن يسيء إلى فكرة العصمة في الذات أو العصمة في التبليغ».

إلى أن قال:

«فإن العصمة لا تلغي العنصر الإنساني الذاتي في شخصيته، بل تلغي الحركة المنحرفة في خط العقيدة التي يعتقدها، والفكرة التي يتبناها والكلمة التي يقولها، والحركة التي يتحرك فيها».

فهل يتوافق هذا مع قوله: «إن الذي ألقاه الشيطان قد انعكس على بعض ممارسات النبي «صلى الله عليه وآله» وتجسد استماعا وانجذابا عاطفيا إليهم، وإقبالا عليهم، وموقفا مهادناً لهم، ومجاملا لعقيدتهم، وأدى إلى تقوية الكافرين وإلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة، وإلى إضعاف المؤمنين. وإن الشيطان قد ألقى ما ألقاه في فكر النبي وفي قلبه؟!».

وأين هي العصمة في الحركة التي يتحرك فيها هذا النبي، وفي الأسلوب الذي ينتهجه ويمارسه، لا سيما وأنه يلتزم أحياناً كثيرة بما يسميه بالعصمة التكوينية، فأين العصمة مع كل هذا، وأين تكوينيتها التي الزم نفسه بها؟!

وأي خلل أعظم من هذا الخلل الذي حصل بسبب ما ألقاه الشيطان؟! وبسبب ممارسات النبي التي نشأت عن ذلك؟!

٣ ـ ألا يعتبر كل هذا الذي حدث بسبب ما يطفو على سطح بعض ممارسات النبي «صلى الله عليه وآله» مما نشأ عن إلقاء الشيطان، ألا يعتبر ذلك كله ناشئاً عن جهل النبي ـ والعياذ بالله ـ تكليفه الشرعي، وخطأه في تشخيص الوظيفة في مقام التبليغ؟!

وإذا كان ذلك قد أوجب كل تلك السلبيات التي ذكرها هذا البعض، حسبما ذكرناه آنفاً، فإن المصيبة تصبح بالنسبة لحفظ الدين ونشره أعظم وأخطر، وأدهى وأكبر. حيث لا يبقى وثوق بالنبي «صلى الله عليه وآله» حتى من ناحية تبليغ الرسالة وحفظ رسوم الشريعة.

لا سيما إذا كان ذلك سيحصل لجميع الأنبياء، ولا يتعلم لاحقهم من سابقهم، وآخرهم من أولهم!.

٤ ـ بقي أن نشير إلى أن المراد من الآية الشريفة هو: أن كل نبي من الأنبياء يحب ويرغب (لأن التمني هو الرغبة في الأمر المحبوب) ما يتناسب مع وظيفته كرسول. وأعظم ما يتمناه هو ظهور الحق والهدى، وطمس الباطل، ورد كيد الأعداء.

فيلقي الشيطان في أمنيته (ولم يقل: في فكره ولا في قلبه) وأمنيته هي ظهور الحق. يلقي فيها ما يفسدها ويوجب عدم ظهورها.

فالأمنية هي: الشيء الذي يتمناه الإنسان ويرغب فيه، كما تقول: أمنيتي شفاء ولدي، أو نجاحه في الإمتحان، ثم يحصل ما لم يكن بالحسبان مما يمنع من شفائه أو من نجاحه، كخطأ الطبيب في الدواء،

وغيبة معلمه، فنقول: إن الشيء الفلاني ضيّع عليّ أمنيتي تلك وأفسدها، ولا يعني ذلك أن ذلك الشيء وهو خطأ الطبيب مثلا قد دخل في فكرك وقلبك، وأفسد التمني والرغبة.

بل هو قد افسد الأمنية والمتمنى. فالرغبة باقية، ولا تزال قائمة، والمتمني لم يزل يحب شفاء ولده ونجاحه بالامتحان.

ولأجل ذلك فإن كل نبي يتمنى أمراً وذلك الأمر هو أمنيته، فيلقي الشيطان في تلك الأمنية وفي ذلك الأمر بالذات (لا في نفس التمني والرغبة) ما يفسده ويضيعه، فيراه الناس ويفتتن الذين في قلوبهم مرض بفعل الشيطان هذا. فتتدخل الإرادة الإلهية لتبطل كيد الشيطان، ويظهر نور الهدى، ويتجلى بطلان الباطل.

والقرينة على أن المراد بالأمنية هو ظهور الحق وزهوق الباطل هو قوله تعالى بعد هذا (**فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**) أي من شبهات وغوايات (**ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ**) ويظهر نور الحق والله عليم حكيم.

وبذلك أيضاً يعرف السبب في أن الله سبحانه قال: (**أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**)، ولم يقل: في تمنَيه.

٥ ـ إن هذا البعض قد رفض ما ذكره العلامة السيد الطباطبائي من أن إلقاء الشيطان في الأمنية النبوية إنما هو في الواقع الخارجي وان الآية تتحدث عن إغواء الشيطان للآخرين.

نعم.. لقد رفض هذا القول مدعياً أن هذا يخالف دلالة الآية على وجود شيء ما من الشيطان، في طبيعة الأمنية أي في الداخل

علىشكل خطورات في البال أو في الذهن.. الخ.. حيث قال تعالى: **(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)**. ثم فسر قوله تعالى:

(فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) بالإزالة من فكر النبي وقلبه.

ولكنه هو نفسه قد عاد وادعى أن هذه الخطورات تنعكس على السلوك والممارسة، وتنشأ عنها آثار سلبية في الواقع الخارجي، فيضعف المؤمنون ويقوى الكافرون بسبب ذلك. وذلك ليتمكن من تفسير قوله تعالى: **(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)**. لأن مجرد الخطورات الذهنية لا توجب الافتتان من أحد ما لم تظهر على صعيد الواقع حركة وسلوكا وموقفا.

وبذلك يكون هذا البعض قد قرّر للآية معنى يسيء إلى العصمة، حيث تستقر هذه الخطورات في النفس وتترجمها بالممارسة كما أنه قد خالف ظاهر الآية أيضاً لأن الآية تقول إن نفس ما ألقاه الشيطان هو الذي يكون فتنة للذين في قلوبهم مرض، فإذا كان هو هذه الخطورات الذهنية وحسب، فإنها لا يعرفها الناس ولا يرونها. فكيف يفتتنون بها!؟ فلا بد من التأويل في الآية لتنطبق على الحركة والسلوك الخارجي للنبي «صلى الله عليه وآله». بادعاء أنها هي الخطورات الذهنية بسبب تجسدها فيه.

والنتيجة هي: أن ما ألقاه الشيطان له معنيان:

أحدهما: الخطور في البال والقلب في قوله تعالى: **(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)**. وفي قوله تعالى: **(فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)**.

الثاني: الحركة الخارجية والسلوك والممارسة: وذلك في قوله تعالى: (**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**).

ثم هو يقصد بالأمنية معنيين:

أحدهما: الرغبة والتمنّي، وذلك في قوله تعالى: (**فِي أُمْنِيَّتِهِ**). وقوله: (**فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**)

الثاني: ما نشأ عن الرغبة من حركة وسلوك، ومن مشاكل وآثار في الواقع الخارجي. وهو الذي افتتن به الذين في قلوبهم مرض، في قوله تعالى: (**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**).

والذي ذكرناه نحن في معنى الآية، وكذلك الذي ذكره العلامة الطباطبائي لا يلزم عليه شيء من ذلك. حيث قلنا: إن المراد بالأمنية هو الشيء الذي يتمناه الإنسان، وليس المراد بها الرغبة والتمني.. وهذا هو الظاهر المتبادر.

أما ما ذكره ذلك البعض فهو مخالف لظاهر القرآن من اكثر من جهة ولا مجال للأخذ به وليس كلام صاحب الميزان.

٦ ـ وقد أورد هذا البعض في سياق كلامه الآيات الكريمة التالية، مستشهدا بها على ما يذهب إليه: (**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ**

الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (١) .

ونقول:

إن هذه الآيات لا تؤيد ما ذهب إليه، لا من قريب ولا من بعيد، لأنها تقول: انه «صلى الله عليه وآله» لم يركن إليهم، بل ولم يقترب من الركون، لأن الله سبحانه قد أعطاه من العزيمة والثبات ما جعله في منأى عن ذلك كله.

وذلك بقرينة كلمة (لولا) الدالة على أنه لم يكد يركن، ولم يطف في ذهنه أيّ خيال، ولا خطر في باله من هذا الفعل حتى الإحتمال، فضلاً عن أن ينعكس ذلك على سلوكه، وممارسته، ويتسبب بخلق مشاكل، وتنشأ عنه آثار، أو ما إلى ذلك.

فلا معنى للإستشهاد بهذه الآية بأيّ وجه.

٥١٧ ـ إمكانية أن تثير التحديات ضعفاً في النبي.

٥١٨ ـ قد يكون النبي يبحث دائماً عن الهروب.

٥١٩ ـ قد يحطم هذا الضعف شخصية النبي.

٥٢٠ ـ قد يسيء هذا الضعف إلى موقع النبي.

٥٢١ ـ إمكانية أن يتعقد النبي بسبب ضعف تثيره التحديات.

٥٢٢ ـ إمكانية أن يتحول النبي إلى مخلوق مختنق بأزمته.

---

(١) الآيات ٧٣ ـ ٧٥ من سورة الإسراء.

يقول البعض في تفسير قوله تعالى: **(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)**(١) :

«وهنا يكمن سؤال: ماذا تعني هذه الآية في تقييم شخصية النبي محمد «صلى الله عليه وآله»؟! فهل كان يضعف أمام التحديات، لتجيء هذه الآية وأمثالها من أجل أن تقوّي ضعفه، أو تُسند له موقفه، أو تخفف عنه أحزانه، وتطيب به نفسه، وتزيل عنه آلامه؟! وهل جاءت في أجواء التأنيب الإلهي له، أو ماذا؟!

والجواب عنه: إن الآية ليست في مورد الحديث عن الحالة الواقعية الفعلية التي كانت تحيط بموقف النبي «صلى الله عليه وآله» أو تمثل شخصيته، بل كانت في مورد تقييم الطبيعة الموضوعية لما يمكن أن تثيره التحديات التعجيزية في الحالة الإنسانية من ضعف يبحث دائماً عن الهروب، مما يمكن أن يحطم شخصيته أو يسيء إلى موقعه، أو يتعقد من ذلك، فيتحول إلى مخلوق مختنق بأزمته، وربما كان هذا السبب هو السر في الإتيان بكلمة (لعل) التي توحي بإمكانية الموضوع، لما تختزنه مثل هذه الأمور من نتائج على مستوى الإنفعالات الإنسانية، في مواجهة عوامل الإثارة.

وبذلك يمكن أن تكون الآية عاملاً وقائياً يريد الله به حماية النبي

---

(١) الآية ١٢ من سورة هود.

«صلى الله عليه وآله» من الوقوع في مثل هذه التجربة، أو الخضوع لهذا الإنفعال، أو تكون عملية إيحائية للعاملين ـ من خلال النبي ـ ألا يستسلموا لهذه الحالة، لو واجهوا مثلها، انطلاقاً من فهمهم لطبيعة الدور الذي أوكله الله إليهم من الدعوة إلى سبيله بالوسائل الواقعية المألوفة ومما يجعلهم لا يعيشون الضعف في مواجهة هذه التحديات، لأنهم لا يعتبرونها تحدياً لدورهم أو لقدرتهم الطبيعية، بل كل ما هنالك، أنها التحدي لما يتوهمه أولئك من دور، دون ارتكاز إلى علم أو إيمان» (١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إن دلالات كلمات هذا البعض ترسم للقارئ طرفاً من الصورة التي تعيش في ذهنه لأنبياء الله «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» وليس هذا المورد الذي نحن بصدد الحديث عنه إلا أحد المفردات الكثيرة التي تجسد هذا المعنى، وتؤكده.

فقد استهل كلامه بالإشارة إلى أن الآية الشريفة لا تتحدث عن حالة واقعية فعلية.. لكنه أكد على أن الآية تتحدث عن إمكانية حدوث ذلك لنبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله»، أي أنه يمكن أن يتعقد أو أن يختنق بأزمته، واعتبر أن هذا هو السبب في الإتيان بكلمة لعل، في

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج١٢ ص٣١.

قوله تعالى: **(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ)** (١).

ولكن من الواضح: أنه حتى احتمال حصول ذلك للأنبياء مرفوض جملة وتفصيلاً.. فالنبي لا يتعقد، ولا يختنق بأزمته، ولا يضعف إلى درجة أن يبحث دائماً عن الهروب إلى آخر ما هنالك مما ذكره..

٢ ـ إنه قد ذكر أخيراً: احتمال أن يكون ذلك عملاً إيحائياً للعاملين من خلال النبي «صلى الله عليه وآله»، ألَّا يستسلموا لهذه الحالة فيما لو واجهوا مثلها.

ونقول له:

إنه إذا كان هذا الإحتمال كافياً في إعطاء الخطاب في الآية قيمته، وحيويته، فلماذا تثار احتمالات فيها انتقاص لمقام النبي الكريم «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين»؟!

٣ ـ بل إنه حتى لو لم يهتد هذا البعض إلى هذا المعنى الذي تشير إليه الآية، فإنه لا يحق له إبداء احتمالات لا يشك عاقل في أنها تتنافى مع حقيقة النبوة، ومع مقام النبي المعصوم.. بل عليه أن يعترف بالعجز عن فهم المراد من الآية، ويرجع علمها إلى أهله، وهم الراسخون في العلم من أهل بيت النبوة «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

---

(١) الآية ١٢ من سورة هود.

٤ ـ ولماذا لم يلتفت هذا البعض إلى ما ذكره العلامة الطباطبائي: من أن هذه الآية تريد أن توبخ الكفار على استمرارهم في العناد، والتحدي؟!

وضرب مثلاً لذلك، بملك تمرد عليه بعض ضعفاء رعيته، فبعث إليهم عاملاً له برسالة يقرؤها عليهم تدعوهم إلى السمع والطاعة، وتلومهم على تمردهم، واستكبارهم، فيردون على رسوله ما بلغهم إياه، فيكتب إليهم رسالة ثانية، ويأمره بقراءتها عليهم، وإذا فيها:

«لعلك لم تقرأ كتابي عليهم خوفاً من أن يقترحوا عليك أموراً تعجيزية، أو أنهم زعموا: أن الكتاب ليس من قبلي، وإنما هو مفترى منك؟!

فإن كان الأول، فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

وإن كان الثاني، فإن الكتاب بخطّي، كتبته بيدي، وختمته بخاتمي».

والآيات القرآنية التي هي موضع البحث هي تماماً في هذا السياق.. والآيات هي التالية:

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ)[(١)] .

٥٢٣ ـ لعل انفعال النبي لشخصه يتجاوز انفعاله لأجل الله.

٥٢٤ ـ التسلية للنبي لعلها لتخليصه من حالة ذاتية ترهقه.

٥٢٥ ـ قد يحزن النبي لمسألة شخصية ككون التكذيب موجهاً إليه كشخص.

٥٢٦ ـ قد يواجه النبي الموقف بالمشاعر الذاتية بدلاً من العقلية الواقعية.

٥٢٧ ـ قد يواجه النبي الموقف بالمشاعر الذاتية بدلاً من الذهنية المرنة.

٥٢٨ ـ تسلية النبي بالإيحاء إليه أن التكذيب موجه إلى الله لا إلى شخصه هو.

٥٢٩ ـ محاولة تأكيد الفكرة في ضمير النبي لكي يفرغ ذاته من الإنفعال.

٥٣٠ ـ النبي يواجه صدمات انفعالية صعبة ـ شخصية ـ تثقل حركته في الدعوة.

٥٣١ ـ ردة الفعل لدى النبي يجب أن تبتعد عن الذات والذاتيات.

٥٣٢ ـ التكذيب لله وهو فوق الإنفعال لا للنبي الذي ليس كذلك.

(١) الآيات ١٢ ـ ١٤ من سورة هود.

٥٣٣ ـ النبي قد يرى العمل مرتبطاً بذاته لا بمسؤوليته.

٥٣٤ ـ لو أن النبي اعتبر العمل مرتبطاً بمسؤوليته لا بذاته لعمل بموضوعية، وهدوء.

٥٣٥ ـ النبي قد يفهم القضية أمراً شخصياً له.. ولا يفهمها مرتبطة بالنطاق العام للرسالة.

٥٣٦ ـ هناك حالة بشرية في النبي تحب التمرد.

٥٣٧ ـ هناك حالة بشرية في النبي تحب الهروب من المسؤولية.

٥٣٨ ـ مواجهة حالة التمرد والهروب بمنطق الواقع.

٥٣٩ ـ الواقع يفرض الهدوء النفسي، وحالة النبي البشرية ليست كذلك.

٥٤٠ ـ الواقع يفرض الإتزان العاطفي، والحالة البشرية في النبي خلاف ذلك.

٥٤١ ـ الواقع يفرض الثبات العقلي، والحالة البشرية في النبي ليست كذلك.

يقول البعض:

«هل كان الرسول يشعر بالحزن الروحي على ما يواجهه به قومه من تكذيب؟! وهل كانت المسألة تمثل بالنسبة إليه حالة ذاتية ترهقه ليحتاج إلى التسلية التي تبعد الموضوع عن التحدي الذاتي، وتجعله بمنأى عن النتائج السلبية المؤثرة على المشاعر الخاصة، وذلك بالإيحاء له بأن التكذيب ليس موجهاً إليه، بل موجه إلى الله من

خلال ما يكذب به الظالمون من آيات الله؟!

وهل إن مثل هذا الأسلوب يريح النبي محمداً «صلى الله عليه وآله»؟!

وإذا كان الأمر على هذا الشكل، فهل يمكننا أن نفهم أن انفعاله الشخصي يتجاوز انفعاله لله؟!

وأخيراً، هل ينسجم مع شخصية النبي في ما نعرفه عن إخلاصه لرسالته لربه؟!

هذه هي علامات الاستفهام التي قد ترتسم أمام القارئ لهذه الآيات عندما يواجه معانيها من خلال الفهم الحرفي لألفاظها.

ولكننا نفهم منها أسلوباً قرآنياً يتحدث عن تحليل الموقف الرسالي للرسول، ولكل الرساليين الذين يتبعون خطاه، في ما يمكن أن يخضع له البشر من نوازع ذاتية أمام التحديات، فهو يوحي بوجود شيء من هذا القبيل، كفرضية قابلة للحدوث، ولكن ليس من الضروري أن تكون قد حدثت بالفعل، لينتقل من خلال ذلك إلى الإيحاء بأن الموضوع لا يتحمل أية صدمة انفعالية صعبة، تثقل حركة الذات في الدعوة.

فإذا كانت صفة الرسالة هي التي تطبع شخصية الرسول فإن كل ردة فعل سلبية أو إيجابية ترتبط بتلك الشخصية يجب أن تكون بعيدة عن الذات والذاتيات.

وبهذا تكون القضية متعلقة بالله الذي لا يضيره شيء من تكذيبهم،

وجحودهم كما لا ينفعه شيء من إيمانهم وتصديقهم، لأنه الغني عن ذلك كله، فلا مجال لأي انفعال لأن الذات لا علاقة لها بالموضوع، والرسالة المنزلة من الله لا تتأثر بذلك، إن الله فوق الإنفعال، فماذا يبقى في الساحة؟!

إن المسألة ـ بكل بساطة ـ: هي أن يواجه الرسول الموقف بعقلية واقعية، وذهنية عملية مرنة، بعيداً عن كل الحالات الشعورية الذاتية، وبذلك تستمر القافلة الرسالية في سيرها الطبيعي، لتصل إلى أهدافها الكبيرة في نهاية المطاف.

وفي ضوء ذلك، تتحول هذه الآيات إلى خطة تربوية للعمل الرسالي، يواصل من خلالها ذاك العمل طريقه بكل موضوعية وهدوء، تماماً كأي عمل يرتبط بمسؤوليته ولا يرتبط بذاته، حيث يتحرك الداعية على أساس المعطيات الواقعية، ومدى انسجامها مع خط المسؤولية في عمله، فيعيش التجرد من كل ما لا يرتبط بالعمل، مما يجعل للحركة فاعلية قوية، ويقود الموقف إلى خطوات الواقع.

وهكذا تخرج القضية من النطاق الشخصي، لتتصل بالنطاق العام للرسالة، وللرسول، فلا تعود شيئاً شخصياً للنبي، بل تتحول إلى قاعدة عامة لكل الرسل، والرسالات، ومن هنا تتساقط كل علامات الاستفهام أمام شمولية القاعدة وثباتها.

إن القرآن يريد أن يؤكد الفكرة ـ الخط ـ في ضمير النبي الداعية، ليفرّغ ذاته من الإنفعال، فهناك حالة بشرية تحب التمرد والمواجهة،

والهروب من المسؤولية، فلا بد من مواجهتها من منطق الواقع الذي يبحث في الأرض عن الإمكانيات الحاضرة، والمستقبلية لانتصار الدعوة في حركتها الفاعلة، مما يفرض المزيد من الهدوء النفسي والإتزان العاطفي، والثبات العقلي.

فالدعوة تمثل رسالة الله، والتكذيب يواجه هذه الرسالة، فهو يواجه الله في النهاية»[١].

وقفة قصيرة:

ونقول:

لقد طرح ذلك البعض أسئلته.

أولاً: حول سبب حزنه «صلى الله عليه وآله» لتكذيب قومه له، وأنه هل هو حالة ذاتية له، أو هل أن انفعاله الشخصي يتجاوز انفعاله لله وغير ذلك؟!

ثم قرر في إجابته عنها: أن ليس من الضروري أن يكون ذلك كله قد حدث بالفعل، ولكنها تبقى فرضية قابلة للحدوث عنده، واحتمال كونها كذلك يساوق القول بإمكانها، وذلك يعني أنه لا مانع من وقوعها..

ثم أفاض في تفاصيل عناصر هذا الأمر القابل للحدوث لكل من النبي، والداعية على حد سواء..

---

(١) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج٩ ـ ص٨٢ و ٨٣.

فجاء هذا السيل من التصريحات التي حاولنا أن نشير إلى أكثرها في العناوين التي صدّرنا بها الفقرات المنقولة منه حرفياً فاقرأ، واعجب ما بدا لك!!

ـ فهل يصح احتمال ذلك كله في حق الأنبياء؟!

ـ وهل يجتمع احتمال هذه الأمور مع الاعتقاد بعصمتهم؟!

ـ وإذا كانت عصمتهم إجبارية، فما معنى احتمال أمور كهذه في حقهم؟!

ـ وأي نبي هذا الذي يخلط بين التكذيب لشخصه والتكذيب لله؟!

ـ وأي نبي هذا الذي يسلّيه، ويريحه أن يكذّب الناس الله؟! ويحزنه أن يكون التكذيب موجهاً لشخصه؟!

إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا بد أن تدور بذهن كل منصف عاقل.. وهل يصح بعد هذا كله أن يدعي هذا البعض: أنه يعتقد بعصمة الأنبياء، وبكفاءتهم العلمية والإيمانية لتحمل شمولية الرسالة؟!

٥٤٢ ـ المشاعر السلبية للنبي ربما تتحول إلى عقدة.

٥٤٣ ـ المشاعر تتحول إلى تساؤل دائم عن سبب إعراض المشركين عن القرآن.

٥٤٤ ـ المشاعر السلبية تتحول إلى تساؤلات عن أشياء كثيرة تضغط على وجدانه.

يقول البعض:

«..(**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ**). الخطاب لرسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي كان يعيش الألم والحسرة أمام بعد المشركين، وإعراضهم عن القرآن، وعن الدعوة إلى الله، وهذه المواقف تمثل خطوات المشركين العملية على صعيد خط الرسالة، تماماً كما هي الآثار التي تتركها أقدامهم على الطريق في حالة السير.

وربما تؤدي به هذه المشاعر السلبية الضاغطة إلى الهلاك، عندما تتعاظم أو تتحول إلى عقدة، وتساؤل دائم عن السبب في هذا الموقف المضاد، وعن الضعف الذي يحيط بشخصه، وبالساحة أمام قوة هؤلاء، وعن أشياء كثيرة قد تطوف في نفسه، وتضغط على وجدانه.. (**إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**) [(١)] » [(٢)].

وقفة قصيرة:

ونقول:

إننا نجل مقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن أن ينسب إليه إمكانية الإبتلاء بالعقد النفسية نتيجة لمشاعر سلبية ضاغطة، ولا بد أن نعطف كلامه هذا على حكاية الجوع العاطفي للحنان، فإن هذا يوضح ذاك، ويظهر عدم صحة ما يحاول أن يتخلص به من سلبيات ذلك القول العجيب، والغريب، وسيأتي توضيح ذلك حين الحديث عن

---

(١) الآية ٦ من سورة الكهف.

(٢) من وحي القرآن (الطبعة الثانية ـ دار الملاك) ج ١٤ ـ ص ٢٧١.

مقولاته حول الزهراء «عليها السلام». في بعض فصول هذا الكتاب.

كما أننا نجل مقام النبي «صلى الله عليه وآله» عن أن يكون ـ والعياذ بالله ـ جاهلاً إلى درجة ابتلائه بالتساؤل الدائم عن أسباب الموقف المضاد للمشركين، وجاهلاً بأسباب ضعف الساحة الإسلامية أمام قوة أولئك.

وبعد ما تقدم نقول:

إن إيغال هذا البعض في الخيال الذي لا مبرر له جعله يحتمل هذه الأمور الغريبة والعجيبة، مع أن الآية صريحة في أن حزن رسول الله «صلى الله عليه وآله» الناشئ عن صدود الناس عن الحق كان حزناً عظيماً جداً، ولا غرو في ذلك فهو يرى الكفر والشرك من أعظم الموبقات بمقدار معرفته بسلبيات هذا الشرك وآثاره البغيضة.

٥٤٥ ـ قد يكون آباء النبي «صلى الله عليه وآله» كفاراً.

٥٤٦ ـ المهم أن لا يكونوا أبناء زنا.

٥٤٧ ـ العقل لا يقبح كفر آباء النبي «صلى الله عليه وآله» بشرط أن يكون النكاح شرعياً لا زنا.

سئل البعض:

السؤال: يدور كلام كثير حول ضرورة أن يتولد النبي عموماً، أو نبينا محمد «صلى الله عليه وآله» خصوصاً من آباء مؤمنين موحدين، فما رأيكم بهذه المسألة؟!

فأجاب:

«هناك كلام للشيخ المفيد بإجماع الشيعة، على أن آباء النبي إلى آدم «عليه السلام» كانوا موحدين على الإيمان بالله.. ويستند الشيخ المفيد في كتابه تصحيح الإعتقاد في الإحتجاج لذلك إلى قوله تعالى **(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)**(١).

قال: يريد به تنقله في أصلاب الموحدين.

ولكننا نلاحظ: أن الآية لا تدل على نفي تقلبه في غير الساجدين من آبائه، لأنه يكفي في صدق ذلك: أن يكون بعضهم من الساجدين.

مع ملاحظة أخرى، وهي: أن ظاهر الآية هو الحديث عن قيام النبي «صلى الله عليه وآله» لعبادة الله، وتقلبه في الساجدين من عباد الله، باعتبار استغراقه في السجود لله سبحانه.

وإذا كانت بعض الأحاديث تدل على إرادة خلاف الظاهر، مما ذكره الشيخ المفيد، فإنها تتحدث عن تقلبه في أصلاب النبيين، كما جاء في رواية محمد بن الفرات عن الإمام الباقر «عليه السلام».

وفي رواية أبي الجارود، عن الباقر «عليه السلام» قال: «سألت أبا جعفر «عليه السلام» عن قول الله ـ عز وجل ـ: **(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)**(٢).

قال: يرى تقلبه في أصلاب النبيين، من نبي إلى نبي، حتى

---

(١) الآيتان ٢١٨ و ٢١٩ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ٢١٩ من سورة الشعراء.

أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم».

ومن المعلوم: أنه ليس المقصود بذلك ـ على تقدير صحة الحديث ـ: أن أجداد النبي بأجمعهم أنبياء، فيكون المقصود به: أنه تقلب في أصلاب الأنبياء، من دون أن يكون نافياً لتقلبه في غيرهم..».

إلى أن قال:

«أما الإجماع، فقد يكون مدركه كلام المفيد، فلا يكون تعبدياً. ولا قبح من ناحية العقل في كونهم كفاراً، إذا كان النكاح شرعياً، لا زنا»(١).

وقفة قصيرة:

ونقول:

١ ـ إننا لا نريد أن نتصدّى في هذه العجالة لبحث هذا الموضوع، فنأتي بالروايات التي رويت في كتب الفريقين، مما دل على إيمان آباء رسول الله «صلى الله عليه وآله».. فإن هذا الكتاب ليس كتاب بحث واستدلال، وإنما هو مخصص لبيان أقاويل جاء بها البعض.. لا مجال لقبولها في نفسها، أو في سياقها الذي وضعت فيه.

ويكفي أن نشير هنا: إلى أنه حتى أهل السنة، فإنهم قد ألفوا كتباً في هذا الموضوع، وذكروا فيها الروايات التي تفيد في بيان هذا الأمر..

---

(١) المسائل الفقهية: ج٢ ,ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

ومنها:

ألف: مسالك الحنفا في والدي المصطفى.

ب: الدرج المنيفة في الآباء الشريفة.

ج: المقامة السندسية في النسبة المصطفوية.

د: التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الجنة.

هـ: السبل الجلية في الآباء العلية.

وكلها مطبوعة بعنوان الرسائل التسع ـ للسيوطي في الهند ـ حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨٠هـ.

٢ ـ إنه إذا كان هذا البعض يلتزم بأن النفي يحتاج إلى دليل، كما الإثبات يحتاج إلى دليل.. فأين هو دليله على النفي؟! فإن غاية ما جاء به هو: أن علق على بعض أدلة المثبتين.. ولم يأت بدليل يثبت مقولته هذه..

٣ ـ إن الدليل المطلوب من هذا البعض ـ على الخصوص ـ لا بد أن يكون مفيداً لليقين، ولا يكفيه الإستدلال بالظواهر الظنية، وبالأدلة المعتبرة في خصوص الأحكام.. لأنه هو نفسه يقرر لزوم هذا النوع من الأدلة فيما يرتبط بالتاريخ، وبالأشخاص، وبالتفسير، وفي مختلف شؤون الحياة، وسائر المعارف.. ويرفض الاستدلال عليها بالأدلة المعتبرة في الأحكام الشرعية الفقهية ويقول: هي حجة فيها دون سواها.

٤ ـ إن هذا البعض قد ناقش الاستدلال بالآية، على أساس أنه يكفي في صدق تقلبه أن يكون بعض آبائه من الساجدين.

ولكن من الواضح: أنها مناقشة لا تصح.

فأولاً: إن الظاهر هو: أن هذه الآية واردة مورد الإمتنان على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فحملها على العموم والشمول يكون هو الأظهر، والأنسب بمقام الإمتنان الإلهي.. وبيان الرعاية الإلهية له «صلى الله عليه وآله»..

ثانياً: إن الجمع المحلى بالألف واللام يفيد العموم بإجماع العلماء كما هو مقرر في علم الأصول(١). وكلمة الساجدين جمع محلى بالألف واللام، فهي تدل على العموم.

٥ ـ إن دعواه: أن ظاهر الآية هو تقلب النبي «صلى الله عليه وآله» بين عباد الله الساجدين باعتبار استغراقه في السجود لله سبحانه.. لا مجال لقبولها.. فإن غاية ما هناك: أن يكون ذلك محتملاً في معنى الآية بصورة بدوية.. فإذا جاء التفسير عن المعصوم ليعيّن أحد الإحتمالين.. فإنه يتعين، وينتفي الإحتمال الآخر.. لأن الأئمة أعرف بمقاصد القرآن من كل أحد.. فلا تكون الرواية المروية عنهم مخالفة لظاهر القرآن لمجرد أنها عينت هذا الإحتمال وأكدت أنه هو المقصود دون ذاك.

---

(١) راجع: مفاتيح الأصول.

فلا يصح قوله:

«إذا كانت بعض الأحاديث تدل على إرادة خلاف الظاهر الخ..».

٦ ـ بقي أن نشير إلى قوله:

«ليس المقصود أن أجداد النبي «صلى الله عليه وآله» بأجمعهم أنبياء.. بل يكفي في صدق الآية أن يتقلب في أصلاب بعضهم، دون أن تنفي تقلبه في أصلاب غيرهم..».

فقد ظهر: أن إرادة هذا المعنى لا تنسجم مع مقام الإمتنان، كما أن نفس الرواية ظاهرة في العموم والشمول لجميع أجداده «صلى الله عليه وآله»، حيث تقول: يرى تقلبه في أصلاب النبيين، من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.

فإن التعبير بحتى التي جاءت لبيان الغاية، قد أظهر.. أن تقلبه في الأنبياء قد استمر من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.. ولا يتناسب هذا التعبير مع إرادة الموجبة الجزئية..

٧ ـ **إن من الواضح:** أن النبوة لها حالاتها، فهناك نبي مرسل إلى الأمة وهناك من أرسل إلى قوم، وإلى عشيرة، وإلى حيّ، وقد يكون نبياً يكلمه الملك، ويخبره عن الله، وليس مرسلاً لأحد.. بل يعيش هو حالة الصلاح في نفسه، ويكون الكمال المتجسد الذي يرى فيه الناس ـ دون أن يكون مأموراً بشيء تجاههم ـ الإنسان الإلهي المتوازن، والمرضي في كل حالاته.. فيهيؤهم ذلك لأجواء الإيمان، ويثير في فطرتهم كوامن الخير والصلاح، والإيمان والتقوى..

وعلى هذا الأساس، فلا ضير في أن يكون جميع آباء النبي الذين خرج من أصلابهم أنبياء إلى آدم، وإن لم تكن لهم دعوة، ولا رسالة تختص بهم، فيكون عبد الله والد النبي «صلى الله عليه وآله»، وعبد المطلب وكذلك آباؤه جميعاً لهم هذه الصفة، وإن اختلفت مقاماتهم، ومهماتهم.. حسبما ذكرنا.

٨ ـ **ويؤيد ذلك أيضاً:** ما ورد من أن الأرض لا تخلو من حجة، إما ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ومَن أولى من آباء رسول الله «صلى الله عليه وآله» بهذا المقام؟!

٩ ـ ويبقى إجماع شيعة أهل البيت «عليهم السلام»، الذي لم يقبل هذا البعض بأن يكون تعبدياً، لأن من المحتمل أن يكون مستندهم فيه هو أدلة الشيخ المفيد..

ونقول:

إن حديثه عن تعبدية الإجماع هنا غريب وعجيب، فإن هذا الإجماع ليس على حكم شرعي، ليوصف بالتعبدية تارة وتنفى عنه أخرى.. بل هو إجماع يكشف لنا عن أن هذا الأمر الذي لا يُعرف إلا من أهله ولا طريق إلى معرفته بالعقل، قد قرره أهله وهم الأئمة الطاهرون المعصومون، وتحدثوا عنه وذكروه للناس وصرحوا به، وقالوا: إن آباء النبي كلهم مؤمنون من آدم «عليه السلام» إلى عبد الله أبي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لأن العلماء لا يقولون ذلك من عند أنفسهم، فهو علم من ذي علم.

وواضح: أن من يريد التعرف على أي مذهب، فإنه يرجع إلى الأتباع الذين هم أعرف بقول إمامهم.

أضف إلى ما تقدم: أنه لو كان الإجماع تعبّدياً للزم أن يكون الإجماع على الإمامة تعبّدياً أيضاً، فهل يحكم هذا البعض برده لكونه مستنداً إلى الأدلة؟! فهل هذا المنهج الإستدلالي صحيح أيضاً؟!

١٠ ـ وقال هذا البعض في آخر كلامه:

«لا قبح من ناحية العقل في كونهم كفاراً، إذا كان النكاح شرعياً لا زنا».

وظاهر كلامه هذا: أن القبح موجود فيما إذا لم يكن النكاح شرعياً..

فهل يريد أن يقول: إن شرك الآباء لا قبح فيه من ناحية العقل، أما الزنا ففيه قبح من هذه الناحية العقلية؟!

والسؤال هو: ما هو الفرق بين الأمرين؟! من الناحية العقلية البحتة؟! ولماذا قبح هذا ولم يقبح ذاك؟!

٥٤٨ ـ التقلب في أصلاب الآباء الأنبياء لا يدل على أن أولئك الأنبياء كانوا مؤمنين!!

يقول البعض:

«استدل الشيعة الإمامية على أن هذه الآية من سورة الشعراء:

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) (١) تدل على أن جميع آباء النبي موحدون وأن معناها تقلبك في الساجدين الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً.

وقد روي عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله «عليهما السلام»: أنهما قالا: يرى تقلبه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم «عليه السلام».

ولكن ذكرنا في تفسيرنا «من وحي القرآن»: أن المراد من الآية بحسب الظاهر من السياق، وقد ذكره جمع من المفسرين: يراك في تقلبك في الساجدين المصلين الذين يصلون معك، أو يراك في تحركك في أجواء السجود مع الفريق الذي يسجد لله خشوعاً، في ما يمثله مجتمع الساجدين العابدين الذي تتقدمه أنت في الموقع الطليعي فيه، والله العالم. أما الرواية، فلا دلالة فيها إلا على طهارة الآباء من الولادة بالزنا» (٢).

وقفة قصيرة:

ونذكر هنا:

١ ـ إن ما قدمناه في الفقرة السابقة يكفي لبيان عدم صحة ما ذكره

---

(١) الآية ٢١٩ من سورة الشعراء.

(٢) بينات عدد ١٥٧ بتاريخ ١١ شعبان١٤٢٠هـ ـ ١٩ تشرين الثاني ١٩٩٩م.

هذا البعض هنا.. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأنه إذا كان أهل البيت قد فسروا الآية الشريفة بأن المقصود بها: أن الله سبحانه يرى تقلب نبيه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه. فلا بد من قبول ذلك منهم؛ فإن أهل البيت أعرف من كل أحد بمعاني القرآن، وبأهدافه ومراميه..

وكما قال الإمام الصادق ×:

«فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا»(١).

ولن نصغي ولن نقبل من أحد أن يقول لنا: قال الإمام الصادق «عليه السلام». وأقول: فما ذكره هذا البعض في تفسيره لا بد أن يردّ عليه، وأن يؤخذ فقط بكلام أهل البيت «صلوات الله وسلامه عليهم».

٢ ـ والأعجب من ذلك قول هذا البعض هنا:

«وأما الرواية فلا دلالة فيها إلا على طهارة الآباء من الولادة بالزنا ».

مع أن الرواية صريحة في أن الرسول لم يزل يتقلب في أصلاب النبيين: من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.

مما يعني: أن جميع آبائه «صلى الله عليه وآله» قد كانوا مؤمنين أتقياء أبراراً. بل كانوا من الأنبياء، حتى والده عبد الله.. ولا مانع من أن يكونوا كذلك، فقد كان ثمة أنبياء تقتصر نبوتهم على أنفسهم، وعلى

---

(١) الكافي ج١ ص ٥١.

المحيط المحدود الذي يعيشون فيه، وقد تمتد نبوتهم إلى العشيرة أو الحي أو البلد الصغير أو الكبير.. من أجل أن يحفظوا الحق والخير في الناس بالمقدار الممكن لهم، بحسب ما يوجههم الله سبحانه إليه، ويأمرهم به.

٥٤٩ ـ نفي النبوّة عن النبي «صلى الله عليه وآله» قبل سنّ الأربعين.

ومن الواضح: أن هناك روايات رواها السنة والشيعة تدل على أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد كان نبياً منذ ولد يكلمه الملك ويسمع الصوت ثم أرسله الله رسولا للناس كافّة بعد أن بلغ الأربعين، وكلمه الملك معاينة، ونزل عليه القرآن، قال المجلسي رحمه الله: إن ذلك ظهر له من الآثار المعتبرة والأخبار المستفيضة (١)..

لكن البعض يقول:

«النبوّة الفعلية لا بد لها من الوحي، ومن التكليف الإلهي، ولم يكلفه الله بالنبوّة إلا بعد أربعين سنة» (٢).

وقد كنا نتمنى: أن يشير إلى تلك الآثار، والأخبار المستفيضة، ومن بينها ما هو معتبر وصحيح، التي اعتمد عليها المجلسي وغيره،

(١) البحار ج١٨ ص٢٧٧ وراجع: كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» ج٢ ص١٩٥ ـ ١٩٨.

(٢) نشرة فكر وثقافة بتاريخ ٣ ـ ٨ ـ ١٩٩٦ ص٢

خصوصا وأن هذا الأمر يحتاج إلى التعريف والتوقيف، وليس هو من الامور التي يمكن ان تنالها العقول والأفهام..